قمر كيلاني

الدوّامة

رواية



قمر كيلاني

الدوّامة

رواية

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق ـ ١٩٨٣

الاهداء

اليهما .. صديقين غاليين

(ف) الذي اخرج هذه الرواية الى النور

(ن) التي تتفتح عطاءات كبراعم النور

(قمر)

الفصل الأول

الأم هنية تصيبها وعكة خفيفة لا تدري معها لمَ تخطر لها فكرة الموت ، تقول لابنتها وكأنها تخاطب نفسها :

ــ أريد أن أكتب وصيتي . . أن أوزع ما أملك على أولادي . أريد أن أعرف ما الذي تبغيه سامية أولاً من تركتي . أنت ياسامية البنت الوحيدة بين أولادي الذكور .

ماترغبين فيه هو الأهم . طبعاً سأعطيك ماعندي من الحلي . هذا حقك . . إضافة إلى أشيائي الخاصة وبعض التحف وعدة أبيك الكاملة للصيد وبعض الكتب النادرة . أنت مثقفة . أم تفضلين النقود على العقارات والأرض ؟ .. ربما كانت النقود أفضل فأنت شبه أرملة ولا من يعينك على تحصيل الأجور من المستأجرين أو حصة المحصول من

الفلاحين . الأمور أصبحت صعبة هذه الأيام ، سأقسم الحصص بالعدل . . ولكن لا . . لتكن حصتك أكبر . ما المانع ؟ . . أنت تستحقين أكثر من إخوتك . . تسهرين علي . . تعيشين معي . . وأنا . . أنا حرة في أموالي . . صحيح أنها في الأصل أموال أبيكم ولكنها الآن لي ، سجلها باسمي حتى لايتحكم أحد بي من أولادي . كان يقول – رحمه الله – .

لايوصى الآباء بالأبناء . . بل العكس هو الصحيح . أولادي – أغناهم الله عني – غير محتاجين لي، هل نذهب إلى المحامي ياسامية ؟ .

نذهب إلى المحامي . . أو تطلبينه في الهاتف ليأتي بعد الظهر . .

– كما تريدين . .

– بل الأفضل أن نذهب فقد نحتاج إلى الكاتب العدل . . سآخذ معي كل الأوراق . . وكشف المصرف . آه يابنتي أشعر أنني مهدودة .

— تتحدثين عن التركة دون أن تسأليني ماذا أريد منها ؟

— لعلني أعرف .

تضحك سامية :

— أريد شيئاً لم يخطر في بالك .

تجفل الأم هنية . ماالذي لم يخطر في بالها .

— سأعطيك إياها .

هل تريدين أوراق أبيك ؟ . تنظر سامية بعينين ناريتين .

— تعطيني إياها كلها . . . مع دفتر المذكرات .

يشحب وجه الأم هنية . .

— دفتر المذكرات لن يأخذه أحد إلا بعد موتي . ثم إنه من حق أخيك الأكبر هذه هي الأصول . . . أن تبقى أسرار العائلة مع أكبر ابن لها .

تظل عينا سامية الناريتان تتسلطان على عيني الأم .

— ماذا ستفعلين به ؟ . . أبوك مات . . وماتت معه أسراره . وفي الدفتر لايوجد سوى حوادث حياته .

سامية تهمس بلهفة .

— إذن فقد قرأتها . دعيني إذن أقرأها أنا الأخرى على الأقل .

ترتبك الأم . تواصل سامية :

— من أموالك لاأريد أي شيء . . بل أريد منك أنت.

تتذمر الأم :

— لم أفهم . . ما الفرق بين ماتريدين مني وما تريدين من أموالي ؟ .

تهمس سامية من جديد :

— فرق كبير . اتركي الحلي لكناتك . . والتحف والأشياء الثمينة لابنائك . . والكتب لابنأهم . أما أنا فأعطيني شيئاً من نفسك .

تضجر الأم هنية :

— لاتتفلسفي ياسامية . . اتركي الأمور واضحة . لايضايقني منك إلا أنك تعاملينني أحياناً كأنني جامعية مثلك . أم أنك تمزحين ؟ ما الشيء الذي سأعطيك إياه ؟ .

بخضوع تتمسح بها سامية :

— أريد أن تكتبي لي عن كل شيء في حياتك . . ثم أن تعطيه لي .

الأم هنية تجيب بحدة :

— تريدين أن أكتب مذكرات مثل أبيك ؟ . . لست قادرة على أن . .

تقاطعها سامية وقد التصقت بها :

— ليس هذا بالضبط . . ولكن افترضي أنني لاأعرفك. واكتبي كل شيء . . بدءاً من اسمك وطفولتك حتى . .

بضحكة صفراء تقاطعها الأم :

— حتى ماذا ؟ هذا شيء سخيف . . ومضحك ياسامية.

سامية تبتعد عن الأم هنية . بشيء من الجد تقول :

— ولم ؟ .. ما يدريني أن ما أعرفه عنك حتى اليوم صحيح ؟ أكثر معلوماتي تلقيتها من الآخرين . . وقناعاتي عنك شكلتها بنفسي . وقد يكون في ذلك من الخطأ أكثر بكثير من الصواب . . أريد أن أعرفك من خلالك . .

أريد أن أعرفك من خلالك أنت . . أتصور أحياناً أن اسمك ليس هنية . لاتضحكي هذا ما أريده ولاأريد شيئاً آخر .

الأم هنية تبدأ تلين للفكرة :

— لكنه عمل شاق ياسامية . . أنا لاأجيد الكتابة وتركت المدرسة من الصف السادس .

سامية تعود فتتمسح بها :

— لكنك كنت تعتبرين متعلمة في زمنك . ألم تشتغلي في التعليم فترة ؟

تتنهد الأم :

— صحيح . . آه . . رحم الله زمننا . . ورحم أبي الذي علمني .

تردف سامية :

— لايهم أن تكتبي باسلوب عال . . المهم أن تسردي ماتريدين كما يخطر لك . .

مع بقية محاولة من الأم للتهرب تقول :

— ولكن . . لم هذا الطلب ياسامية ؟ ألا يغريك كل

ماعندي من أشياء جميلة حتى تصري على هذا الشيء الغريب؟
سامية تقبل وجنتيها :

— اقسم لك ياأمي أنني لاأريد أي شيء سوى هذا . . وإذا لم تنفذي طلبي فمعنى ذلك أنك لاتريدين أن آخذ منك أي شيء .

تسود فترة صمت . مثل هدوء يسبق رياحاً ، تحسم الأم هنية الموقف :

— أنا متأكدة أنك ستتراجعين عن طلبك عندما أفتح الخزانة وأضع بين يديك ماعندي .

والخزانة تفتح . وتنتثر أشياء ثمينة . أثمن مما تقدر سامية تبرق أمامها باغراء بالغ . تضحك بتحد .

— أخي صلاح في الكويت ليست أحواله المادية على مايرام . . وأولاده خمسة ولا يمنعه من الرجوع إلا كبرياؤه.. وفائز لايملك شيئاً وعنده هذه الزوجة المبذرة . . والثالث . . رحمه الله ترك لنا ولدين . كلهم يستحقون ماعندك ياأمي . .

آخر سهم كان علبة مطعمة بالصدف . . فيها أساور وأقراط وعقود . . تعبث بها سامية بلا مبالاة .

— هذا العقد اللؤلؤي يليق بصدر فاتن زوجة فائز . . وهذه الأسورة من الياقوت ستفرح قلب هناء ابنة صلاح . . وهذا القرط . . وهذا . . تنفجر الأم هنية :

— يكفي ياسامية . . يكفي . . أنت امرأة غريبة الأطوار .

تغلق الأم العلبة بعنف . تضعها في الخزانة . سامية تتعلق بعنق أمها من الخلف . تقبلها . مثل حمامة تنقر حباً بفرح . تقول الأم مستسلمة :

— سأكتب . . وسترين النتيجة . . سوف تطلبين مني أن أعفيك من هذا الشرط ، وتأخذين مقابله أي شيء من الخزانة . . أنا لن أخسر شيئاً .

تهمس سامية :

— وأنا لن أتراجع .

* * *

ماالذي يتفجر داخل سامية ؟ . . . تريد أن تكشف حقيقتها للناس . . . . وتكشف حقيقة الناس لنفسها لم لاتعيش حياة موحدة دون ازدواجية وتستر وهروب ؟ . . لم لاتعرف وجوه من حولها بلا أقنعة ؟ . . خير وشر . . طهارة ودنس . . ملائكة وشياطين . . طيبة وخداع ، لعلها يجب أن تبدأ بنفسها . . امرأة ذات عدة وجوه . . أو بلا وجه على الإطلاق. في أعماقها واد أسود رهيب لاتطل عليه مرة ألا وتشعر بالدوار وأنها ستسقط في هوة . ستكتب هي الأخرى مذكراتها . . . ستنفض كل نأمة وخلجة من روحها . . ستقف عارية أمام مرآة الذات . ما أفظع أن يقف المرء عارياً أمام ذاته لكنه لاشك مريح كما هو فاجع . إن لم تفعل فلابد أن تنتحر . . أو تطوي روحها في عزلة نهائية .

وكريم . . زوجها . . ألم يقل لها في الليالي الأخيرة قبل أن يفر إلى لبنان أنه ينفض أمامها نفسه كما ينفض غصن ناضج ثمره؟ ألم يحدثها عن ماضيه كله منذ فتح عينيه للحياة حتى التقى بها .

أجراس كلماته تجلجل في أعماقها . . الهتاف في المظاهرات . . توزيع المناشير . . السجن والضرب والتعذيب.. العقوبات الصارمة من أب قاس نصف جاهل . . الهروب من البيت بعد موت الأب والتشرد في الشوارع . . ثم اللجوء إلى امرأة سيئة السمعة تملك (بنسيوناً) . . وبين العنف والحرمان يكون نضال شريف . . من أجل لقمة العيش . . ومن أجل المبدأ والعقيدة وأثناء الدروس الخصوصية لأولاد الأسر الغنية يلتقي بها . . وتبهرها شخصيته . . وفي لقاء بارد كالصقيع يطلبها من أبيها . . وتكون الغطرسة والشدة . . وبعد ذلك تنهار علب الكرتون التي تحتجز بها البورجوازية الجديدة بناتها ويكون الزواج .

« أنا ياسامية إنسان بسيط . . . ومخلص . لاأفكر أن أقيم أي علاقة مع فتاة . همي هذا الوطن المسحوق المكبل بالقيود . . لابد أن ننتصر من خلال مبدأ عظيم .. الأجر الذي أخذته منكم كان يحرقني كالنار . . يجب أن تكون لدينا مدارس تعطي علماً حقيقياً . . وبالمجان . وأنا ، يجب أن يكون لي مكاني في وطني . كمثقف . ما الذي ينشرونه

من ثقافة بين أيديكم ؟ . لا أكثر من روايات رخيصة . . وكتب وأفلام تافهة . كنت مضطراً لأن أعطيك دروساً . فلم يكن لي أي مورد . من أعمال عدة طردوني لأني أنتقد . . وأحتج . . وأثور . وأنت . . الدمشقية المترفة ابنة ــ مجيد الشامي ــ كيف رضيت بي ؟ . . لو لم أكن صورة عن أخيك الذي استشهد عام ١٩٤٨ في حرب فلسطين هل كنت فعلت ؟ هل كان أبوك قد رضخ ؟ » .

وتزوجته . . لعل دماً جديداً يسري في جسد أسرتها البارد الذي خمدته العادات والتقاليد . . لعلها تخترق تلك الحلقة السحرية التي نسجتها بنات طبقتها حول الزواج . . لعل حياة من نوع آخر تسحبها إلى عوالم يرعش فيها الصدق ويتألق الحب . ولكن التجربة كانت صعبة . . وذات طعم مر . . اشتغل كريم من أجل مبادئه . . ونزف دمه سراً . . وجهدت لكي تظل لها صورة حياة زوجية . . طبيعية ومعقولة أمام الآخرين . فأين إذن ينابيع نفسها التي تبحث لها عن منافذ لتغدو سواقي وأنهاراً . لابد أن تسدها بالحجارة . . وأن تهدم فوقها كل الأبنية حتى تظل راقدة

في أمكنتها . . وتجاهلت ذاتها . . وظلت تحلم طوال سنوات خمس بأن تمزق الحجب عن هذه الذات لتطير فراشةزرقاء .

انتصرت المبادىء . . . هذا ما أصبح نوراً وناراً . احترقت أكوام القش في طبقتها وأكوام كانت تتزايد باستمرار . . وبشكل جنوني عجيب وقفت ترقب الحرائق ولا تند عنها صرخة . . أو يطرف لها جفن .

ماذا ياسامية ؟ . هل أنت ضدنا . . ضد أبيك ومن همالنجومفي سماء حياتك وحياة هذا البلد.وهي لاترد . . لاترى سوى النور الذي طالما تحدث عنه كريم . . يغمر الأكواخ . . يفرد جناحيه فوق المعامل . . يثمر ازدهاراً وفرحاً ، ورأت الوجوه من حولها صامتة كالرصاص . . جامدة كالرصاص . حتى وجه أبيها لم يعد يهل بالبشر إذ يراها . . وجهه أصبح معاتباً : لماذا ياسامية . . لماذا تزوجت ممن ليس منا . . ممن هدم صروحنا ولاندري ماذا يفعل أكثر ؟ . وجه أبيها أصبح معذباً . . ثم يائساً . . ثم انطفأ بصمت .

ويوم جنازته وقع اضطراب في الأسرة . . وشقاق بين الأقارب . . ونفور من الأصحاب والأحباب . لم يشيعه إلا قلائل . . وقال الناس مات مجيد الشامي . . والد زوجة كريم . . كريم السعدي . . ألا تعرفونه ؟ .

واتضح أن كريم السعدي أصبح معروفاً أكثر من أبيها . . ذا مركز مرموق أكثر من أبيها . . وباب بيت — مجيد الشامي — الذي انفتح للمعزين . . من رفاق كريم . . عاد فأغلق في وجه الجميع . . وهاجر صلاح إلى الكويت . . وفر فايز برصيد أبيه التجاري لا المالي إلى حلب . . وتقوقعت هي في بيتها مثل أرنبة مذعورة . وعندما باعت أمها البيت الكبيرة سكنت في شقة صغيرة . . وهاهي بعد أن ترك كريم ساحة نضاله وانهزم إلى لبنان . . تعيش مع أمها في هذه الشقة الصغيرة .

سنتان . . أو أقل . . أو أكثر . . وكل شيء يغدو أكثر ركوداً . . أكثر جموداً . . حتى الهواء الذي تتنفسه سامية غدا أكثر ثقلاً .

* * *

الأم هنية تستسلم لرغبة ابنتها العجيبة في أن تكتب حياتها . كم يبدو الأمر سخيفاً لايجوز أن تستمر فيه . . لكن عليها أن تبدأ به لأن تحدياً وقع .

في ليلة كان شيءفي داخلها رخو مثل عجين...أمسكت القلم . وارتجفت أناملها..وأعصابها .. وأهدابها.ثم كتبت .. أحست بالشيء الرخو يتشكل.. أعجبتها اللعبة لأن تستمر . تبدأ تنسى أمراضها الخفية..فكرة الموت والسأم . وتكتب كل ليلة . . وتكتب . أستار متداخلة تبدأ تفصل بينها وبين العالم . تغوص في عالم سري . الشيء الرخو الذي أخذ يتشكل يبدو لها كائناً ينبض بالحياة . . إنه الماضي . . ماضيها . . وإنها الحياة التي عاشت .

ليال عشر أنجزت فيها كل مايجب أن تكتبه . . تتردد في أن تعطيه لابنتها لكن عيني سامية الناريتين المحدقتين في يديها باستمرار تجعلانها تتراخى .

— خذي ما طلبت ياسامية . . وإلا أحرقته .

تناولها الأوراق وتغلق باب غرفتها كما لو أنها تقطع صلتها بعالم ما من حولها .

لكن سامية لم تستطع النوم كما لم تستطع القراءة . ارتجفت عندما لامست الأوراق وقررت أن تهرب بها إلى المصيف حيث تشربها بهدوء . . . قطرة . . قطرة ، حيث تفقد الأم أي أمل في استردادها . خط اللارجوع . كم تحب هذه المنطقة الفاصلة بين الأشياء . الصباح حريري ناعم تنتشر فيه برودة أول الصيف . الهواء منعش . . . عابق بالروائح العطرة . سكون يسقط فوق المدينة العاصمة. . . جوهرة المدن . مثل طائر حزين يبدو هذا الفجر . الأم هنية تفيق مضطربة على غير عادتها . أجمل ما في حياتها هذه الأوقات التي تشهد فيها تفتح الصباح بعد أن تصلي وتقرأ القرآن . . لكن هذا الفجر يرتعش كورقة خريف .. لاتعرف كيف تتوضأ . . . وكيف تصلي . تحاول أن تطابق بين حلمها وما يمكن أن يقع من أحداث . لاتستطيع . تعجز عن أن تستنتج السعد أو النحس . . . تستبعد كل احتمال وتتعوذ من الشيطان . لنفسها تقول : لا راد لقضاء الله. سامية تفيق : مثل وردة الصباح تتفتح باشراق .

ـ سأذهب إلى المصيف اليوم . . . مع أوراقي . . . أقصد أوراقك .

ـ وأبقى وحيدة ؟ أنا اليوم متضايقة . تشاءمت من منام رأيته . . أعيدي لي الأوراق . إنه شؤم . .

ـ ماعلاقة الحلم بما كتبت ؟ الحلم حلم . . والواقع واقع .

ـ استغفري الله ياابنتي . حياتنا هي ذاتها في النوم واليقظة . مانحن إلا كيان واحد . الحلم يؤثر على الواقع والواقع يظهر في الحلم .

ـ هل أقول لك إنني لن أعيدها ؟ .

يتجهم وجه الأم . سحابة سوداء تلفها . تبدو سامية أمامها معلقة على حافة أفق مشتعل . لعله الغسق . . . لعله الغروب . تتنهد الأم .

ـ ولكن . . . ماهو الحلم ياأمي ؟ .

تسأل سامية بنبرة تقطر عذوبة .

الأم هنية رأت في منامها أن زوبعة اجتاحت المدينة . . . قلبتها رأساً على عقب . دخلت الأشياء كلها في دوامة .

قامت ترتجف . حسبت نفسها لم تؤد صلاة العشاء . صلت . . . ثم عادت إلى سريرها . . عاد المنام . . أفاقت قبل الفجر . . . ثم نامت ثم عاد المنام . نوع من الأحلام تخشاها ذات تفسير سيء جداً لم يأت هذا الحلم إلا هذه الليلة . . . .

سامية تردف :

ــ خيل إلي أني سمعت صوتاً . هل كنت تناديني ؟ .

ــ بل كنت أستغفر الله من أجلك .

الأم تقوم متثاقلة إلى الخزانة . تتهادى متداعية :

ــ أعطيني الكتاب ياسامية .

ــ أي كتاب ؟

ــ كتاب تفسير الأحلام . . . في ثالث درج في الخزانة.

سامية تتناول الكتاب . تقرأ عنوانه :

ــ « العيش في سلام بعد تفسير الأحلام » .

ــ أي سلام هذا ياأمي . الكتاب هو الذي جلب لك الأحلام المزعجة .

ــ قلت لك ألف مرة لاتهزئي بمثل هذه الأمور

ياسامية . الأحلام رؤيا الروح عندما تشرد في الليل بعد أن تغادر الجسد . وهذا الكتاب وضعه عالم جليل . . . . وشيخ فضيل .

ـــ أنا لاأهزأ ياأمي . . . لكنني أقول رأيي . الأحلام ؟ ماالأحلام ؟ نوازع دفينة في النفس تتجلى بشكل مضطرب . من قال إن الروح تغادر الجسد ؟ لو غادرته لحظة لمات الإنسان .

الأم هنية تتمتم : أستغفرك عنها ياسيدنا الشيخ .

تعلن سامية احتجاجها :

ـــ لاتطلبي لي المغفرة منه ياأمي . لاأعرفه ولا أؤمن به ولايعني تفسير الأحلام لي شيئاً .

الأم هنية تقول بتحدٍ واضح :

ـــ لكنك تضعين في مكتبتك كتاباً عن تفسير الأحلام .

تجلجل ضحكة سامية :

ـــ كتاب علمي لفرويد . أتمنى لو قرأته .

ترد الأم بخفوت :

ــ لكن هذا الكتاب شيء آخر . مفهوم ويتحدث عما يجري مع كل واحد منا بالضبط .

تستدرك سامية :

ــ وهل مايجري معك هو مايجري معي ؟ أنت تفسرين كما تريدين .

شعاع من الغضب يلتمع في عين الأم هنية . هي في واد وسامية في واد آخر .

حياتهما معاً قائمة على أن تطيع سامية أمها فيما ترغبه وتريده . والأم في محاولة دائمة لأن تقترب من أفكار سامية . لكنها تصدم . . . وباستمرار . آراؤهما متنافرة . ولكن قليلاً ما تتناقشان ، لم تغضب إذن ؟ ما فائدة أن تغضب ؟ تقول كأنما تحدث نفسها :

ــ كانت . زوبعة مخيفة . . . بدأت بكرة صغيرة لعب بها الهواء . دارت حتى تحولت إلى دوامة . اتسعت . . . واتسعت . . . حتى ابتلعت المدينة . البيوت . . . والأشجار أما الناس فقد أخذوا يركضون في الشوارع . بعضهم عراة .

وبعضهم يضحكون كالمجانين . لم يبق في المدينة سوى فرقة عسكرية تشق الغبار . وبائع صحف يركض وينادي والريح تطير له صحفه .

لنفسها تقول سامية : حلم يصلح لأن يكون قصة رمزية . كل شيء في هذا الحلم مدروس جيداً .

تضيف الأم وهي تلهث :

— والرأس المقطوع . الرأس المقطوع أرهب مافي المنام . الكرة التي بدأت تدور كانت على شكل رأس مقطوع .

تغمغم سامية :

— والرأس المقطوع أيضاً .

تنبر الأم :

— كان رأس امرأة .

تردد سامية :

— رأس امرأة . . رأس امرأة .

ثم تضع يدها على رأسها . تترنح . توشك أن تسقط .

الأم تكمل :

— أليس هذا إنذار شر ؟ .

— إنذار شر ؟ .

تجيب سامية .

— ولمن الشر ؟ . . لنا ؟ . . هل نحن وحدنا نعيش في هذه المدينة ؟ فيها نصف مليون إنسان . .

— لكننا منهم . . وما يصيبهم يصيبنا . . اللهم عفوك وغفرانك يارب..ليس شيء إلا برضاك . . إن كنت خططت في لوحك المحفوظ أي شر لهذه المدينة فاجعله خيراً ياإلهي . .

من دوار متناقض تلهث سامية :

— مادام قد خط ذلك وانتهى منذ الأزل فلم تراجعينه فيما خط ؟ .

يستمر دعاء الأم :

— أنت ياإلهي غفار للذنوب . . أنت اللطيف العليم الخبير .

تمر فترة صمت . تنسحب سامية لتعود بالقهوة .

ـ قبليني ياأمي . . لاأحلى على قلبي من قبلتك .

ـ لكني غير مرتاحة .

ـ لتقبليني ؟ . .

ـ غير مرتاحة بشكل عام . كأن وخزاً خفياً في قلبي .

ـ بسبب المنام ؟ . ألم ننته منه بعد ؟ .

ـ وهل تحدثنا به لننتهي منه ؟ . . لم نتحدث به . سوف أذهب لأسأل الشيخ منصور عنه . ولكن اسمعي اعطيني من الدرج الثالث في خزانتي الكتاب . . هذا الكتاب ديني . . وأبوك نفسه كان يهتم به .

سامية تقول في نفسها : ومتى كان أبي يهتم بالكتب الدينية أو بالكتب كلها ؟ لم أره في حياتي يقرأ . .

الأم تدرك مايجول في خاطر ابنتها :

ـ غريب . . أبوك لم يكن يهتم بالكتب . . ولكن هذا الكتاب بالذات . . كانت له قصة عجيبة معه .

ـ حقاً ؟ . .

الأم تبتسم بمرارة :

— كانت حادثة واحدة ولكنني أراها الآن بوضوح كبير ، كان أبوك قد اختلف مع شريكه . . وإن هناك مكيدة مجهولة من أجل أرباح منتظرة . . ولكن دون إثبات . تناول الكتاب . . قرأنا . . فاذا هي قصة أحد الأنبياء والنعاج البيضاء والسوداء . هرع أبوك إلى شريكه وكأنه عثر على اللغز أو السر . جابهه بتغيير أسلوب العمل والدعاية وأنقذ أمواله . . أصبح يؤمن بالكتاب ويقول لي (كل مايمر معنا قد مر على الذين من قبلنا . . العبرة والموعظة واحدة والحادثة هي التي تختلف مع الزمن . هذا الكتاب من أعظم الكتب في العالم) . ما أكثر ما تضايق . . وما أكثر مالجأ إلى الكتاب .

تتنهد سامية :

— هذه ناحية خاصة جداً من حياة أبي لم أكن أعرفها . لم تذكريها لي . .

— لم أحدثك عنها لأنها من أسرارنا الخاصة أناووالدك .

— وهل ندمت لأنك حدثتني عنها الآن ؟ .

— لا . . لم الندم ؟ . ألم أنفض لك حياتي كلها في الأوراق ؟ .

سامية تمد يدها إلى أمها بالكتاب مثل مسحورة . . . مثل منومة . وبشيء من الرهبة . والأم تنظر بقداسة :

— افتحيه .

— على أي صفحة ؟

— افتحيه . . . هكذا كيفما اتفق واقرئي . إذا كان الفأل حسناً فسيكون ما تقرئين مطابقاً لما رأيت في المنام ، وفسري كما تريدين .

سامية تقول لنفسها : ماأسهل هذا . . أن أفسر ماأقرأ كما أريد . أسلوب سخيف في الرمزية .

الأم تدرك مافي رأس ابنتها .

— ليس الأمر سهلاً . لو كنت تقصدين الزوبعة وتحدث الكتاب عن القربان مثلاً . . أو السكون الذي يعقب الذبح والفداء لكانت النية زائفة والفال غير حسن . . ويفسد كل تفسير .

سامية تناقش ذاتها : في الرمز تحتاج إلى التطابق ، ماجدوى الرمز من دونه ؟ . . صحيح أنه يلمح ولكن لابد من وجود علاقة بينه وبين الشيء . . أو الواقع . . أوالحدث.

ترتجف يدا سامية وهي تمسك بالكتاب . أية أسرار تغلف هذه الكتب . أي غموض . . بل أي سحر . . شيء ما يدفعها إلى بئر الذاكرة . . ترى الفرح الغامض في عيون النساء وهن يدسسن في صدورهن التعاويذ ترى الأذكار بين موسيقى الدفوف . . والأولاد يمسكون أضرحة الأولياء والصالحين ، شحنة كالبرق تمزق عصباً ما فيها . هل تمسك حقاً بكتاب مقدس ؟ ماهي القداسة ؟ . هل هي موجودة أم نحن الذين نضفيها على الأشياء ؟ . . . لاشك أننا نحن نضفي القداسة . . . إذن فذراتها تشع من داخلنا . تقع فوقه فتعطيه القوة السحرية التي تجعلها ورقة على وشك السقوط .

الأم تقول :

— افتحيه ياسامية . . ولا تخافي . يكفي أنك خشيت . الخشية مطلوبة في مثل حالك ، وكذلك الرهبة . أما الخوف فيقطع عليك الطريق . . الخوف والإيمان لايجتمعان .

سامية تقول راجفة .

ــ عندما نخاف نؤمن .

تجيب الأم متعبة :

ــ وعندما نخاف لا نعود نؤمن أيضاً . نهرب من الايمان إلى الايمان لا إلى الخوف . أقرئي الآن دون خوف .

سامية تأخذ نفساً عميقاً.انها في أرض فسيحة وتحت السماء الزرقاء...كأن أفقاً أحمر يرسم أمامها لعله الغسق .. أو الفجر . . عيناها تمران فوق الحروف . . ماهو مكتوب يدور حول قوم سخط الله عليهم لذلهم واستكانتهم فأرسل عليهم زوابع أحرقت الأخضر قبل اليابس وأكلت الحرث والنسل وماعاد في الأرض زرع ولا ضرع . الدوامة قلعت البيوت والأشجار فلم تبق ولم تذر.ذلك لأنهم كفروا بالمعبود وعاش في ضميرهم الدود ولحق بعقولهم العطن وعلق بقلوبهم العفن.

الأم تصيح لفرط حماستها :

ــ اقرئي أيضاً . . فسري . . مامعنى رأس المرأة المقطوع ؟

بعناد مكابر ترمي سامية الكتاب من يدها :

ــ لن أقرأ .

— إنها النقمة .

لنفسها تردد سامية :

— بل لعلها النعمة . . . ليبق رأس المرأة المقطوع دون تفسير . بلهفة تسأل الأم :

— ماذا تقولين ؟

تبحر سامية في تيار عنادها :

— لاشيء . . لاشيء . . إنما أريد أن أسأل لو أن هذه الأرض التي ورد ذكرها حرثت بعد ذلك وبذرت أما كانت تنبت الزرع وتطرح الثمر وتدب فيها الحياة من جديد ؟ أليس الخير دائماً في الأرض ؟ .

تتذكر كريم ، أين أنت ياكريم وبذور أفكارك المطروحة في أرض بوار ؟ أين أنت ورأيك اللامع كحد السيف .. القاطع كحد السيف يفصل بين الأشياء.أو يقطعها ويمزقها ؟

بشيء من اليأس تجيب الأم :

— لاتكفري ياسامية . . من الذي سيزرع ؟ هلكوا جميعاً وبادوا . . أهل البلد الذين حل بهم الغضب لم يعد منهم أحد .

سامية ، ومن بين أمواج العناد تردف :

ـ أنا أسأل عن الأرض وليس عمن سيشتغلون فيها . .

بعصبية زائدة ترد الأم :

ـ لاأفهم ماذا تريدين ؟ ماقيمة الأرض دون البشر ؟ ستظل بواراً وخراباً .

سامية تحسم النقاش :

ـ لكن الأرض لم تكن أبداً بواراً ولا خراباً . الحقيقة شيء والواقع شيء آخر . أنت تتحدثين عن واقع ذلك البلد الوهمي وأنا أتحدث عن الحقيقة .

أواه ياكريم . . كم سحبتني وراء سراب الحقائق . . كم لهثت معك من أجل الوصول إليها . هل تراني وصلت إلى ذرة منه ؟ . . هل تراك وصلت ؟

الأم هنية لم تستطع أن تدرك ما تهدف إليه سامية . كل مافهمته أن ابنتها تجدف ولا تذعن لشاهد الحق على صدق منامها . هذا الشاهد الذي لم يسعفها بهذه القوة والنصاعة كما أسعفها اليوم . خيال الأم يظل يرتفع في المنام .

يركض وراء جزئياته: رأس المرأة المقطوع .. الأشجار .. والبيوت . . والدوامة التي تجرف البشر . . وو . .

أما سامية فذهنها مخنوق . . مثل سمكة داهمها تيار . . ماذا يرمز الرأس المقطوع . . والبيوت المنهارة . والأشجار المقلوعة و . . . .

الأم ترتد إلى فراشها مثل جندي يترنح بين الهزيمة والنصر . تمد يدها إلى وسادتها . تسحب أوراقاً .. . تعطيها لابنتها . تهم بأن تلقي بجسدها عندما تستوقفها سامية :

— إلى أين نذهب ؟ إلى الشيخ منصور ؟ أم إلى المحامي . . . أم إلى أين ؟

بلهجة جادة تقول الأم :

— بل إلى الشيخ منصور . . لابد أن أذهب إليه . . لابد . . وبعد ذلك سأذهب لعند صفية . . وأنام عندها هذه الليلة .

تجفل سامية. تلجمها المفاجأة . تعرف أن لا صلات ودية بين أمها وخالتها . . . منذ أعلن بيان حكومي بالقبض

على من يشتغلون بالسياسة و كريم بينهم . خاف الأهل من قرابتهم لهم وابتعدوا عنهم .وكذلك فعلت الخالة صفية فكيف ستبيت عندها . . ؟

سامية تسأل . . كأنما لم تصدق :

— هل . . . هل ستذهبين إلى الخالة صفية ؟

باصرار تجيب الأم :

— نعم . . . أرسلت بالأمس ابنتها في طلبي . . تريد رؤيتي .

تشهق سامية :

— رجاء ؟ هل جاءت رجاء ؟

تهز الأم رأسها وتردف بصوت فيه حنان مفجوع . .

— يمكن أن تكون في شدة وهي بحاجة إلي . أمر طبيعي أن يفتقد المرء أهله في الضيق فمن له غيرهم ؟

ولم تعد توجه أي انتباه إلى ابنتها . مشغولة بارتداء ملابسها وهي مرتبكة ، سامية مسمرة في مكانها . ما أعجب أطوار البشر . منذ أيام ودت لو أن شيئاً يمزق الصمت

حولها . . لو يزورها أحد من أقاربها أو معارفها . تهل رجاء بشبابها المنفتح . تكاد تنسى وجه خالتها . . ورنين ضحكة رجاء . . في شبه قطيعة مع الذين تحبهم كانت تعيش . . وهاهي اليوم تدق أبوابهم عند الفجر بأمر من أمها المتمنعة عن أي صلة عائلية أو اجتماعية .

الأم في ارتباكها لاتعرف كيف تعيد الحاجيات المبعثرة في الغرفة . . لكنها بحرص شديد تمسك بأنامل راعشة الكتاب الهام والذي تعتبره مقدساً توسده طيات ثيابها في جوف الخزانة حيث تفوح رائحة بخور . . تغلق الخزانة بهدوء ثم تسبق ابنتها إلى الباب الخارجي . .

سامية تتعجب من أمها كيف لم تسأل عن الخادمة النهارية التي تتولى شؤون البيت ؟ كيف لم تهتم بأمور الطعام.. ولم تصدر أي توجيهات تتعلق بميزان الحياة الاعتيادي . .

سامية تصمت . تحترم إرادة أمها ورغبتها الملحة في مغادرة البيت . . تسبقها إلى السيارة . قبل أن تنطلقا تنتفض الأم كأنما افتقدت شيئاً :

— هل نسيت شيئاً ياأمي ؟

— نسيت المفاتيح . . ولم أقفل باب غرفتي أيضاً . .

يزداد عجب سامية ، عجب ممزوج بالدهشة . .

— منذ متى تقفلين باب غرفتك ؟ وما أهمية أن تنسي مفتاحك ؟

أمور صغيرة تجري . . كلها ذات وخز حاد . . مثل رؤوس دبابيس مرهفة . . سامية تحس أن هذه الدبابيس تؤذيها . . تقع بارهاق فوق كل عصب من أعصابها . . يتحفز كل شيء فيها . يغدو رهيفاً حساساً :

— وهل . . هل ستنامين حقاً خارج البيت ؟

— لم لا . . . : ألن تذهبي أنت إلى المصيف ؟

— لكني لن أنام هناك . . ولو شئت لن أذهب . . ولو عقدت موعدك مع المحامي لن أذهب أيضاً .

— بل اذهبي . . إنما الأفضل أن تعودي مساء . ليس مناسباً أن تنامي خارج بيتك .

الأسطوانة ذات الأنغام النشاز تدور في سكون :

أنت امرأة شابة . . أنت امرأة جميلة . . تعيشين بلا زوج . . بلا أخوة . . بلا أب . . أو بلا ماذا أيضاً ؟ أيها الفاسدون . . أيها اللامبالون . . أيها الثرثارون . . لم لاتقولون أنني أعيش بلا روح . . بلا قلب . . بلا فراش دافىء أو حنان . . ؟

الألغام المزروعة أمام باب المنزل وفي الشارع حيث تقطن تتكاثر . . تتوالد . . تنزرع في المدينة كلها . . في الفنادق والمطاعم وأمام واجهات المحلات وعلى مداخل دور السينما . . ولم لاتزرع أيضاً في نوادي الثقافة وحلقات الفكر والسمر وأجواء الصداقة والأنس ؟ باب رصاصي يصفح جهات المدينة الأربع . . تغدو المدينة غرفة موحشة. . بيتاً بلا نوافذ ولا أبواب .

سامية تهز رأسها أنها توافق :

— لن أتأخر يا أمي . . .

ثم تبتسم ابتساهة باهتة صفراء تواجهها الأم بنظرة طويلة راعشة . .

ثم تبتسم هي الأخرى ابتسامة باهتة صفراء . .

ثم تنطلقان في طريق يعج بالبشر .

صفحة فارغة من أصل الكتاب الورقي

(عازلة بين فصلين)

عادة من عادات بعض المطابع

لا تبدأ فصلاً جديدا إلا على رقم صفحة فردي

(أو على صفحة تتوافق وضعيتها مع غلاف الكتاب)

الفصل الثّاني

توصل سامية الأم هنية إلى بيت أختها . . ثم تعود إلى البيت . لم يكن إلا الصمت . . والغبار . . وهواء ربيعي يشتد مع سخونة غير اعتيادية . هاجس يهتف بها أن تسرع حيث تركت الأوراق . لعل الأم إذ عادت تأخذ المفاتيح تكون قد استرجعتها ، لكن الأوراق كما هي . . مرمية مثل ذبيحة . تلقي عليها نظرة متشبثة ملفعة بسؤال ملح : هل تحدثت أمها بصراحة على الورق ؟ هل كشفت عن الحقائق؟ تسدل سامية الستائر الخشبية كما لو أن البيت غادره ساكنوه. تقطع حرارة الهاتف . تغلق النوافذ . تنزع ثيابها وتجول في غرفتها وهي تغني . أمها تظن أنها في المصيف . . ولا أحد

سيزعجها . تتناول الأوراق وآلة تسجيل وزجاجة سائل من خلاصة أعشاب البحر . تدخل إلى الحمام تسكب شيئاً من السائل في الحوض ترمي نفسها فيه . تتنهد . تدير الآلة فتصدح موسيقى أخاذة . بيد راجفة تتناول الأوراق . ماذا لو سقطت في الماء ، لن تكتب أمها حرفاً واحداً آخر ، هي واثقة . . بعد أن ظهرت أسطورة المنام خاصة . ولكن . لم تسقط الأوراق ؟ قرأت في مثل هذا الوضع . . أشعاراً . . وقصصاً . . ورسائل وأخباراً أيضاً . . تحس أن عيني أمها ترصدانها وهي في هذا الوضع الغريب . تلاحقانها وتسقطان كالفأس فوق يدها . أمها تعتقد أن العين تخترق الحجر . . وتخترق المسافات . القوة السحرية تنفذ رغم كثافة المادة وعبر تلاشي الزمن . ترتجف سامية أكثر . رأسها ثقيل وكأنها مقبلة على دوار . تسقط الأوراق الأولى في الماء . وقبل أن تغرق هي والأوراق في الماء تنتشل نفسها لاهثة ، تضع ثوب حمام فوق كتفيها والصابون مايزال عالقاً على جسدها . تلتقط خطواتها إلى أقرب أريكة . ترتمي والغرفة حولها تدور . . والعالم كله يدور . . أية دوامة

نقذف بها إلى هذه الغابة الموحشة . الأوراق أشجار استوائية ضخمة . . الحروف أغصان وفروع تلعب بها ريح مجنونة . لن تقوى على القراءة . . لن تقوى . أواه ياأمي . . أيتها الأم الطيبة . . غرست أشياء كثيرة في أعماقي وعشت أحاول اقتلاعها فهل أنا قادرة الآن أن أقتلع بذرة صغيرة من خوف المجهول وتوجس الغيب ؟ . أمي . . ارحميني من امتداد لك في . . من خيوط سحرية تربطني بك مثل حبل سري ، اعتقيني من إسارك . . دعيني لأكون حرة منك لأعود فأكون حرة فيك . . ياأمي . . . ياأمي .

وقت لم تحسبه سامية مضى ، تسمع نفسها تردد أمي . . يا أمي . . وأصابع خدمية تطبق على عنقها ، هل أغفت ؟ هل انتقلت إلى عالم مسحور ؟ أطياف رؤى لاتزال عالقة بأهدابها . هل هي أحلام ؟ أم رسوم وهم جني ؟ الساعة تدق ثلاث دقات . شريط التسجيل يدور دون موسيقى وسامية مثل دمية محطمة . في ثوب الحمام لاتزال والصابون

يعطيها إحساساً دبقاً وجوع يصرخ في أحشائها . بصعوبة تقوم وتفرد أعضاءها . ماذا عليها أن تفعل لتعود إلى نبض حياتها الإعتيادية بعد هذا الإنسحاب العجيب من عالمها ؟ تعيد الحرارة إلى الهاتف لتطلب وجبة طعام من المطعم المجاور . جرس الباب يدق . ترى من يمزق لها وحدتها وسكونها ؟ تحس أنها متعبة لاتستطيع أن تفكر من القادم ، لكن الوقت غير اعتيادي للزائرين . من وراء الباب تهتف : من ؟ تسمع صوت جارهم جابر . . تفتح الباب قليلاً لتسأله ماذا يريد . جابر يريد الدخول من أجل موضوع عام. تستمهله دقائق لترتدي ثيابها ثم تعود فتدخله إلى الصالون . لأول مرة تشعر بأن نظرات جابر هي من رجل لامرأة . . لماذا هذه المصادفات ؟ من أجل أن يزيد ارتباكها ؟ جابر يلهث وتدور عيناه في أرجاء الصالون كأنما يستجمع فكره ليتحدث فلا يقدر . . سامية تشجعه على الكلام . . تريد أن تنتهي من هذه المسرحية الصغيرة المشوهة.يدور في حلقة فراغ . . يسقط في الصمت . سامية تنتظر . . تشعل سيكارة..

تقدم له أخرى . تفاجأ بأنه يدخن . تسأله إن كان راغباً في فنجان قهوة . يتردد بين القبول والرفض . تختار الرفض لأنه أنسب . تكسر حلقة الفراغ . . تنشله من الصمت :

— هل تسافر هذه الأيام إلى بيروت ؟

كأنما تحل عقدة لسانه . ينطلق فيقول :

— سافرت منذ أيام . حرصت على أن أزور كريم — . . الحقيقة . . الحقيقة أن وضعه سيء .

تنتفض سامية :

— لماذا ؟ هل هو مريض ؟ . . هل يضايقونه هناك ؟. . أم . .

جابر يجيب بهدوء :

— لا . . أبداً صحته جيدة لا يلاحقه أحد . إنه لايمارس نشاطات ممنوعة بل هو متفاهم مع الأحزاب التقدمية وهم في سبيل تشكيل جبهة . . لم أقصد هذا . . أقصد . . الناحية النفسية . . أعني حياتكما العائلية .

سامية تفاجأ :

— ماذا تريد أن تقول ياسيد جابر ؟ وهل . . هل حدثك كريم بشيء ؟

جابر يذرع الصالون فيدخن السيكارة بنهم :

— أريد أن أقول أن كلا منكما لايحسد على وضعه . أنت شابة وجميلة . . وهو رجل أولاً وقبل كل شيء . هذا الفراق المحتوم يجب أن يوجد له حل . أنا أحب كريم وأحرص عليك . . ومجتمعنا قاس لايرحم .

سامية تتهكم بجفاء :

— أنا لاأهتم بالمجتمع ولا بقيمه لم أفكر يوماً إن كان قاسياً أو رحيماً . لكل عوالمه الخاصة بطريقته الخاصة .

جابر يردف بارتباك :

— أقصد أنكما لستما مضطرين لهذه الحياة ، وعندما نفقد أعذارنا أمام الآخرين علينا أن نتوقع قسوتهم . . لم التضحية ؟ كريم يستطيع أن يعود لينشط هنا . . وأنت . . على أي حال تستطيعين أن تعيشي مع زوجك في أي مكان .

تضيق سامية ذرعاً :

— أريد أن أعرف . . هل حدثك كريم بشيء مما تقوله الآن ؟ .

— لم يحدثني . . ولكني فهمت من تصرفاته كل شيء .

تتنهد سامية بارتياح :

— كان أمراً عجيباً لوحدثك . على أي حال أشكر لك شعورك نحونا ياسيد جابر .

باضطراب من وجد منفذاً لايعرف الخروج منه يقول :

— بل قولي نحوك . لو تدرين كم أنت عزيزة على قلبي . . أنت . .

مقاطعة تقول سامية :

— أنا نفسي لاأفكر في واقع حياتنا ولا أعتبر أن فيه مشكلة . . ومع ذلك سأكلفك بتوصيل رسالة إلى كريم قريباً .

— حول ماذا .

— حول ما تهتم به أنت الآن .

جابر يتنهد بارتياح . يقوم عن مقعده بتثاقل . يقترب من سامية :

تحس أنفاسه فوق جلدها . يزداد إحساسها بالدبق . ينظر إليها نظرة غريبة . وإذ يمد يده ليصافحها تعتذر بأن الصابون في يديها . يطرق ، يخرج من البيت بصمت .

تشعر سامية أن كابوساً قد انزاح ، ياهؤلاء الناس الذين يظنون أنفسهم مهمين لدى الآخرين . . محبوبين لدى الآخرين . . أو أن لهم أي تأثير في حياة الآخرين . تدور في البيت تبحث عن دليل الهاتف لتتصل بالمطعم . تكتشف هروب شهيتها. تذهب إلى المطبخ لعل الثلاجة تسعفها بفاكهة باردة . يرن جرس الهاتف . توشك ألا ترد فلم لايكون جابر وهو وحده أيضاً في البيت ؟ يتوالى رنين الهاتف ، يساورها القلق . ترفع السماعة . . يأتيها صوت خالتها المبحوح تطلب إليها أن تسرع بالمجيء لأن أمها متعبة . تصرح بلهفة :

— هل أصابها شيء ؟

لكن الخالة كانت قد أقفلت خط الهاتف .

* * *

في الطريق إلى الأم هنية تتنازع سامية تيارات من الهم . هل ضغطت على أمها في موضوع المذكرات فأرهقها ؟ هل فوجئت الأم بما يثيرها في بيت أختها فانهارت ؟ هل هو طارىء مرضي ؟ لاتستقر على فكرة . تمضي بسرعة كبيرة توشك معها أن تدهس طفلاً لولا أن استوقفها شاب . إنه — سمير — ابن صاحب الفندق في المصيف حيث أقامت الصيف الماضي . سمير يدعوها من جديد . تحس أنها تتخلص قليلاً من الأفكار التي تضغط على رأسها . تتذكر إجازتها المثيرة . . سمير . . واهتمامه الخاص بها وكل شيء ، امرأة أخرى تطل من أعماقها .. تدفع بها إلى منطقة الظلام وتعود لتنطلق إلى أمها بأسرع ما تستطيع .

في بيت الخالة صفية الضيق المتواضع وفي صدر الفناء حيث ايوان جميل .وأرائك خشبية تحيط بها أصص الورود فوق إحدى الأرائك تتمدد الأم هنية وقد غطيت بغطاء أبيض . سامية ترتعد وتكاد تصرخ . تسرع رجاء فتطمئنها بأن أمها بخير . الخالة صفية تجلس على كرسي صغير من

القش قرب رأس أختها متكورة كما لو أنها قرب رأس ميتة . لم تسلم عليها كما ينبغي بعد هذا الفراق الطويل إنما تبادرها بقسوة :

— ماذا فعلتم لها ؟ هذا الأمر لايحصل إلا نتيجة ألم وقهر . بعض الناس لايعرفون أن لهم أقارب إلا عندما يقع المقدور .

سامية لاتجيب . تسرع إلى أمها تسألها مابها ؟ وبماذا تشعر ؟ وهل تستدعي طبيباً ؟ الأم هنية تتكلم ببطء شديد وسامية تلاحظ أن يدها اليمنى تختلج تحاول أن تجعلها تقف لتمشي فيتضح أنها تسحب رجلها بصعوبة . الخالة صفية تقول إنها وقعت فجأة وهي تصعد إلى الإيوان وأغمي عليها ثم حملوها إلى الأريكة وسقوها ماء الزهر ورشوها بالماء ورجاء حاولت أن تنادي الطبيب لكن الأم هنية رفضت بعد أن أفاقت . أما الخالة صفية فظلت تقرأ لها الأدعية .

سامية ترتبك تجلس صامتة تنتظر إشارة من أمها . عينا الأم زائغتان لاتكادان تستقران على شيء . . دقائق

صعبة كأنها ساعات . ياهذا البيت بيت خالتها كم أحبته وهي صغيرة . . وكم ملأت أرجاءه ضحكات مع أولاد خالتها . . وكم خالفت أوامر والدها فنامت فيه ليالي الصيف القائظة . . كم تبدو الأشياء غريبة عنا إذا انقطعنا عنها . لكن الحنين يعيد كل شيء إلى مكانه .

الأم هنية تطلب أن تذهب إلى بيتها . بصعوبة تقف . . بصعوبة تمشي . . ورجاء تتوسل بعينيها إلى أمها أن ترافق سامية . الخالة صفية توافق على مضض . وتمضي سامية بالأم هنية . . المهدودة مثل شجرة اقتلعتها عاصفة .

الطبيب يقول بعد فحص الأم هنية إنه ليس إلا وهناً عصبياً والعناية الشديدة هي التي تبعد شبح شلل محقق .

سامية تسأل ملهوفة :

— والسبب ؟ ماهو السبب ؟

— ربما لم يكن هناك أي سبب مباشر لكنه ضغط شرياني . إلى جانب ضغط نفسي والحالة ليست خطيرة والامكانيات كبيرة الشفاء بشرط المثابرة على الأدوية

المقوية والتعرض للشمس والهواء وألا تبقى المريضة في حالة انفرادية .

يشرد ذهن سامية . الشيء الوحيد الذي تخشاه بعد انصراف الطبيب هو أن تبقى مع أمها وحدها . . أن تواجه التعبير الغريب المرتسم في عينيها . . أن تتلقى تلك الإشارات الخفية بالتعاسة . . بانذار الهلاك والموت .

الخادمة تدخل هلعة . بدل أن تخفف على سامية تبكي وتصرخ وتدعو على نفسها بالموت فداء للأم المسكينة التي داهمها المرض .

سامية تتشاغل بمكالمات هاتفية تطلب فيها أدوية . . وبالبحث في أرجاء البيت عن أشياء وهمية . . تسمع صوت أمها بقرار هادىء :

— سامية . . سامية

الإطمئنان يسري إلى أطرافها . تحس أن حواجز تتهاوى بينها وبين أمها وأنهما تعودان إلى علاقتهما العادية :

— ها أنا ياأمي . . نسيت أين وضعت مفتاح خزانتي . .

الأم تقول مصالحة :

— خذي مفتاحي . . القفل واحد .

تدور الأرض بسامية . لاتعرف هذه الحقيقة كيف يتفق أن يكون ذلك ؟ هل تعرف أمها محتويات خزانتها ؟ هل جربت المفتاح حتى عرفت أن القفل واحد ؟ في خزانتها أسرار حياتها كلها ، حتى رسائل مراهقتها.بطريقة ما تشعر أن الأم هنية أقوى مما تتصور .

تأخذ سامية المفتاح وخيط رفيع يشدها إلى عدم التصديق . . تعود خافضة الرأس . تناوله لأمها . كان ماقالته صحيحاً . أمام خزانتها تقف لتتأمل الأدراج والرفوف وكل ما تحتويه هذه الخزانة . ليس بامكانها أن تخمن شيئاً . أول أمس فتحتها وأخرجت دفتر مذكراتها وكتبت فيه طوال الليل فكيف تكشف عبث يد أخرى غير يدها ؟

تتذكر سامية قولاً . الألم يجعل المرء قاسياً ويصلب إحساسه . هي الآن مثل البحر وينابيع عاطفتها محبوسة . تدخل غرفة أمها وهي تمتلك الجرأة لأن تواجه عينيها مهما

كان نوع التعبير فيهما . تفاجأ بأن الأم هنية أغمضت عينيها في محاولة الإستسلام للنوم . لاتحدثها بشيء تسحب فوقها الغطاء وتغادر الغرفة مسرعة .

في الليل تنتظر سامية رجاء . . . همست لها سراً أنها ستأتي . على الشرفة انتظرتها بشوق كبير عندما تخطت الباب الرئيسي للبناء تهرع سامية لتفتح لها قبل أن تقرع الجرس . تدخلها إلى غرفتها دون أن تشعر أمها أو الخادمة . . رجاء . . رجاء يا هذا الشباب النقي الجميل . مثل زهرة برية أنت . هل لازلت سجينة البيت في انتظار العريس دون دراسة أو عمل ؟ هل لازلت تتفتحين ابداعات صغيرة في أعمال البيت والطعام ؟ كم تبدو براءتك نوعاً من الرضى والقناعة. . جهلنا بأشياء يجعلنا نقنع ونرضى بغيرها . . كيف لو أنك اكتشفت عوالم المجهول يارجاء . كيف لو عرفت مافي دنيانا على صغرها من أسرار ومغريات ؟

رجاء تدخل متبرجة . . بثوب ضيق يكشف عن مفاتنها.

— كيف وصلت يارجاء ؟

— أخذت — التاكسي — . . ثم إن أمي لاتعرف .

ماذا تسمع سامية ؟ رجاء . . تخرج بغير إذن أمها وتجرؤ على أن تأخذ التاكسي وحدها ؟ لابد أن هناك تطوراً ما . .

رجاء تندار بحركة تمثيلية واضحة تشعل سيكارة بينما يفوح منها عطر نفاذ . إذن . . لم تعودي أنت رجاء كما في الماضي . . هبت ريح ما . . قامت زوبعة . . ترى هل دخلت دائرة الدوامة ؟

رجاء تبدأ تغمرها بأسئلة كثيرة لاتجد مهرباً من الإجابة عنها ثم . . عرضت عليها أن تنام الليلة عندها . . حسناً سوف أفهم أشياء كثيرة رددت سامية لنفسها وهي تجيب متراخية :

— ألن تفتقدك خالتي ؟

رجاء تضحك مثل رنين بللور صاف :

— خالتك لاتفتقدني . . أنا أمضي ليالي وحدي . . لاأحد يطرق بابي من أين لها أن تعرف أني لم أعد ؟ هي

مشغولة الذهن بأولادها المسافرين أكثر مني . . قلت لها سأذهب إلى الخياطة وسأتأخر . وهي إن صعدت إلى غرفتها في الدور العلوي لاتنزل منها إلا صباح اليوم التالي .

— مادمت أصبحت جريئة هكذا فلم لم تتصلي بي كل هذه المدة ؟ كنت أظنك غير ذلك . . وأقول رجاء لاتخالف إرادة أمها . . لاتجرؤ أن تراني . . بل لماذاتراني ؟.

— لكني كنت دائماً أفكر فيك . . وأكثر من مرة حاولت المجيء وتهيأ لي أنك لاتريدين أحداً من أهلك .

بنبرة حادة تقول سامية :

— أنا التي لاتريد أم هم الذين لا يريدونني ؟

— قالوا : أصبحت متعجرفة ، لايعجبك العجب . . وخاصة بعد . .

— بعد ماذا ؟ قولي . . بعد زواجي . آه من هذا الزواج . . كم حمّلني أشياء . ومن هو الذي تزوجته ؟ رجل بسيط ومتواضع . .

— بل هو أقل منك . . لكنه . . ولأنه مثقف علمك العجرفة .

— لاتقولي هذا يارجاء . . أنت لاتعرفين الحقيقة .

سامية تدفع رجاء إلى غرفتها :

— تسللي بسرعة . . سنسهر دون أن يعلم أحد ونتحدث . .

وفي غرفة سامية الأنيقة . . المظللة بأضواء خافتة ترتميان .

— ما الذي دعاك إلى المجيء إلي ؟ أنا توقعت ذلك بعد لقائنا اليوم . . وكأنني أنتظرك .

تتنهد رجاء منكسرة :

— شيء غريب ياسامية . أحسست أن صوتك في أذني طوال النهار يدعوني أن آتي إليك. . كأنني أرتبط بك بأكثر من القرابة والدم . . لعلها روحك ياسامية . . لاأدري.

بمرارة تهتف سامية :

— مؤسف أن أهلنا يريدون لنا أن نتبادل عواطفهم

هم . . أن نحشو رؤوسنا بأفكارهم هم أو بالاحرى أن نكون تابعين لهم فاذا اصطلحوا علينا أن نحب بعضنا . . وإذا أختلفوا يجب ألا يعرف أحدنا الآخر .

— آه ياسامية . . ماذا أقول لك ؟ لاأحد يفهمني في هذا العالم . . حتى أمي . اخوتي مشغولون عني . . حتى — باسم — الذي يعيش معي لاأكاد أحدثه . . يخيل إلي أحياناً أنني لاأحبهم ولا يحبونني . ماذا تظنين ؟ هل يمكن للانسان ألا يحب أقرب الناس إليه ؟

سامية ترد على الفور :

— الحب مرهون بالتفاهم . على أي حال يكفي أننا لانكرههم إن كنا لا نحبهم .

— بل أنا أكرههم أحياناً . . وأكره نفسي .

سامية تحس أن قلبها ينفتح لرجاء. حجر وقع في البحيرة الساكنة بينهما. شيء مشترك يجمع بينهما والأحاسيس التي تتفجر في أعماقها وتتحول إلى تصرفات هي التي تضطرب وتصطخب في أعماق رجاء . الفرق أنها يمكن أن تحول

إحساسها أو فكرتها إلى فعل أما رجاء فتتخبط ولا تجسر على أن تصارح أحداً حتى نفسها .

سامية تطمئن على الأم هنية ، تناولت أدويتها ونامت . ترجع إلى غرفتها بخفة أرنب . جرس الباب يرن. تضايقت. . تود لو تفتح . من الذي يتطفل عليها في هذا الوقت ؟

إنه جابر وقد لمح شبح رجاء في غرفة سامية وهي تغلق الباب على نفسها يسأل سامية :

ــ هل عندكم أحد ؟ هل أزعجتك ؟ .

بفتور تجيب :

ــ لا . . لاازعاج . خير . . هل هناك شيء ؟

جابر يبتلع ريقه :

ــ الحقيقة جئت أتفقد إن كان يلزمك شيء . . وخاصة أن أمك مريضة .

ــ أمي حالتها حسنة . نامت الآن وأنا استطعت أن أؤمن لها كل احتياجاتها .

جابر يرتبك لايعرف كيف يتصرف :

– ظننت . . ظننت أن كريم قد رجع .

وجهها يظل جامداً قاسياً . جابر يشعر بالرهبة . يلمح حقيبة سفر صغيرة إلى جانب الباب فيمتقع ويحاول أن يتخلص من سؤاله :

– ظننت ذلك عندما لمحت حقيبة السفر .

سامية تضحك وكأنها كشفت محاولته :

– أنا هيأتها لنفسي . . كنت أنوي السفر إلى بيروت . مرض أمي أعاقني . أجبني ياجابر هل يمكن أن تساعدني ؟

إذ نطقت باسمه هكذا مجرداً . . وبشحنة من حنان ناعم أجفل . هذا مالم يعرفه قط من سامية طيلة جوار لسنين . .

يجيب بلهفة :

– أنا مستعد لأي خدمة . . أنا تحت أمرك .

سامية تعبث بشعرها الحريري الطويل . تتنهد ثم ترتمي فوق المقعد الصغير قرب الباب .

يملؤه ارتباك محير :

— ماذا تريدين ؟ هل أنت بحاجة إلي المال مثلاً .

تضحك ضحكة خفيفة :

— دقيقة واحدة وآتي لك بالرسالة .

تدخل إلى غرفتها بينما يمسح الرجل عرقه . . تعود بثوب سهرة يكشف جمال كتفيها المدورين وصدرها الأبيض. امرأة تقطر انوثة . . وجمالها من النوع الذي يسحر ويخدر أكثر مما يفتن ويثير . هذا ما كان يتردد في ذهن جابر عندما تقول :

— هل توصل هذه الرسالة إلى كريم ؟ قررت أن أكسر عن حياتي أطواق الجمود . أليس هذا ماتحدثنا عنه ؟

— طبعاً . . طبعاً . . هذا ضروري .

— ليس بالنسبة لعلاقتي مع كريم بل لكل شيء . لعلك ستفهمني يوماً .

جابر لم يدرك أبعاد كلماتها . يجيبها بشكل عفوي وهي تستمر في كلامها الملغز : على المرء أن ينفض الصدأ عن حياته كلما تآكلت . . أن يجدد عمره . وما يهم أن

ظهر للآخرين كما هو ؟ لماذا يظل التزييف قانون المجتمع وأن يعيش الناس وراء أقنعة ؟

سامية تقترب من جابر . . تخرج من دفتر أنيق مظروفين ورسالتين ، وتناول جابر إحداهما وكأنما تتشاغل بالكلام :

— أمس كتبت رسالتين هامتين . . هذه رسالة كريم.

يسحب جابر الرسالة . وهو يطويها ليغلق المظروف يلمح عبارات . يرتجف :

— هل أنت واثقة أنها لكريم ؟

— طبعاً . . طبعاً . .

وهكذا أوحت إليه أن يكون هو الآخر خبيثاً . يأخذ الرسالة .

— حسناً . . سأرى ماذا أفعل بها .

ينسحب جابر خارج البيت دون أن ينظر إلى سامية أو يلقي تحية الوداع .

سامية تستند إلى الباب بعد أن يخرج جابر . تضحك بمكر . ما أسخف هذا النوع من الرجال . تصرف كما

توقعت له أن يفعل . الرسالة التي أعطتها له لم تكن لكريم بل لصديقها تدعوه فيها إلى أن يعود إلى علاقته بها . تعمدت هذا الخطأ لترى ماذا سيفعل جابر . حجر آخر . ريح جديدة . . ودوامة من نوع خاص . هذا الرجل المحافظ على التقاليد المتزمت الذي يرى ابتعادها عن زوجها في حد ذاته خطأ كبيراً ماذا سيفعل ؟ لم يغمض عينيه عن استمرارها في العيش وحدها . . ولم يسكت . صارحها بذلك معتبراً هذا الوضع انحرافاً وشذوذاً وتشويهاً لعلاقة الزواج .

كيف سينظر إلى علاقة بين امرأة متزوجة ورجل .

سامية تتصور كل ردود الفعل التي يمكن أن تحدثها الرسالة في نفس جابر . تضحك . . وتضحك . . لكن إحساساً عميقاً يقول لها إن جابر سيتصرف بأسلوب مغاير من كل مرة ماضية : لاتدري لم تحس كذلك . . ولا تشعر بارتياح.تريد أن يتصرف بشخصية جابر التي تعرفهاويعرفها الآخرون جميعاً :

تستعيد فقرات من الرسالة :

عزيزي هاني : الشوق يدفعني لأن أرتاح بأسراري إليك . . أنا المرأة التي تعيش في صحراء العطش . . أنت لي الواحة بما فيها من ظل وماء . حياتي لم تعد تطاق لكأني لم أعرف الرجل الحقيقي إلا بك لكأنني الصبية التي تتفتح براعمها الأولى للمسات الحياة . . أنا المرأة المجربة .. آمري عجيب معك . . ما يشدني إليك أكثر مما يشدني نحو أي إنسان آخر . . وأنا أمامك لاأضطر إلى التزييف . . أكون هكذا . . عارية مثل شجرة ، حقيقية مثل صخرة .

عندما تصل إلى هذه العبارات وما يمكن ان تثيره في نفس جابر تضحك من جديد . لن يفهم أنها تقصد عري نفسها وحقيقتها أمام هاني ، سوف يتصوره عرياً جسدياً لا أكثر ، وسوف يلعنها ويشتمها ولن يتوانى عن أن يلحق بها أبشع الصفات . . لايهم . . المهم أن تفك الأكفان عن هذا المخلوق المسمى جابر .. هذا الكيان سيظل محسوباً على الحياة وهو محنط بأفكار تفوح منها رائحة ماض ميت ، ستظل عبارات رسالتها مثل نور كاشف

توجهه إلى جابر وعلى ضوئه ترى ما يصيبه من انفعالات وتصرفات .

تبدأ سامية تحس التعب رغم أن اللعبة النفسية مثيرة . عندما ترجع إلى غرفتها تجد رجاء وقد تكومت بثيابها ونامت والنافذة مفتوحة ينفذ منها هواء ليلي بارد . تستلقي على السرير إلى جانب رجاء . هل ستبدأ الدوامة ؟ وهل ستكون الرسالة هي البداية ؟ هل هي قادرة على ذلك ؟ يقولون أن إنساناً ما . . أي إنسان لايستطيع أن يغير قدره . . أو أي قدر لأي آخر . . والأحداث العظمى هي التي تغير الأقدار فهل هذا صحيح ؟ حسبها أنها تحرك التيارات العديدة حولها فتجعلها تصطدم . . تؤمن بوجود هذه التيارات وتحسها وتكاد ترى لكل إنسان من حولها بقعة يسبح فيها دون أن يلامس بقعة الآخرين . وقد يضيق على نفسه هذه البقعة . . كما يفعل جابر . . وربما يجعلها أكثر اتساعاً . إلا أن هناك بقعاً أرجوانية مبهرة . . خلابة . . تجذب إنساناً إلى آخر . . تجعله يقتحم عالمه مهما يكن الثمن .

سامية تسأل نفسها : هل أصبحت تعيش في بقعة موصولة بأسلاك مكهربة خفية ؟ ماذا لو أنها دمرت هذه الأسلاك وعادت إلى سكونها القديم ؟ ماذا لو أنها ظلت على حالتها الماضية تنتظر . . وتنتظر . . ولا تجرؤ على أن تغير أي شيء ؟ صحيح أنه كانت لها محاولات صغيرة . . لكن هذه المحاولات كانت تحمل سلفاً فشلها . فهي لم تتم تعليمها الجامعي لتنال شهادتها . . ولم تطلب عملاً . . . ولا هي أقامت علاقات حميمة وحقيقية مع أناس من حولها.. ليس أكثر من إطارات اجتماعية فارغة . . وحتى الثقافة . . ظلت تتناولها بسطحية جوفاء . . تقرأ لأن عليها أن تملأ أوقاتها بالقراءة . . وتناقش ببرود مصطنع كما لو أن عليها أن تبدي رأياً مخالفاً لرأي غيرها فقط . . ومذكراتها نفسها . . هل كانت صادقة ؟ هل صورت فيها مشاعرها وأفكارها بشكل صحيح ؟ كلما كتبت تخيلت أن أحداً سيقرؤها . . وكريم بالذات فاذا هي تصبها في أجمل القوالب . . مموهة ومغشوشة كانت تلك الكلمات . . لتمزقها . . ولتطعمها للريح .

أواه يا كريم . . كم حاولت أن تصوغ مني إنسانة حقيقية . . أو تعيد صياغتي من جديد . . لكنك كنت تفشل . سامحني . . أنا كنت سبب فشلك فقد كنت أوهمك أنك تتقدم . . وأنني أتغير وكنت استسيغ لعبة القط والفأر تلك . لكنك أبداً لم تقبض على هذا الشيء الهارب منك ومني والذي يترجرج في أعماقي . . من أنا تماماً يا كريم ؟ هل أنا حقاً فتاة بورجوازية كما يقولون وكما كنت تقول لي ممازحاً أو جاداً لاأدري ؟ لو كنت كذلك لما استطعت أن أوالي انزلاقاتي،وكان انزلاقي الأول والأكبر أنني تزوجتك . هل كانت — هنادي — و — مي — و — نبيلة — أو أي واحدة ممن أعرفهن من البورجوازيات حقاً تقدر أن تتزوجك ؟ أؤكد جازمة لا . . لم تبد أي منهن استنكاراً لما فعلت ولم تفه واحدة منهن بحرف لكني لمحت الصلابة في عيونهن . . وعندما تزوجن كان أزواجهن من الطبقة نفسها التي إليها ينتمين أليس هذا أكبر رد ؟ .

وأفكارك يا كريم . ومبادؤك التي بهرتني وسلبتني والتي بسببها تزوجتك اعترف لك الآن أنني لا أجد لها في

رأسي مدلولات ثابتة وأكيدة . كيف سأكون اشتراكية ؟ لا أعرف . . كيف سأناضل من أجل بلادي ؟ الصورة أمامي غير واضحة ؟ كيف أعيش ذاتي التي كنت تقول أني عثرت عليها ؟ كل شيء أمامي مشوش . هل لأنني لم أعثر على ذاتي أصلاً وكان ذلك استرضاء لك لاأكثر؟ ربما هذه هي حقيقة الحقائق التي لم أجرؤ على أن أصارح نفسي بها إلا بعد أن ابتعدنا عن بعضنا بعضاً . . لكنني الآن أحمل شرف المصارحة . . ولعله شرف المحاولة أيضاً .

كريم . . يا كريم . . لم أكن معك كما تحب . . لأنني أحببت ذاتي أكثر منك أما أنت فقد أحببتني أكثر من ذاتك ولأنك كذلك أردت أن تمنحني قبساً منها . . أن تدخلني في منطقة الوهج والنور فيها . . عندك الأمل لأن تصهرني . . وربما لتصوغ مني معدناً جديداً وكان هذا انتصارك الأكبر لو تحقق . . لكنه حتى الآن لم يتحقق جزئياً بل على العكس أخذ بالتراجع منذ انفصلنا أحسست بالسكين بيننا . . ربما تقطعني . . ربما تقطعك وهذا سبب

عذابك وهذا سبب قلقي. عذابك الذي انعكس في رسائلك. . وفي لقاءاتنا المبتسرة القصيرة في بيروت والذي لمح جابر ظلاً باهتاً لها ولم يعرف كيف يعبر عنه . أما قلقي . فهو الذي يدفعني إلى كل هذه الأمور ياكريم . . يدفعني بقوة مجهولة لا أستطيع الفكاك منها مثل منومة مغناطيسياً أندفع . . هل لأنني أحرص عليك . . ؟ على حبنا ؟ . . على بيتنا الذي عشش فيه العنكبوت ؟ هل لأنني الآن فقط أصبحت أعرف أنني إن لم أكن المرأة التي تريدها والتي أريدها سوف أخسر نفسي وأخسرك ؟ تعيسة هي حياتي من دونك . . وأكثر تعاسة لو عدت إليها معك وأنا كما أنا . .

كريم . . لست أقدر أن أمنحك . . كريم . . لست أقدر أن أمنعك . . كريم . . كريم . .

سامية تجهش ببكاء حاد . يسمع صوتها وهي تنادي : كريم . رجاء تفيق مذعورة :

— هل كنت تنادينه ياسامية ؟

سامية تلملم دموعها مع شهقة مكبوتة :

— لاشيء يارجاء . . أشعر بالشوق إليه لاأكثر . . افتحي النافذة . . . أرجوك .

رجاء تفتح النافذة . تعود مثل قطة كسلى لتلتصق بسامية :

— أحس يارجاء أحياناً أننا في علبة صماء لايتحرك فيها الهواء . . ومثل الذين يسجنون في غرف موصدة حتى يختنقوا أحس أنني موشكة على الاختناق .

رجاء تبدو وكأنها لم تدرك تماماً ماذا تعني سامية . تتثاءب وتحرك أجفانها في محاولة ليقظة كاملة .

— ولكنك ياسامية في حال أفضل من حال غيرك بكثير . . هناك من النساء من يحسدنك ؟

— يحسدنني ؟ على ماذا ؟ .

— أنت جميلة . . ومدللة . . وغنية.صحيح أن زوجك الآن بعيد عنك لكنك أنت لاتريدين اللحاق به . ثم أنه يغرقك بالثياب والعطور والهدايا .

— هكذا إذن . .

لنفسها تردد سامية : الثياب . . الهدايا . . العطور . .
مسكينة أنت يارجاء . لاتعرفين شيئاً . . لاتدركين شيئاً . .
ليس حالي أفضل من غيري بل هو أسوأ وبكثير .

لماذا لاتجتاح العاصفة المدينة كلها لماذا لاتثور الزوابع وتعصف الرعود وتنهمر الأمطار ؟ لماذا لايأتي الحدث العظيم فيهز الشجرة العظيمة فأما أن تصمد أو أن تنهار وتموت ؟ اما أن تبقى وهذا الدود ينخر فيها . . وهذه الأوراق تتساقط عنها . . والغبار يسفعها . . والشمس تحرقها فأمر أكثر من أن يحتمل . كيف لها أن تحتمل ؟ كيف يحتمل الآخرون ؟ ورجاء نفسها أليست مأساتها أكبر ؟ لكنه يبدو أن الذي لايشعر بمأساته فكأنه بلا مأساة .
من قلب أفكارها وموج دمعها تلتقط كبرياءها :

— حسناً يارجاء . . لنغير الموضوع تعالي أريك مالدي من ثياب . . وهدايا وعطور .

تفتح خزانتها . تترك كل شيء معروضاً أمام عيني رجاء البراقتين . . ثم تستلقي فوق السرير . . نشاط مفاجيء

يدب في أوصال رجاء . تقوم إلى الخزانة . تبدأ تعبث بمحتوياتها وهي تضحك ببراءة .

ـــ أشياء ثمينة . . ورائعة الجمال ياسامية . . تكفي لتسعد أكثر النساء شقاء .

ـــ اختاري ما تريدين يارجاء . . . السعادة أحياناً ليس في أن نسعد أنفسنا . . بل في أن نسعد الآخرين .

لنفسها تهمس :

ـــ خاصة إذا كنا عن إسعاد أنفسنا عاجزين .

رجاء تنتقي عقداً زمردياً :

ـــ يا الله . . لم أر أجمل منه في حياتي . .

ـــ خذيه يارجاء . . لاترددي .

ـــ لكنه مرتفع الثمن . . أليس كذلك ؟

ساذجة أنت وبريئة يارجاء . . مثل طفلة . ليتني أشعر بشهقة الفرح كما تشعرين . ليت الأشياء البراقة تخطف بصري كما تبدو لك . .

ليتني أستطيع أن أشتري ومضة الإحساس ولو بزمرد حقيقي .

— لايارجاء . . ليس مرتفع الثمن لأنه ليس من الزمرد الحقيقي . .

— لايهم . . لايهم أبداً ياسامية . . المهم أنه جميل وهذا الثوب الأسود ، لاشك أنه فاتن إذا ماوضعته على جسدك .

— لكني لم أضعه أبداً على جسدي وهل آرتدي السواد وأنا التي أعيش في سواد الغربة وعتمة الفراق ؟ ومن سأخاطب بلغة الجمال والفتنة إذا لم يكن لي رجلي ؟ رجلي المتألق أمامي مثل نجم يبدد كل سواد ؟ .

— أنت تفكرين أكثر مما يجب ياسامية . . بم تفكرين ؟

— لاشيء يارجاء . . لاشيء . . غداً سترتدين هذا الثوب . . وتضعين العقد . . وستظهرين مثل زنبقة .

— تقصدين زنبقة سوداء .

وتضحكان . . وتصمتان ثم . . . . يلفهما نوم عميق . . عميق .

صفحة فارغة من أصل الكتاب الورقي
(عازلة بين فصلين)
عادة من عادات بعض المطابع
لا تبدأ فصلاً جديدا إلا على رقم صفحة فردي
(أو على صفحة تتوافق وضعيتها مع غلاف الكتاب)

الفصل الثالث

جابر لايستطيع أن يدخل إلى بيته . . ولا أن ينفرد في غرفته . يهبط الشارع يدور ويدور دون هدف . ينتبه لنفسه والساعة قد قاربت منتصف الليل . يدخل إلى مقهى صغير على ضفة نهر بردى مغلف بنوافذ من الزجاج القذر . لم يتعود ارتياد المقاهي ولكن . . هذا المقهى بالذات ألف أن يقصده بين حين وآخر .

إنما . . في غير هذا الوقت . ربما أمضى فيه ساعتين بين السابعة والتاسعة مساء من أيام الجمع خاصة . وعندما يقترب وقت عشائه ينصرف . هو واقع في إسار عادات يومية صغيرة . ولكن ماذا يفعل ؟ ثم ان أولاده بحاجة إليه لكي يراقب دروسهم . . أما امرأته فهي تقلب الدنيا او تأخر .

إلى المقهى يصل جابر على غير عادته . . متأخراً . . وشارد الذهن . . ومخترقاً برنامج حياته التقليدي . ولايتوقع أن يرى أحداً من رفاقه خاصة وأن اليوم ليس جمعة . يفاجأ أنهم لايزالون حتى هذه الساعة المتأخرة يلعبون النرد ويضحكون ويتصايحون مثل الديكة . يكاد يرجع لولا أنهم لمحوه . . ثم نادوه . . لماذا يرجع ؟ بل لماذا يدخل ؟ لايدري . . كل عصب فيه كان مشدوداً إلى عالم آخر . . عالم سامية والرسالة التي توشك أن تحرق جيبه . أحدهم يصيح بتهكم لاذع .

— ماذا جرى لسيادتكم ؟ هل اختل نظام الكون أم إنها معجزة ؟ . . كيف تكون معنا في مثل هذا الوقت وتهجر فراشك الدافىء العزيز ؟ .

جابر لايجيب . . آخر يجيب بكلمات جارحة :

— فراش الرجل بعد الخمسين ليس دافئاً . . إنه أبرد من ثلاجة . وليس عزيزاً على قلبه ولا على قلب غيره .

ثم يبصق على الأرض ويعود ليضرب حبات النرد

بالطاولة بعد أن يستسلم الجميع للضحك . جابر رغم هذا لمينسحب ولم ينبس بحرف . يتناول كرسياً ويقترب من بشير العون ، وبشير متقاعد عازب هادىء الطبع ميال إلى الصمت ، بينما بشير يستمع إلى الراديو يقول جابر :

— هل هناك شيء في الأخبار ؟

يجيب بشير بهدوء :

— كنت سأسألك أنا لأنني في المقهى منذ ساعات وأنت جئت لتوك ، سمعت أنهم يهيئون لمسيرة في الغد بشجب تصعيد الحرب في فيتنام .

جابر لا يجيبه :

— ظننت أن لمجيئك علاقة بالأمر .

يعود الجميع إلى الضحك . جابر يقول مكابراً :

— وما العلاقة ؟ نحن انسحبنا من الحياة وانتهينا . . مكاننا خارج حدودها .

جابر يقول بنفاذ صبر :

ــ ولكن ليس ضرورياً خروجنا..ليس ضرورياً . اسمع يابشير ، اتركني من هذا الكلام وقل : هل لازلت تنام وحدك في البيت ؟

يستغرب بشير السؤال :

ــ طبعاً . . لو كنت تزوجت لعرفت بالأمر . وأمي وأبي لن يبعثا من جديد . . وأنا مقطوع من شجرة كما تعلم.

يقول جابر متأففاً :

ــ لاتعد علي اسطوانتك المعهودة في الوحدة والقطيعة وعدم الزواج ، أنا أسألك لأني أريد أن تعطيني مفتاح بيتك لأستريح . لن ألبث إلا ريثما تعود . إن كان هذا لايزعجك .

يجفل بشير :

ــ ولم ؟ خير إن شاء الله . هل ساءت العلاقة مع أسرتك إلى هذا الحد ؟ على أي حال خذ . .

ويناوله المفتاح . يأخذه جابر ويمضي دون أن يحيي أحداً . . وبشير الذي تناول الموضوع جدياً عاد ليمزح .

— جابر . . جابر إياك أن .

يلتفت جابر فيرشقه بنظرة نارية بينما هو يضحك..

في بيت بشير العون لم يعرف جابر كيف يهيىء لنفسه زاوية ليهدأ فيها . الفوضى المزمنة منتشرة في كل زاوية . إنه بيت عازب عتيق لم تلمسه يد المرأة حتّى ولو كانت خادمة . . والسيد بشير لايسمح لأحد أن يلمس شيئاً في بيته ، جابر يتذكر زوجته — أم هاني — فهي مهما تكن من عدم مجاراة العصر لو نفخت على هذا البيت لاستطاعت أن تمنحه من أنفاسها نفحة من الحياة . . مسكينة أم هاني . . كم يظلمها . . وكم يتهمها بالجهل والتأخر . . وكم يعارضها في كل ماتفعل . ثم هو يبعثر كل ماتسعى إلى ترتيبه بحجة أنه لايحمل شيئاً من الذوق . بيته مرتب . . ونظيف ة . وليس فيه أحد لكنه لايستطيع أن يخلو بنفسه فيه ليقرأ رسالة سامية ويكتب ردها إلى كريم عوضاً عن تلك

التي معه . . عيون أم هاني مغروسة على جدران البيت . . ثم إنه هنا على الأقل يستطيع للحظات أن ينسى من هو . . وماذا يفعل . . ولماذا ؟ يزيح طبقة من الغبار عن حشية جلدية قرب مصباح كهربائي حائطي .

يستند إلى الجدار ويفكر . . . ماذا يكتب ؟ عليه أن يهيىء في ذهنه كل مايريد أن يكتبه قبل أن يبدأ . . وعليه أن ينهي مهمته بسرعة ويخفي الرسالة ويختفي قبل أن يرجع بشير . هل يكتب لكريم على لسان سامية باختصار وبلهجة جدية أن يأتي ؟ إن فعل ذلك فلربما عاد كريم عودة من أرسل في طلبه فيعاتب سامية وليس مستبعداً أن يطلعها على الرسالة فينكشف الأمر . هل يكتب رسالة مزورة من امرأة ملهوفة إلى زوج غائب في سفر طويل ؟ في هذه الحال لابد أن يعبر تماماً عن مثل هذه المشاعر ويعطي الرسالة طابعاً انثوياً يتناسب مع سامية وحب كريم لها . . عند ذاك لن يكتشف كريم أي شيء ويسير الأمر كما أرادت . ولكن ما يدريه ماذا كتبت له في الرسالة الأصلية التي لم تصل إلى يده وظلت معها في المظروف الآخر . هل تراها

كتبت بروح المرأة الملهوفة على زوج غائب في سفر طويل أم أن هناك لهجة خاصة تخاطب بها سامية زوجها وهي أدرى بها ؟ تضج الحيرة في داخله . والوقت ينزلق من بين أصابعه وهو حائر مضطرب . يخاطب نفسه . أيها الغبي لكل زوج أو زوجة أسلوب خاص يخاطب به الطرف الآخر ويعامله . . ومعلوماتك الإنشائية التي علقت بقاياها في رأسك منذ أيام الدراسة لن تنفعك بشيء . . لن تسعفك بشيء . . يشعر باليأس . . يتصور أن سامية ربما اكتشفت الخطأ الرهيب الذي وقعت فيه إذ أعطته هذه الرسالة دون تلك . وأنها لاشك آتية بسرعة مجنونة إلى بيته لتطالبه بها . . ربما قرعت الباب طويلاً ولم تجد أحداً . . ربما هي تنتظره أمام الباب . . وفي أسوأ احتمال هي تذرع النافذة تنتظر قدومه بلهفة . . ولكن كيف ستكتشف الخطأ وقد رآها تختم المظروف الآخر أمامه وتهبط الشارع لتضعه في بريد الليل ؟ يحس أنه أخطأ في ابتعاده عن بيته . . فهناك . . قريباً منها يستطيع أن يتابع أي شيء يحدث معها . أما هنا فمن المستحيل أن يعثر عليه أحد حتى ولو انتحرت سامية

بسبب خطئها في الرسالة ، وعلى فرض أنها اكتشفت خطأها عند الصباح . فماذا سيكون عليه الأمر ؟ الرسالة الأخرى قطعاً ليست مشكلة كائناً من كان صاحبها . المهم هذه التي معه . . إنه مستعد أن يستغفر سامية لأنه قرأها ثم يعيدها لها بعد أن يطلعها على نص الرسالة التي أرسلها لزوجها حسب مافهمه من خلال لقائه الأخير معها . . ولكن . . لماذا يستهين بأمر الرسالة الأخرى ؟ . . هل يمكن أن يطلع شخص ما على تفاصيل علاقة زوجية هي في رأيه مهددة بالإنهيار ؟ ألا يمكن بعد ذلك أن تنهار إذا وصلت الرسالة إلى عاشق .

جابر يتذكر أن له صديقاً في مصلحة البريد يمكن أن يساعده في استرداد الرسالة . . لكنه إذ يتذكر قوانين البريد يشك في إمكانية المساعدة . . وهل هو صاحب الرسالة حتى يطالب باستعادتها ؟ .

لم يخلص جابر من قلقه إلا قراره بأن يسافر إلى بيروت . . ويمكث عند كريم . . ويرقب وصول رسالة إليه من سامية

فيصادرها . ثم يقنع كريم بالعودة إلى بيته . . ويعود . . وينتهي كل خطر .

ولكن . . لماذا يعود كريم وبهذه السرعة ؟ . أمن أجل سامية الخائنة :

يحس أنه مخدوع بها . . امرأة تعيش حياتها الخاصة بطيش . . دون أي وازع من ضمير .

ثم إنه لن يكتب أي رسالة ولابد له أن يذهب قبل أن يعود بشير .

ويهبط الشارع .

* * *

تفاجأ سامية عندما يرن جرس البيت . لم تكن تتوقع مجيء أحد في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل . . الأم هنية كانت قد خلدت إلى النوم بعد أن تناولت أدويتها . والخادمة في إجازة ورجاء في غرفة النوم . . تضطرب سامية فقد هيأت في زاوية غرفة الطعام مائدة صغيرة بكأسين . . . لها ولرجاء . وكانت قد أعدت هذا الجو الخاص من أجل

رجاء . . الصغيرة الكبيرة . . الهائجة الصافية . . ومن أجل أن تجعلها تتحدث عن أعماقها بما فيها من كنوز وطحالب. . ومرجان وحيتان . وليس من السهل أن تجعل إنساناً مايتحدث عن نفسه بصدق بين يديك . . أصعب وأعظم ما يواجه الكاهن هو الإعتراف . . وأعظم منه الإحساس بأن مايسمعه هو الصدق . الصدق أساس القناعة .

قرع الجرس يتوالى . لن ترد . لكنها تخشى أن تزعج الأم . تنظر من العين السحرية المثبتة على الباب . . ترى جابر وتلمح القلق على وجهه وهو يحاول أن يطفيء سيجارته على الأرض بحذر . تتردد في فتح الباب . لكنه يعرف تماماً أنها في البيت وربما ألح في قرع الجرس فأيقظ الأم وأفسد كل شيء . ملعون جابر هذا . . كم هو ثقيل الظل وسمج. . إنها لاتطيقه فلِمَ تفتح له بيتها وتدخله في صميم مشكلاتها؟ ألا إنها كذلك لاتطيقه ؟ . . كرهنا للأشخاص عامل لان نقترب منهم أحياناً . لنفسها تردد : أيها العجوز البليد . . سوف أجعلك تهجر المدينة كلها ، لو كان لي قدرة السحر

لمسختك قرداً . . أو لأخرجت ذاتك من الكهف بعد أن نامت تحت ركام الأوراق وبين توابيت الطاولات والحروف.

تدير في ذهنها ماذا يمكن أن تفعل حتى تثير ـ جابر ـ تجعل خياله ينشط مثل خلية نحل دون أن تقول كلمة . أحسن طريقة أن تفتح له باب غرفة الطعام وتتركه يتوهم كما يحلو له . الغموض أكبر أسرار المرأة . . وهو من صنع الرجل وليس من صنع المرأة . وما عليها إلا أن تصمت. ويقع الرجل في الدوامة . . أية لعبة شيطانية بدأتها مع جابر . . لتمعن بها إذن . .

تلقي سامية نظرة خاطفة على مظهرها في المرآة المثبتة خلف الباب . تعبث بخصلة شعر فوق جبينها . . تضغط على شفتيها لتثبت اللون الأحمر فوقهما وتبعد العروة عن الزر الأعلى في قميصها وتشيع في وجهها ذبولاً ناعساً ثم تفتح الباب . .

ـ آه . . جابر . . سيد جابر . . أهذا أنت ؟

يتنهد ويرد عليها كأنما تعب من الانتظار .

— نعم جئت من أجل . .

تتنحى قليلاً عن الباب . تترك له الفرصة لكي يرى المائدة وقد سقط فوقها نور أحمر خافت من رأس راقصة أفريقية . يحدق جابر حوله ويضطرب . . تقول بتكاسل :

— تأخرت في فتح الباب لأني كنت في غرفتي وراء المرآة . أنت تعرف قصة المرأة مع المرآة . . مثل قصة النحلة والزهرة .

بغضب مكتوم يقول :

— جئت في وقت غير مناسب . ربما تنتظرين أحداً .

ولم يجرؤ أن يقول : أن لديك أحداً .

قبل أن تجيب تفتح رجاء باب غرفة النوم . ماأن تطل برأسها وترى جابر حتى ترتد إلى الوراء . جابر لم يرها لكنه سمع صوت الباب .

سامية تقول :

— الحقيقة أنه لقاء صغير . ليس هذا وقته كما تعلم

ولكن كثيراً ما نشعر رغم قسوة الظروف أنه يجب أن نلتقي بانسان ما .

تقترب منه أكثر . تضع يدها على كتفه . ينفرط شعرها الأملس على كتفيها يحمل عبقاً مسكراً يدور له رأس جابر . تسأله :

— ماذا معك ؟ رسالة ؟ هل تخصني ؟

جابر يجيبها باضطراب :

— لا . . إنها لي . . أقصد أنها لاتعنيك .

تضحك سامية ضحكة صافية :

— كأنما هي من امرأة . . إن فيها عطراً . . وأنا أيضاً أحب اللون الأزرق للرسائل . . وأعطرها دائماً .

يمتلىء جبين جابر بالعرق البارد . . يوشك أن يقول لها إنها رسالتها . وإنه . . يريد أن يطلعها على الحقيقة قبل أن تتكشف الأمور وتقع الفضيحة .. لكن سامية لاتترك مجالاً للكلام . . ثم هي تتركه لتغيب قليلاً . . وعندما تعود تكون شجاعته قد اختفت وقرر ألا يقول أي شيء .

ـ إنه ـ باسيل ـ الصحفي . . هل تعرفه ؟ . . كلمني هاتفياً .

تدور الدنيا أمام عيني جابر . صحفي . . ويتصل بها في هذا الوقت المتأخر جداً من الليل . باسيل هذا بالذات لايهمه إلا اصطياد القصص ونسج شباك الفضائح .

بدون وعي يسأل جابر :

ـ وماذا يريد ؟ أقصد . . هل هذا وقت مناسب ؟ .

تتظاهر سامية أنها لم تفهم :

ـ لايبدأ عمله في الصحيفة قبل العاشرة . وأنا أتلقى مكالمات في مثل هذا الوقت أحياناً .

ومكالمات أيضاً . . وربما علاقة . . أي بستان من الشوك تسير فيه ياجابر . . ماشأنك بكل هذا ؟ أنت الذي عشت طوال حياتك محافظاً على كل شيء.النظام والعادات والأخلاق . . و . . .

هذا ماأخذ يردده جابر لنفسه . . يختصر الطريق للهروب .

ـ كيف حال والدتك ؟ هل تحسن ضغطها . ؟ .

تجيب ببرود :

ـ أظن أنها لن تتحسن بشكل تعود فيه إلى ما كانت عليه . . إنه مرض العجائز . . لكن بنيتها قوية .

يهم بالانصراف :

ـ وهل تحتاجين لشيء من أجلها أعني أي خدمة . . أنا مستعد .

ترد بضحكة ناعمة :

ـ ألهذا جئت ؟ أشكرك . لا أحتاج لشيء . هل لاحظت أن النور الكهربائي معطل على السلم ؟ كم هو مزعج بالنسبة لزوار لايعرفون تماماً البيت .

يوشك جابر أن يسأل شيئاً . . . لكنه يسعل . . يطوي الرسالة . . يدسها في جيبه . . ويمضي .

بينما هو يخرج . . كان شبح يخرج من غرفة سامية لم يستطع أن يتبينه لأنه كان عند آخر خطوة . حيث سامية والعطر النفاذ يتغلغل إلى دماغه .

* * *

عندما تعود سامية إلى غرفتها تجد رجاء في ثوب نوم حريري شفاف اختارته من مجموعة أثوابها المكدسة في الخزانة . تشهق سامية عندما تتأكد أن رجاء اختارت هذا الثوب بالذات ولم تأخذه مصادفة.لسامية مع هذا الثوب قصة لياليها الأولى مع كريم . . ثوب فاتح اللون يكشف عن مفاتن الجسد بشكل صارخ . . . وهو على جسد رجاء يعيدها بعنف إلى تلك المرحلة من حياتها . . مرحلة سن رجاء. أحد عشر عاماً ليست بالشيء اليسير . . أحد عشر عاماً أطفأت النار التي كانت تحت هذا الثوب . . وحطمت من عنفوان الصدر والعنق . . وهدت المشيئة . وجاء الاغتراب. . وجاء الفراق . ومافيهما من خمول وانطفاء . صحيح أنها لاتزال جميلة . . وبها دفقات شباب لايعرف الذبول لكنها الآن غيرها في تلك السنين . . وهي ليست أبداً كرجاء التي تتدفق حيوية وتمور بفتنة لم تتفتح براعمها بعدعلى يد رجل . . رجاء جزء منها . . بل إنها هي نفسها . رابطة قوية تشدها إلى هذه الشابة الجميلة أكثر من رابطة الدم والقرابة . رابطة روحية من نوع عجيب . هل هي

الأمومة ؟ . . لا . . لا . . رجاء توشك أن تكون امرأة مثلها تماماً . . كاملة النضج . وهي تعاني من مشاكل عاطفية كما ألمحت لها . تعاطف إنساني غريب يجعل سامية موشكة على البكاء . . وإلى أن تندفع نحو رجاء لتعانقها . لولا أنها تتماسك .

تستعين بصبرها وجلدها المعهودين . . تقول بصوت متهدج .

— كنت سأوقظك يارجاء لنتناول عشاءنا على طريقتنا .. لم تذق طعاماً منذ الصباح ، ولكنك أفقت وحدك .

تقول رجاء بلهفة :

— ماذا بك ياسامية ؟ هل أنت منزعجة من شيء . . كأن في صوتك الدموع . الحقيقة أنني أفقت على جرس الباب عندما جاء هذا الرجل .

تجيب سامية متجاهلة الجزء الأهم من سؤال رجاء :

— قرع الجرس أكثر مما يجب . إنه جارنا جابر . . جاء يسألني إن كنت أريد شيئاً . .

تسأل رجاء :

ـ ألهذا السبب أنت منزعجة ؟ ليس هناك خطر على الخالة هنية . ثم انك امرأة قديرة تعودت حمل المسؤوليات .

تود سامية لو تصمت رجاء . . غباء أن تفكر هكذا . ولكن لابأس . . لو لم تتكلم أي شيء لما عادت لها طبيعتها المتماسكة . . ولما عاد لها إحساسها أنها هي التي تملك الأشياء . . عاد صوتها هادئاً عميقاً . تقول لرجاء :

ـ إذا كنت لاتشعرين بالبرد اتبعيني رأساً إلى المائدة . . وإلا ضعي شالاً . . إنه أمامك . . ذو اللون الأحمر .

تجيب رجاء :

ـ إلى غرفة الطعام ؟ ولم ؟ نستطيع أن نأكل في المطبخ فلا نثير في البيت ضجة .

تعود سامية لتقول لنفسها :

ـ ليتها تصمت . . ليتها تفعل ما أطلبه منها دون أن تعترض .

تتمنى سامية لو أن لها قدرة حتى تجعل رجاء تتحدث

عندما تريد . . كما تريد . . باستسلام ورضى ليس فيهما ذرة من إرادة معاكسة .

تنظر سامية إلى رجاء نظرة ثاقبة . . تحس أنها تخترقها حتى الأعماق . .

هناك تعثر على حمامة وديعة مقصوصة الجناحين . . تراها تتخبط بجناحيها محاولة الطيران بلا فائدة . . تمد سامية يداً من حديد لتقبض على الحمامة المضطربة . . لاتستطيع . . تفلت منها . . تنقر أصابعها القوية فترتعد . إذن ليست رجاء على وداعتها كما تصورت . صحيح أنها ضعيفة ومكسورة الجناح بل ربما لم ينبت ريش جناحيها بعد ولكنها ليست مستسلمة . . ولا منهزمة . . تقول سامية :

ـــ هيأت لنا عشاء صغيراً بطريقة خاصة . . تعالي . .

وتنظر رجاء إلى المائدة . . وتشهق . .

ـــ بل هو عشاء فخم . . أراه سحرياً كما لو أنني في مكان عام وجميل .

ـــ هل ذهبت إلى تلك الأمكنة التي يسمونها الكهوف ؟

— لا . . لم أذهب مطلقاً . . سمعت عنها . . كم أتمنى ذلك .

— تتمنين ؟ ولم ؟ ما الذي يثيرك فيها ؟

— لاأدري . . أحس أنها عوالم خفية غامضة . تشوقني حتى تسلبني عقلي .

لا بد أن أذهب يوماً ما . . لابد .

— وماذا تنتظرين إذن ؟

— أنتظر ؟ . أنتظر الفرصة المناسبة . ما رأيك في أن نذهب معاً في يوم ما ؟ .

تنتفض سامية كما لو أن ناراً لامستها . إذن فرجاء هي الأخرى ترى فيها صورة خاطئة . . وخاطئة جداً عن نساء يعشن حياتهن إلى أبعد مدى . لعل الصورة أيضاً مشوهة . . ما يدريها ؟ هي في الواقع تكره هذه الأمكنة . . لاترى فيها أي سحر أو جمال . فيها تحس كما لو أنها تتعرى ، بعواطفها . . بغرائزها . . بضعفها . . وكل شيء يغدو حافياً فقيراً رغم مظاهر الضجة والأناقة وظلال

الأضواء . تفضل ألف مرة الزوايا الهادئة في البيوت . . أو البقاع الجميلة المنسية في الطبيعة .

سامية تمضي في اكتشاف رجاء أكثر .

— ومن تفضلين أن يكون معنا إذا ذهبنا ؟

ترتبك رجاء . . يبدو عليها ضيق ممزوج بخجل .

— الحقيقة ياسامية . . أريد أن أحدثك في موضوع هام . . لاأدري إن كان هذا هو الوقت المناسب .

سامية تقول بثبات :

— كنت أظن أنك ستحدثينني عن كل شيء لاعن موضوع واحد . . هاماً كان أو غير هام .

— وهل يهمك أن تعرفي كل شيء ؟ .

— الحقيقة أن أي موضوع لاينفصل عن الموضوعات الأخرى . . حياة الإنسان كل لايتجزأ . . ولانستطيع أن نلقي ضوءاً على ناحية دون أخرى .

ثم تردف بهمس :

ـــ وخاصة ونحن لم نلتق منذ فترة طويلة .

تتنهد رجاء . كأنما تزيح عن صدرها كابوساً .

ـــ سيتحول الأمر إلى اعترافات . . ولكن ما المانع ؟ . أنت ابنة خالتي . . وامرأة لا ككل النساء . هل تعرفين ياسامية أن تجاربك في الحياة تثيرني ، كم أتمنى أن أسمع منك يوماً عن هذه التجارب . . بل إنني أموت شوقاًلذلك . .

تضحك سامية بصوت مرتفع . تمد صحن الفاكهة إلى رجاء :

ـــ ليست تجاربي كما تتصورين من الإثارة . الناس متشابهون دائماً فيما يعانون في هذه الحياة . . وما يختلف هو الإحساس بالأشياء . . أقصد قوة المعاناة وشدتها .

يبدو لسامية أن رجاء لم تفهم تماماً ما قصدت إليه إذ ردت عليها بسطحية :

ـــ الأمور تقاس بأصحابها .

تجيب سامية بخيبة أمل :

— لعلك فهمت هكذا . . لابأس . . ماذا كنت تريدين أن تقولي ؟

بنزق تقول رجاء :

— الموضوع وبكلمة واحدة . . أريد أن أعيش . .

— حسناً ؟

— أقصد . . أريد أن أجرب . . أن أرى الأشياء كما هي فأنا الآن وراء ألف ستار . أريد أن أمزق هذه الأستار . . ورغبتي تزداد وأنا معك . . لاأعرف تفسيراً لذلك . كأنما هناك قوة تدفعني لأن أحطم كل شيء وأندفع .

سامية تشعر أن دوامة بدأت تلفها . لنفسها تقول :

— هذا مدهش . . عجيب . . بل مذهل . هل بدأت الدوامة هنا أيضاً ؟ هل . .

رجاء تقول بحماسة :

— أخبريني ياسامية . . هل أستطيع أن أقاوم أكثر ؟ قاومت طويلاً . . والآن أحس أن الحلقة تضيق حول عنقي . . تكاد تخنقني .

سامية تقول بخفوت وبلا مبالاة مصطنعة :

— ولم المقاومة إذن مادام الأمر لابد منه أو هو واقع ؟.

تسقط السكين من يد رجاء . تترك ما كانت تأكله من فاكهة :

— أهذا ماتقولينه ؟ لكنني لست واثقة من شيء . . أقصد . . لست واثقة منه . . ولا من نفسي :

سامية تهتف :

— ومن هو ؟ . . أجيبي . .

ترتعد رجاء . تحاول أن تتهرب من الجواب لكن عيني سامية المسلطتين فوق عينيها ترغمانها على القول :

— طبيب مشهور . . يعطف علي ويفهم أحوالي .

لنفسها تردد سامية :

— أسوأ أنواع الحب ذاك الذي يبدأ بالشفقة والعطف . . وأنا شخصياً لا أحب الأطباء . . نفعيون . . مغرورون . . مسكينة رجاء .

تسأل :

— هل فاتحك في موضوع الزواج ؟

رجاء تجيب :

— زواج ؟ لا . . أبداً . . قلت لك أنه يعطف علي ويفهم حالتي . . ثم إني بعد ذلك لاأستحقه .

تنفجر سامية :

— أية حالة ؟ وأنت ماذا ؟ لم لاتستحقينه ؟ هل أنت ناقصة ؟

تجيب رجاء وهي تبكي :

— نعم . . ناقصة . لست متعلمة . . ولا أقدر أن أجاريه في حياته الاجتماعية .

تضحك سامية بتحد :

— حياته الإجتماعية ؟ ياسلام . . أي حياة اجتماعية تقصدين ؟ حياة هؤلاء الذين يلتصقون بالبورجوازية من أمثاله ؟ أو يتمسحون بالمثقفين وأصحاب النفوذ ؟ هؤلاء

لايساوون شيئاً . . وأنا أرفض أن أستقبلهم في بيتي أو أمضي سهرة واحدة معهم .

تنهمر الكلمات من أعماقها من بين ضباب يغلف صورة كريم . . آه يا كريم . . إنها آراؤك . . وها أنذا أدافع عنها مثل لبوة .

تقول رجاء من بين الدموع :

— ولكن . . لابد أن أوضح لك . .

— ولكن ماذا ؟ . . قولي . . ماهي حالتك ؟ مريضة ؟

تجيب رجاء ، وقد خفضت من دموعها :

— ليس مرضاً بالمعنى الصحيح . ولكني أحياناً أشعر بضيق في التنفس وميل إلى البكاء . وتنقطع شهيتي عن الطعام وأصبح هزيلة شاحبة . . ولا ألبث أن أتحسن بعد أن أتناول أدوية .

لنفسها تقول سامية :

— تظن أن هذا مرض . . انه الحرمان والقلق لاأكثر . .

فتياتنا مسكينات . . أكثرهن مسجونات في قماقم عواطفهن وغرائزهن قبل أن يسجنهن المجتمع .

ترفع صوتها :

ــ أهذا كل شيء ؟ انها حالة نفسية يارجاء . . والدليل أنك تتحسنين كلما أعطاك أدوية . . أعتقد أن زيارته وحدها تكفي .

تحاول رجاء أن تضحك . تفشل . تعود فتقول :

ــ نعم هذا ما يحصل . أصبحت أرغب في زياراته فقط . وقد لا أتناول الأدوية .

ــ وهل يعرف بذلك ؟

تضطرب رجاء :

ــ صارحته بكل شيء . . لكنه لم يجبني بشيء .

لنفسها تقول سامية :

ــ حماقة أخرى . أعطته ولم تأخذ منه . ليس أكثر إذلالاً للمرأة من أن تبدأ هي بالحب . . تسألها :

ــ وهل ظل مستمراً في علاقته بك ؟

— استمر . . وكأنني لم أقل شيئاً .

وتهمس وكأنها تخاطب نفسها :

— هل سأفضي لك بكل هذا منذ الاجتماع الأول ؟ أنا خائفة . .

تتابع سامية :

— أعتقد أن هذا أفضل . . أن تفضي لي من أن تفضي لغيري . . وممّ تخافين ؟

— ألن تقولي لأحد ؟

تقهقه سامية :

— مثلاً ؟ لأمك . . أليس كذلك ؟

— لاأقصد هذا . . إنما .

— يامغفلة . . أنت الأخرى تظنين مثل الآخرين ؟

تتلعثم رجاء :

— الحقيقة . . الحقيقة أنني ياسامية لا أجدك مثل الآخرين ولهذا أحدثك . . ولهذا جئت لعندك . أتصرف

معك كما لو أنني مسحورة . ولن أخفي عنك شيئاً . ولكن ليس بهذه السرعة .

سامية تقول بجزم :

ـــ كما تشاءين . والآن تعالي نرجع إلى غرفة النوم . بدأت أحس بالبرد .

ـــ هل . . هل سأنام في غرفتك ياسامية ؟ لا . . دعيني . . سأنام فوق هذه الأريكة . ما رأيك ؟

ـــ بل تعالي . . ستنامين عندي . . لا أرى مانعاً من ذلك . . سنسهر قليلاً قبل أن ننام .

تستلقي سامية ورجاء في السرير العريض الذي تزينه زهرات (أوركيدة) كبيرة بيضاء .

تتنهد سامية . رجاء تقول :

ـــ ما اسم هذه الأزهار ؟ أنا لم أرها في حياتي ؟ . .

ـــ إنها أزهار (الأوركيدة) . . لاتنمو في بلادنا . وأنا أحبها . . زينت برسومها سريري . . وصلتني

واحدة منها وأنا في الفندق في باريس أول يوم من شهر العسل .

تضحك رجاء :

— ألهذا تنهدت ؟ عفواً . . جعلتك تتذكرين كريم .

سامية تجيب بنبرة ثابتة :

— لم تكن الزهرة من كريم . . بل من أحد نزلاء الفندق .

تشهق رجاء . تقول سامية بهدوء :

— لم تستغربين ؟ في النفس زوايا صغيرة نستطيع أن نوقد فيها الشموع كلما ضاقت بنا الحياة .

— وهل . . هل كان فرنسياً ؟

— بل هو سوري . كان يدرس هناك في الجامعة . . وهو الآن استاذ فيها .

— إذن . . فأنت تعرفين أخباره . ؟ .

لنفسها تهمس سامية :

— سأظل اتتبع كل شيء عن أخباره . . حتى ألقاه .

أو حتى نهاية عمري . كان اسمه — ناجي .

أرسل لها زهرة الأوركيدة قبل أن يعرف من هو زوجها . رآها وحدها في صالون الفندق. لما صادفها مع كريم فوجئت أنه يعرفه . وتصافحا . . وتعانقا . . واكتشفت أنهما صديقا طفولة . . ودعاهما إلى سهرة في حي (مونمارتر) .. وكانت سهرة رائعة . . تعبق بسحر الفن وروعة الجمال . وشعرت أنها فراشة زرقاء تطير فوق سماء باريس الفسيحة. . بل فوق سماء الكون بأسره . . وبفارغ صبر انتظرت أن يرد زوجها له الدعوة . . وفعلاً تحققت . في القمة من (برج إيفل) عند ذلك أحست أنها معلقة بين الأرض والسماء . . ظل هذا الشعور يلازمها كلما فكرت فيه . ناجي نموذج مختلف عن كريم . . مثقف مثله . . ومطلع على مافي العصر من تقدم وحضارة . . ووطني صادق . . لكن أسلوبه لايشبه أسلوب كريم . . كريم عنيف . . وصارم في تطبيق أفكاره إلى حد القسوة على نفسه . . وعلى الآخرين . ناجي على العكس . . هادىء . . ويؤمن بالثورة الفكرية قبل السياسية والاجتماعية يرى أن كل مواطن

يمكن أن يكون ثورياً بطريقته الخاصة . . وأن التطبيق العملي للمبادىء عن طريق العمل أو المهنة هو أنجع سبيل . . وعندما سألته : كيف يمكن للمرأة أن تكون كذلك وخاصة إذا كانت لاتعمل ؟ أجاب : بأن تعيش أفكارها . . بأن تكون متطابقة مع نفسها . . بأن لاتقول شيئاً وتتصرف آخر مهما كان صغيراً . كانت أفكاره هي أفكار كريم ذاتها فيما يتعلق بالمرأة . . ولكن ومن خلال حوار طويل استطاعت أن تقتنع معه أكثر . . أن تتلمس طريقها بوضوح أكثر .

وفي المطار . . عندما ودعته أحست أنها تودع شخصاً عزيزاً . . صديقاً منذ الطفولة كما هو لزوجها . ورأت العالم فارغاً من حولها وعلى الرغم من حضور كريم الواضح والكبير ، أوشكت أن تنسى نفسها . . وتزرع لهفتها في عينيه عندما أصطدمت بكريم ينظر إليها بدهشة واستغراب . ارتدت منطوية وقالت بما يشبه اليأس . . بما يشبه الأمل : لعلنا سنراك في دمشق .. أو هنا .. وبعد ذلك لم تره أبداً .

ظلت تتبع أخباره . . . تقرأ ما يكتب من أبحاث ومحاضرات كأنما تواكب صعود نجمه .. انطلاقه .. تفكيره .. كل مايطرأ عليه من جديد .

سامية تنفض عن رأسها مطر ذكرياتها . ياهذه الذكريات . . كم أصبحت تعذبها . تحاول أن تواصل الحديث من رجاء فقد وعدتها أن تسهر معها قليلاً . : وأن تحدثها كثيراً . لكن فأس الصمت كان قد وقع رغماً عنها . لم تعد قادرة على أن تواصل حوارها الخاص في ذاتها الخاصة وبرزت علامة الاستفهام الكبيرة لماذا ؟ لماذا حصل الذي حصل . . ولماذا يحصل ما يحصل ؟ . .

وتدق الساعة الثالثة صباحاً وسامية لم تعرف النوم . . خيل إليها أن وجود رجاء في سريرها هو السبب . . فهي قد انكمشت في مساحة صغيرة منه بينما رجاء نامت بحرية مثل طفلة متعبة . جمعت غطاء السرير فوق رجاء . تناولت آخر وانسحبت إلى أريكة قرب النافذة لتنام . تظل عيناها مسمرتين في السماء الداكنة . . تتابعان رحلة النجوم حتى ينطفيء آخر نجم .

صفحة فارغة من أصل الكتاب الورقي

(عازلة بين فصلين)

عادة من عادات بعض المطابع

لا تبدأ فصلاً جديدا إلا على رقم صفحة فردي

(أو على صفحة تتوافق وضعيتها مع غلاف الكتاب)

الفصل الرابع

سامية ورجاء تفيقان على صوت عويل وصراخ . . . رجاء تذعر .. تظن نفسها أنها تحلم..توشك أن تصرخ هي الأخرى . ترفع الغطاء وتهب من السرير . تنادي : سامية . . سامية . . وتخرج من الغرفة لتسمع الخادمة تولول . . وتقول إنها فتحت بالمفتاح الباب كالعادة صباحاً ودخلت بهدوء عندما سمعت جسماً يقع على الأرض في غرفة الأم هنية . . لم تجرؤ على الدخول وأسرعت فأيقظت سامية ، عندما دخلتا كانت الأم هنية فوق سجادة الصلاة والعرق يتصبب منها .

سامية والخادمة تحملانها إلى السرير . . تسرع سامية لتستدعي الطبيب . أما الخادمة فلا تفتأ تردد :

— غصباً عني صرخت والله ياست سامية . . غصباًعني .

سامية لاترد والخادمة تستمر :

— إن شاء الله سلامتها . . افركي يديها الباردتين . . أنا ولا هي . . روحي فداها . . فداكم كلكم .

تضع سامية أصابعها المرتعشة فوق صدر الأم هنية . . تشعر أن قلبها يضرب بسرعة بينما صدرها يعلو ويهبط وأنفاسها متقطعة ، تصرخ برجاء :

— اسرعي واستدعي الطبيب يارجاء . . أسرعي .

— هل أنادي الدكتور سالم ؟

— أي طبيب . . المهم أن يكون معنا طبيب .

لحظات رهيبة تمر وسامية مزعزعة الكيان هلعة ، تغرس عينيها في عيني أمها اللتين تجحظان جامدتين خائفتين . الأم تتمتم بكلمات مبهمة وتذكر أولادها وكريم . . تنفجر سامية بالبكاء . ترتمي فوق يدي الأم حتى تحس الباب يصفق وتدخل رجاء مع الدكتور سالم .

والدكتور سالم لم يكن باستطاعته أن ينقذ الأم هنية .

أمر بأن تكون هادئة وتعطى المسكنات وأدوية تخفيف الضغط ، سامية تقول :

— هل ستأتي غداً يادكتور ؟

— بل مساء . . عندما أنتهي من عيادتي .

رجاء تتدخل :

— أنا باقية هنا يادكتور . . أريد أن أطمئن هل سيرتفع عنها الخطر ؟

تطرق سامية برأسها . . وكذلك الطبيب . . فهما يستغربان سؤال رجاء . واضح إنه لا أمل . .

يقول الدكتور سالم :

— الواقع أني كنت أسمع عنك كثيراً ياست سامية . وانها فرصة أن أتعرف بك . . ولو أني كنت أتمنى غير هذه الظروف .

سامية ترد بايجاز :

— وأنا كذلك .

في الليل تهذي الأم هنية . . تطلب أن يعطوها المفتاح ولا أحد يعرف أي مفتاح . . تنشج . . تنادي أولادها وكريم . . وهكذا طوال ساعات .

سامية غائبة عن الوجود . . هل يمكن أن تنطفىء أمها هكذا مثل شمعة ؟ هل يمكن أن تتركها وحيدة هكذا وترحل ؟ هل الحياة قاسية إلى هذا الحد ؟ مواجهة الموت أمر رهيب . . يبعث الرعدة في الأوصال . . أن يموت المرء أهون من أن يشهد موت من يحب . يوم مات أبوها كانت لاتزال في مرحلة حياتها الزوجية الأولى . . وكانت أكثر شباباً . . وأكثر ابتعاداً عن فكرة الموت . ولم تر أباها ميتاً فقد منعوها عنه وكان لها بيتها الخاص فلم تلتصق هكذا برائحة الموت وشبحه المريع . أواه يا كريم . . أين أنت ؟ تضمني طفلة ينتزعون منها أمها . . تمسح دمعتي . . ترفع الأثقال عن قلبي ؟ كم أنا بحاجة إليك . .

سامية تبعد رجاء إلى بيتها بحجة أن تستأذن أمها في البقاء عند بيت خالتها هنية لأن سامية مريضة وليس الأم . في أعماقها رغبة أن تغيب رجاء عن طائر الموت الذي أخذت تراه يطوف . . يضرب بجناحيه الباردين فوق جسد الأم فيستل منها الحياة . قطرة . . قطرة . .

ويزداد لهاث الأم . . وتدرك سامية أن لافائدة من الطبيب . . من كل أطباء الدنيا . . فأمها تحتضر وعليها أن تختزن في ذاكرتها هذا الوجه الحبيب في لحظاته الأخيرة .

وتظل مسمرة قرب الفراش . . . تحدق بذهول . . تكاد لاتسمع ماتهذي به الأم . . وقطعاً لاتدركه .

وعند منتصف الليل تثبت الأم عينيها فوق الساعة المعلقة على الحائط . . ثم ترحل.وتقف الساعة عن الدوران في اللحظة التي توقف فيها القلب عن الخفقان . . انتهى ملء الساعة وانتهت حياة مليئة أيضاً . ثوان كالدهر كالموت . . تلك التي حملت الموت .

سامية تظل مرتمية فوق الجسد الذي بدأ يبرد . . حتى الصباح :

عند الصباح تعود رجاء : . سامية تعلن موت الأم هنية لها وللخادمة . رجاء تنفجر بالبكاء مثل طفلة . الخادمة تنشب صوتها بصراخ مليء . سامية تطلب منها أن تكف عن هذا السخف . تفتح عينيها متعجبة :

ـــ عزاء بلا عويل وصراخ . . اللهم عفوك يارب .

ـ لكن العزاء لن يكون اليوم . . أفهمت ؟ لابكاء . . لاصراخ . لاشيء .

ـــ والدفن ؟ ألن ندفنها اليوم ؟ تكريم الميت ترحيله ياست سامية .

ـــ وأنا لن أفعل ذلك . . لن أتركهم يخطفونها مني إلى القبر بهذه السرعة.لا أريد أن يأتي أحد..أن يعلم أحد.

رجاء تكاد تموت من الفزع ، فهذه أول مرة ترى فيها الموت.وزاد الصمت في الرهبة . . فقد قطعت سامية خط الهاتف . وحظرت على رجاء والخادمة أن تبلغا الأهل والجيران . سامية تناقش نفسها .. لابد من الدفن اليوم ولكن ليس بهذه السرعة لا أقل من ساعتين تودع فيهما أمها . : وحدها . . وحدها . .

تغلق الباب على نفسها في غرفة الموت حيث الأم مسجاة فوق سريرها المرتفع والنوافذ مغلقة والستائر . . سامية تخاطب نفسها بصوت شبه مسموع :

ـــ سأقوم لها بكل ما كانت تريده لنفسها بعد موتها .
ما أقسى ما سأقوم به . . لكنني شجاعة . . أمي ياأحب إنسانة . . انظري إلى ابنتك الصامدة التي تحاول أن تظل صامدة . . ألمي ألم طفل يفصل عن ثدي الأم . . توشك أكثر من مرة أن تسقط إذ تستعيد كلمات أمها :

ـــ أريد أن تغسليني بيديك هاتين وأن تكفنيني . . ليس هذا مجرد دعاء أنا أريده فعلاً . . وأوصيك به . . أنت شجاعة .

وتتمثل لها صورة النساء المكلفات بغسل الميتة وهن يقتحمن البيت بنظراتهن الصلدة وأوشحتهن السوداء الوسخة.. لقد رأتهن يوم ماتت إحدى قريباتها وهن يصرخن بأصوات كصفارات الإنذار أو كنعيب البوم . ثم يهجمن على الفقيدة بكل قسوة يعولن يمزقن عنها الثياب ويضعنها على المنصة الخشبية كما توضع الجثة فوق المشرحة ثم ينظفنها وهن يطلقن عبارات لاتمت إلى احترام الموت بصلة وعندما يتلكأ أصحاب البيت في إمدادهن بما هو مطلوب كالماء والصابون

وأنواع الزيت والعطر والطيوب يزعقن صارخات بأن الوقت يلحقهن وعملية الغسل يجب أن تتم بأسرع مايمكن لأن عندهن ـ زبونات ـ في أمكنة أخرى . هذا عدا عن أخذهن كل ماتصل إليه أيديهن من حوائج الميتة وثيابها . . حتى مصاغها . . بحجة أنه حرام لغيرهن . . حلال لهن .

تتصور سامية كل ذلك . . وتضن بجسد أمها النحيل الرفيق أن تتحكم به نسوة متاجرات بالموت . . تصمم على أن تقوم بكل ما يلزم دون استعانة بأحد .

* * *

تكشف سامية الغطاء عن جسد الأم . العينان لاتزالان مفتوحتين وفي بريق الزجاج . حوالي الفم شبه ابتسامة والملامح لم يتغير فيها شيء . تلقي بنفسها فوق الصدر الجاف. تحس تنهدة كبيرة تخرج من بين الشفتين وتغمرها . تجفل . لاتلبث أن ترمي نفسها مرة أخرى فوق اليدين المسبلتين والقدمين الباردتين . . تمسك كف اليد اليمنى . . كانت

مطبقة على مفتاح . لاتجرؤ على أن تفك الأصابع . تقرر ألا تنتزعه منها . لعله مفتاح خزانتها أو أي مفتاح آخر . وما دامت حريصة عليه حتى اللحظات الأخيرة فلتتركه لها . تنزلق يدها إلى الخاصرتين . . تعثر تحت الغطاء على دفتر . تمسك به كالمجنونة وتمزق أوراقه . تبدأ عملية عسيرة شاقة وهي أن تنزع الثياب عن الجسد الهامد الذي تزداد برودته شيئاً بعد شيء . تترك لوجهها أن يتمرّغ فوق هذا الجسد الذي أنجبها . تبكي بحرقة وتتذكر حرقة أمها من أجلها لأنها لم ترزق بولد :

ـ لو كان لك ولد يا سامية ... لكنت أطمئن عليك أكثر . الولد سر الحياة . إن شاء الله أنت تكفنيني وتدفنيني .

وطالما حاولت أن تنزع من رأس أمها هذه الأفكار القديمة إذ تقول لها :

ـ أما أنا ياأمي فأتمنى أن أغرق في بحر أو يلتهمني حريق ، لا أريد أن يمد أحد يده إلي بعد موتي . . أليس هذا أفضل ؟

وكانت الأم تتأوه . . ولاتملك أن تجيبها بشيء .

اليوم تحس أن ما كانت تقوله أمها صحيح..للجسد قداسة وخاصة بعد الموت وهي لاتفرط الآن بهذا الجسد بين يديها ولو أطبقت عليها الدنيا . لابد أن تنظفه وتعطره وتملؤه بالدموع والقبلات قبل أن تواريه في التراب الأخير . تحس أن قبلة أو دمعة هي قطرة رحمة تنزل فوق هذا الجسد الأسير فتساعده على أن ينطلق من أجوائه الروحانية السماوية . الجسد . . الجسد . . مشكلتها هي سادية . . كانت دائماً مع هذا الجسد . لم تستهتر به يوماً بل احترمته وجنبته كل رخص ولم يمر وقت إلا وهي تعني بعطره ونظافته وأناقته وكثيراً ما كانت توقع عليه العقوبة بالحرمان. . ذلك لشعورها بقداسته . أي مصير ينتظر جسدها ؟ بل كل جسد ؟ جسد أمها مثلاً ؟ . لاتستطيع أن تبقيه بين يديها إلا لساعات . . سوف تملأ الرائحة الكريهة الجو . . وسيرغمها ذلك على الأقل على أن تهرب من البشاعة والنتن .

تفتح الخزانة . تخرج ثوباً أبيض فضياً كانت أمها قد أعدته لموتها منذ زمن . تشمه . تضمه وتقبله ثم تضعه

على طرف السرير . . بسرعة تملأ حوض الحمام في الغرفة . تفعل كل هذا بثبات وهدوء وفي أعماقها يتردد موال حزين كانت تحفظه عن جدتها منذ الطفولة لايسمع منه بصوت عال إلا كلمة : ياموليا . . ياموه ليا .

عندما تنتهي تحس النار تلتهب في كل جسدها . . وبالخور والعجز عن أن تحمل الجسد إلى الفراش مرة أخرى . . ولكن . . لابد من ذلك . تعبىء طاقتها كلها وتنقل الجسد إلى الفراش وتسترخي إلى جانبه . لحظات تحس أنها دهر . أين شموخ أمها وعنفوانها وكبرياؤها ؟ أين تمنعها من أن يرى أي إنسان عجزها ؟ أين خجلها الفطري العميق الذي كان يدفعها لأن تسحب ثيابها فتغطي أجزاء من جسدها تحسب انها ظهرت ؟ إنها الآن عارية معطلة الإرادة . . وباستسلام كامل مطلق . إذن . . فالإرادة هي الحياة لأنها نقيض الموت .

سامية تتم المراحل الأخيرة من لف جسد الأم وتطييبه ثم تمدده في وضع متناسب مع المعتقدات الدينية فتديره

للقبلة وتخفي الشعر المشتعل بالشيب بغطاء أبيض ثم تضع مصحفاً صغيراً في الصدر وكذلك قطعة من حجر العقيق مجلوبة من الأرض المقدسة . تسبل فوقها غطاء نظيفاً وتخرج من الغرفة بعد أن تقفلها بالمفتاح .

* * *

رجاء في الصالون ترتجف والدكتور سالم في حيرة هل يتركها ويذهب أم ينتظر سامية حتى تخرج من غرفة أمها ؟ يقول :

ــ في الحقيقة أنا محرج . . مارأيك يارجاء أن أنصرف؟

رجاء ترتجف وتتمسك به . بين لحظة وأخرى تصرخ ببكاء حاد . تخرج سامية من غرفة الأم ووجهها مثل شمعة . الدكتور سالم يقول همساً :

ــ رجاء في أزمة لاتدعيها تدخل أو ترى شيئاً .

سامية تقول بجزم :

ــ لن تدخل هي . . ولا غيرها . . لن يدخل أحد .

— هذا من شأنك . المهم أن أعصابها تعبت وأنت . . هل تحتاجين لمساعدة ؟

— أبداً . . أشكرك . كل ما أريده هو أن تترك لنا رقم الهاتف في منزلك إذا اضطررنا لشيء من أجل رجاء .

— اتصلي ببيت صديقي — مازن النجار — هذا رقمه . . سأمضي السهرة عنده .

يقول ذلك دون أن ينظر في وجه سامية ثم يردف :

— الواقع أنني لاأريد أن أحمل زوجتي هموم مهني .

تجفل سامية . . تأخذ الرقم بصمت . ينظر كل منهما إلى الآخر نظرة طويلة . ينصرف الدكتور سالم وتعود سامية بعد أن تودعه على عجل .

رجاء لاتزال ممددةعلى أريكة في الصالون وهي ترتجف كورقة خريف . سامية تمسح فوق رأسها :

— استريحى في غرفة نومي إذا شئت . لن أدعك تشاركين في شيء . طفلة لازلت يارجاء . .

تهب رجاء واقفة :

ـ لا . . سأساعدك . ماذا تريدين ؟ هل أتصل بالأهل والجيران والأصحاب أم أشتغل بتنظيف البيت ورفع الأشياء التزيينية منه ؟

سامية تقول :

ـ لن نتصل إلا بأقرب الأقارب . . جو الموت هو السكون والصمت فلم الزعيق والضجيج كمن فقد رشده ؟ ثم إنني لن أرفع أي شيء مما يزين هذا البيت . إنها سخافات يجب أن نتخلص منها . هل إذا مات عزيز يعني ذلك أن نقبر أنفسنا في الحياة ؟

تسأل رجاء بذعر :

ـ ماذا تقولين ؟ هذا شيء فظيع سوف ينتقدنا الناس .

ـ لينتقدوا كما يشاؤون لست أبالي بهم كل ماهنالك أنني سأرتدي السواد رمزاً للحداد ألا يكفي هذا ؟

تشهق رجاء :

ـــ السواد ؟ هذا خطأ آخر . أنت متزوجة . . وهو شؤم على زوجك كما يقولون .

ـــ لن يموت زوجي إلا عندما يريد له القدر أن يموت . لبست السواد أم لم ألبس فالأمور لايرتبط بعضها ببعض بهذه البساطة كما تتصورين .

ـــ بالمناسبة . . ألن تتصلي بزوجك ليحضر ؟

سامية لاترد . .

تستأنف رجاء :

ـــ الناس ألسنتهم طويلة ياسامية وعليك ألا تخترقي الأصول في مثل هذه المناسبات .

ـــ ماذا سيقولون ؟ لست مضطرة لأن أدافع عن حزني أو أشهره أمام أحد .

تقوم رجاء متثاقلة تنسحب إلى غرفة النوم لتغير ثيابها وتمسح آثار الزينة من فوق وجهها . أما الخادمة فلا تزال تضرب كفاً بكف وهي تتلقى الأوامر من سامية وتبلع في حلقها ولولات مكبوتة . ايه . . من هذا الزمان . .

كل شيء تغير . حتى المآتم أصبح فيها ــ موضة ــ لاتملك إلا أن تنثر دموعها هنا وهناك في أرجاء البيت بينما تنظفه وترتبه .

بعد ساعتين أو أكثر تسير الأمور كما أرادت سامية . الأهل يكتمون غيظهم لكن الموقف يحتدم عندما تدخل الخالة صفية منتقدة كل ما تراه عينها . سامية ترد بقسوة ولولا تدخل رجاء والجارة ــ أم هاني ــ لوقعت قطيعة فورية . تصمت الخالة صفية لكنها تقرر بينها وبين نفسها أن تتبرأ من سامية فلا تزورها أبداً وبالطبع فلن تترك رجاء تضع قدمها في بيتها أيضاً .

سامية تلحظ وشوشات النساء حولها وتلمح في عيونهن الغيظ والحقد فلا تهتم . . عندما يكتشفن أن سامية هي التي غسلت أمها وكفنتها دون أن تلجأ إلى المعلمات في هذه الصنعة ، ادعت بعضهن أن هذا خروج عن الدين وانسحبن الواحدة تلو الأخرى ولم يبق إلا القليلات . توشك سامية أن تنفجر بهن : ماذا تعرف النسوة الجاهلات اللاتي يغسلن

الميتة بأمور الدين . . ليس أكثر مما تعرف هي . وقد قامت بكل ما يجب . . حتى الأدعية قرأتها في أذن أمها.لكن سامية لم تشأ أن تدخل معهن في حوار فالمناسبة لاتسمح . . ولا أعصابها كذلك . تكتفي بأن تترك من أرادت منهن الإنسحاب أن تفعل . . عندما يحين وقت الدفن تصر سامية على أن تذهب مع الجثمان إلى المقبرة والرجال من أقاربها يقنعونها بأن هذا مخالف للأصول . . فلم يسبق لأمرأة أن واكبت الدفن حتى مراحله الأخيرة . لكنها تصر والأخ فائز الذي وصل من حلب يتركها تفعل . تسبل الغطاء الأسود على وجهها وتمشي معه خطوة خطوة . .

وتشهد المدينة منظراً عجباً لم تشهده من قبل .

* * *

سامية لاتخرج من بيتها أثناء الحداد . الناس يتوافدون إلى بيتها الصغير الأنيق في قاسيون بعد أن أغلقت بيت أمها . يأتون بدافع العزاء . . أو بدافع الفضول . . يريدون أن يعرفوا سر المرأة التي تعيش بين الناس . . وليس ككل

الناس . أكثرهم يصابون بخيبة أمل . . بيتها صغير وادع . . الحياة تجري فيه مثل نهر. إذن ما الذي يجعل من هذا البيت سراً ؟ الذين يحبون سامية حباً حقيقياً يدركون أن السر هو روحها التي أضفت على كل زاوية في البيت طابعاً خاصاً جعلت منه واحة صغيرة . . أما الذين يكرهون . . فهم دائماً يكابرون . . والحقيقة يغالطون .

بعد أيام يصر الأخ فايز على الرجوع إلى حلب مع زوجته وأولاده . .

— لو أن كريم رجع كنت أطمئن عليك . . ثم أنني كنت أرجو أن أترك أحد أولادي عندك . . لكنك تعرفين زوجتي ياسامية .

— ومن قال لك أنني سأفصل طفلاً عن أسرته ؟ هل أنا أنانية إلى هذا الحد ؟ ثم أنني لست بحاجة إلى أحد . . وأنت تعرف .

— لكن الناس ياأختي . . وأنت تعيشين وحدك . . لو يعود كريم وننتهي من كل هذه الأمور .

— أنت أيضاً تعلق أهمية على هذه الأمور ؟ أنا شخصياً لا أبالي . .

— واسم الأسرة ؟ وسمعتنا ياسامية .

— الزمن تغير . . وأرضنا اسفنجية تمتص كل شيء .

— وأنا أراها بحراً يلفظ الرديء ويحتفظ بالجيد .

— لتكن بحراً . . أو رملاً لايهمني وعودة كريم لاتغير من الحال شيئاً . .

— هذا امر آخر . . إنما المهم بالنسبة لي أنني أديت واجبي ولم أتركك وحيدة بل مع زوج .

— وماذا ستفعل ؟ مادمت مضطراً إلى السفر ولن تبقي أحد أولادك عندي ؟

— تسافرين معي ريثما يعود زوجك .

— لن أسافر . . أنا تخليت عن كل المظاهر السخيفة . . تلك التي تتستر أنت وراءها . هذا في نظري ضعف .

— اصمتي ياسامية . أرجوك .

— مازلت ذلك الفتى ابن الأسرة البورجوازية الذي يحافظ على اخته ، كنت تحمل لي كتبي وتوصلني إلى المدرسة . . هل اختلف الأمر الآن ؟

— اسكتي بالله . . أنت تذبحينني .

— ليتني أذبح فيك الغرور والتفاهة . كل ما ادعيته خلال هذه السنين لم يكن إلا مظاهر كاذبة . . حتى ابتعادك عن العاصمة هو كذلك . . حتى لايعرف من حولك ماهي ثروتك ولا كيف تعيش .

— كم أتمنى لو . .

— لو ماذا . . تضربني ؟ تعال سوف تكون على الأقل حقيقياً ولو مرة واحدة ولكنك لن تفعل . .

يتراخى صوت الأخ :

— سامحيني ياسامية . . أنا مخطىء.تعالي نتفاهم .

— حول ماذا ؟ الميراث ؟

— حول كل شيء .

— بالنسبة للميراث سأترك لك ماأوصت أمنا به

من مجوهرات وأموال نقدية وسأترك لك ولأخيك الأراضي . . لن أحتفظ لنفسي إلا ببيت أمنا الصغير . . سوف أنتقل إليه إذا اقتضى الأمر .

— أي أمر . . أن تفترقي عن كريم ؟

— هذا يخصني وحدي . .

— ومن أين ستعيشين ؟

— سأشتغل . .

— تشتغلين ؟ بماذا ؟ وهل هذا يليق بك ؟

— يليق أو لايليق . المهم أن أجد ما يناسبني . . واهتماماتي كثيرة في الصحافة والفن والموسيقى .

يسترخي فائز على الأريكة . يضع رأسه بين يديه . تسود فترة صمت . ما الذي يجري في هذه البقعة من الأرض ؟ هل كل المجتمعات كذلك ؟ وهل الحوادث العادية هي التي تغير واقع الناس بهذا الشكل؟زواج سامية . . سفر زوجها . . موت الأم . . بعد أخويها عنها . . هل هذا مما يغير كيان إنسان ويزعزع فكره ومادرج عليه من عادات ؟

فائز يقول بهدوء :

ـ وهل كريم يعرف أنك ستشتغلين ؟

ـ كريم سيعود . . وعودته لن تغير شيئاً من الأمر .

ـ لاتغير . . لكنها تخفف . . أنت على أي حال أختي . . ومن أسرة ـ الشامي ـ هو هذا المهم . والذي أريد أن أفهمه لماذا تركلك كريم كل هذه الفترة ؟ من أجبره على مغادرة سورية ؟

ـ هذا أمر يتعلق به وحده . .

ـ إنه يحيط نفسه بهذه الإطارات . . يعتبر نفسه لاجئاً سياسياً . . زعيماً مناضلاً . . إلى آخر هذه الكلمات الرنانة التي لا أتعامل معها أبداً . .

ـ أرجوك يافايز . . لاتعد لجرحي من جديد ، إنه زوجي .

ـ اسمعي ياسامية . . باختصار لا أريدك أن تشتغلي . . ولا أريد لك هذه الحياة .

ــ أي حياة تعني ؟ حياتي هذه ؟ أنا لم أعش بعد كما أريد ثم أن حياتي ملكي أنا أقررها كما أشاء .

ــ إذن . . فنحن مختلفان أساساً وسوف يحرم أحدنا من الآخر .

ــ قل إنك تريد أن تعاقبني كما لو كنت بنتاً صغيرة .

ــ المهم أننا لم نتفاهم .

ــ وهل القطيعة لغة تفاهم ؟

ويخرج الأخ من البيت وتقع سامية على أول أريكة تجهش ببكاء حاد . يعز عليها أن تفقد أخاها لمثل هذه الأسباب لكنه لايقتنع . . لايريد أن يقتنع ــ صحيح أنه يعيش في بلد آخر بعيداً عنها إنما حساسها دائماً أنه قريب . وأنها تستطيع في كل لحظة أن تذهب إليه أو يأتي إليها أو تحدثه هاتفياً على الأقل ، أما الآن فلديها احساس أنها فقدته بطريقة ما . ما أفظع أن يفقد الإنسان الاحياء ممن يحب انه أفظع من أن يفقدهم موتى. وعندما ترى زوجته

وأولاده يجمعون حوائجهم للسفر توشك أن تملأ حقيبتها لتذهب معهم .

لكنها لم تذهب . . بل إنهارت في شبه إعياء .

* * *

الصباح ندي مشرق في تباشير صيف دمشقي . . الخادمة في إجازة وهي تستمرىء وحدتها هذه . . لكن رأسها يضج بالأفكار .

كريم لم يرد على رسالتها . . وهي غير التي أوهمت جابر بها . جابر انقطعت أخباره . رجاء لاتزورها. لماذا لم يأت كريم رغم علمه بموت أمها ؟ ألم يخبرها أنه سيعود ولا شيء يمنعه ؟ هل سيعود الطوق يحكم حول عنقها من جديد ؟ فراق فائز ترك جرحاً في قلبها كبيراً . عدم مجيء صلاح من الكويت جرح أكبر . .

تقوم متثاقلة تسحب الصحيفة من تحت الباب كأنما فيها شيء يعنيها . اسم كريم اختفى من هذه الصحيفة منذ سافر إلى لبنان . . ماذا يشكل الآن بالنسبة لرفاقه هنا ؟

لاشيء . . اسم منسي . . رقم من الأرقام التي ابتلعتها طاحونة هائلة من المخاضات الثورية العنيفة . . وكريم صلب مثل حجر . . لم يتعنت ولم يغير مواقعه الأولى . هي تعتبر موقفه عناداً . . وهو يعتبره ثباتاً .

تقرأ اعلانات المسرح والسينما والأخبار المنوعةالخفيفة. . في زاوية صغيرة خبر صغير — عودة كريم السعدي إلى دمشق — الخبر مثير للضحك والمقت معاً . كتبوا عنه كما لو كان مجرماً قد أفرج عنه . المهم بالنسبة إليها أنه عائد . . وهي امرأته لم تعلم بعد هل تغير كريم إلى هذا الحد ؟ ماذا يقصد من مفاجأتها !؟ . لايمكن أن ينقطع كل شيء بينهما بهذه البساطة . صحيح أن خلافهما غامض وخفي وينمو يوماً بعد يوم لكنهما لايزالان مرتبطين . . هل اتصل هاتفياً ولم يكلمه أحد ؟ تعيد الحرارة لجهاز الهاتف فاذا به يرن فوراً .

— ألو . . رجاء ؟ كيف أحوالك ؟

— بخير وأنت ؟

— كما أنا .

— هل آتي لعندك لأقضي نهاري ؟ أمي ذهبت لبيت خالي وأنا وحدي .

— هل ستوافق على مجيئك ؟

— لا يهم . . هل بامكاني المجيء ؟

— قررت العزلة هذا اليوم ، ومع ذلك لامانع . .تعالي.

تضع سامية السماعة من يدها وهي تشعر بانفراج ما . . الباب يطرق بعنف . ترى من يكون ؟ لم لايقرعون الجرس؟ تسمع صراخ امرأة كأنما هي تعول وتندب . . تفتح الباب بلهفة . إنها — أم هاني — زوجة جابر ومعها إحدى بناتها .

— ماذا أقول لك ياست سامية ؟ اختفى جابر . . أبو هاني . .

— اختفى ماذا تقولين ؟

— منذ عشرة أيام لم يعد للبيت . بحثنا عنه في كل مكان ولم نجده . قال لنا أحد أصدقائه المقربين أنه رآه في قرية — دوما — في دكان صغير يهيئه ويرتبه ليبيع فيه الكتب

واللوازم المدرسية . .والآن جاء صديق آخر ليقول لنا أن نبحث عنه في المستشفيات سألناه إن كان يعلم شيئاً أجاب : أنه مجرد احتياط .

ـ هل . . هل أساعدك بشيء ؟ هل أطلب لك المستشفيات واحدة واحدة ؟ أتقصدين أنه هجركم وأصبح يعيش حيث دكانه خارج المدينة ؟

ـ لعله تزوج أيضاً ياست سامية المهم أن تسألي في المستشفيات ورحمة أملك .

ـ سأفعل . . ولكن . . ألم يقل لكم أي شيء يوم تركِكم ؟ ألم تلاحظوا أنه كان ينوي نية ما ؟ .

ـ من جهة أنه قال فهو لم ينطق بكلمة في المدة الأخيرة كان قد تغير كلياً لم يعد جابر الزوج والأب ولا حتى المتقاعد القانع بعيشه . ماذا أقول لك أصبح يتضايق من كل شيء حتى أولاده . . ينهرهم ويدعو عليهم . . وأنا . . أنا المسكينة المغلوبة على أمري لم أعد في نظره أستحق حتى كلمة شكر على ما أقوم به نحو بيته . حاولت أن أجره

إلى أي حديث . . لم يكن يترك لي فرصة . في نهاية الأمر قاطعني نهائياً ولم يكن يعود إلى البيت إلا بعد أن أنام وإذا خرج فذلك قبل أن أستيقظ .

— شيء مؤسف والله يا أم هاني . . تعالي نتصل هاتفياً بالمستشفيات قبل كل شيء .

من رقم إلى رقم تنتقل سامية وأم هاني تتكلم وتتكلم بلا انقطاع . والبنت تتشاغل باحدى المجلات، لم يأتها الجواب بأنه في مستشفى ما . تقول أم هاني بحرقة :

— صديقه (بشير العون) يقول أنه أخذ منه كل ما ادخره لديه . . واشترى بدلة جديدة وربطات عنق . . ألا يدل هذا على أنه تزوج ؟

— لا . . لا . . ليس هذا شرطاً .

— إذن . . فهو عاشق . العشق فوق الخمسين مثل حد السكين .

— وهذا ما لا أظنه أيضاً .

— علامات العشق واضحة عليه ياست سامية إن

أردت الحق فهو ساهم شارد وغائب عن الوجود . . في ليلة اختفائه سكر . . وغمغم بكلمات عن امرأة . . وعن جمالها . . وأنه أرسل بسببها رسالة . وقام ليأتي لعندك لكننا منعناه . وفهمت أشياء عنها .

— مثل ماذا ؟ قولي . . لاتخفي عني . .

— فهمت أنها متزوجة . . وهي لاتريده أو تفكر فيه .

— هل . . هل ذكر اسمها ؟

— لا . . . .

— وأنت . . ماذا ستفعلين ؟

— سأذهب لبيت أهلي . . وأرجوك أن تنتبهي للبيت في غيابي إذا ذهبت وتفقدت بيت المرحومة . وأن تكلمي جابر بما عندك من ذوق وفهم ولباقة . . عسى الله أن يهديه . الأولاد سبقوني . . وسنذهب الآن أنا ومنى . .

— أليس الأفضل أن تبقي في بيتك يا أم هاني ؟

— لا . . لا أستطيع . المصيبة تكبر علي يوماً بعد يوم .

— كان الله في عونك .

تنسحب أم هاني مكسورة الجناح وهي تلملم دموعها وتشعر سامية أن سكيناً تنغرس في قلبها .

خلال أقل من ساعة تأتي رجاء . . بثوب بسيط أزرق دون زينة فهي لاتزال تراعي مشاعر سامية في حدادها لكن عطرها كان بمقدار كبير . . ومن نوع فرنسي قوي . . أما شعرها الأسود الطويل فهو منسدل وعلى عينيها نظارتان قاتمتان باطار فاتح اللون . تسلم على سامية وهي تقفز مثل عصفورة نشطة وقد استخفتها نشوة مبهمة ويهتز ثدياها الرائعان كما لو أن موجة غامضة من الفرح قد اجتاحتهما . ترحب سامية برجاء . لكنها تفاجأ بسعادتها الطافحة .

— سأتركك لمدة ساعة فقط يارجاء . . أنا مضطرة لأن أنزل وأشتري بعض الحوائج . .

— تتركيني وحدي ؟

— وماذا في ذلك ؟ عندك المجلات . . والموسيقى . . والهاتف أيضاً . تسلي كما يحلو لك حتى أعود .

تلتمع عينا رجاء بسرور خفي . . وتدرك سامية رأساً أنها ستتصل بالدكتور سالم .

في الطريق تسرع سامية الخطى وحذاؤها بالكعب العالي يجعل خطواتها أقل سرعة مما تريد .

عند منعطف الشارع تنادي سيارة أجرة . تلتفت حولها بحذر قبل أن تصعد إليها . لاتريد أن تذهب بسيارتها حتى لاتلفت إليها الأنظار . تقول للسائق :

ـ إلى دوما من فضلك .

ـ إلى دوما ؟ أمرك ؟ إلى أي حي ؟

ترتبك سامية . لاتعرف بم تجيب :

ـ إلى . . إلى مدخل البلد . . إلى الشارع الرئيسي . . هل تعرف أنه يوجد مكتبة هناك ؟ أقصد مكتبة افتتحت حديثاً ؟

ـ مكتبة ؟ ومتى أصبح في دوما مكتبة ؟ أنت مخطئة ياسيدتي . .

ــ أقصد دكان صغير لبيع الكتب واللوازم المدرسية. . على أي حال استمر . وسنرى ذلك . . أو نسأل الدكاكين هناك .

أمام المسجد نزل السائق وأخذ يسأل الدكاكين هناك حتى اهتدى إلى زاوية الساحة العامة حيث عشرات من الباعة المتجولين والنساء اللواتي يعرضن البيض والدجاج والخبز المرقوق وأنواع الحشائش النافعة . عثرت على دكان عبارة عن مكتبة صغيرة . لم يكن فيها سوى غلام صغير ، . متوثب مترقب مثل نمر .

ــ أين صاحب الدكان ياابني . .

ــ هذه ليست بالدكان .. إنها مكتبة (العلم والتقدم) .

ــ حسناً . . ومن أنت ؟

ــ أنا عمر . ابن اخت صاحب المكتبة . . وسأداوم عنده الصيف فقط . . أحب القراءة . . وسيأتي خالي بكتب كثيرة . . وخاصة الروايات .

ــ عظيم . . إنما لم تقل لي أين خالك ؟

ـــ سيأتي بعد قليل . تفضلي استريحي . استريحي ياسيدتي .

يقرب لها كرسياً واطئاً من القش . . تحاول أن تجلس عليه عندما تشعر أن عدد الأولاد قد ازداد أمام الدكان . . وإن الأعين الفضولية ترمقها بدهشة .

ـــ سأتفرج على المكان ياعمر حتى يعود خالك .

المكتبة أو الدكان مهيأة لمكتبة صغيرة . . لكن ذوقاً جلياً يبدو على تصميمها رغم أنها لم تستكمل بعد . في الزاوية علب كرتونية مليئة بالكتب .

ـــ هل تسمح لي بأن أطلع على هذه الكتب ياعمر ؟

ـــ ممكن . . ولكن انتبهي لاتنزعي غلافها الورقي وإلا لن يشتريها أحد .

تبدو سامية معجبة بجرأة الغلام . وتفتحه . .

ـــ وماهي الكتب التي قرأتها ياعمر ؟

ـــ كتب كثيرة . . هل أعددها لك ؟

ويبدأ بالعد . . وتستنتج أنه لم يقرأ إلا بعض القصص

البوليسية والروايات التافهة . أليست هذه الطاقات المخزونة والتي يمكن أن تنفجر في أي لحظة بحاجة إلى العناية والتوجيه ؟ حسناً فعل جابر . . إذا كان موفقاً بفكرة مثلى من وراء ذلك .

ويأتي جابر . . وتكون المفاجأة بالنسبة له شديدة . يمتقع لونه ويكاد يقع على الأرض . يقول بصوت مرتجف :

— سيدة سامية ؟ أنت هنا ؟ ما الخبر ؟ ماالذي جاءبك؟.

* * *

الفصل الخامس

سامية تشعر بالتهيب والخشية فجابر رجل جاوز الخمسين وحياته غدت في مهب زوبعة . وليس سهلاً على المرء أن يخرج من دوامة لم يصنعها بنفسه بل صنعها الآخرون.. إنه لايعرف كيف دخل فكيف الخروج ؟ إنفعاله المفاجيء أكد لها أشياء كثيرة وأحست بالندم يقرض داخلها مثل فأر . لكنها لاتريد ايذاءه . . لم تحاول ذلك . . كل ماأرادته أن ينفجر شيء في حياته . . أن يخرج من الرتابة والملل والسأم . أما إذا وصل الأمر إلى نقطة الخطر فهي مستعدة لكل شيء . . حتى الإعتراف .

تقول بهدوء .

— جئت لأهنئك على فكرتك الرائعة هذه بتأمين حاجة حيوية لبلدة صغيرة لم تعد في الحقيقة قرية . هل أنت سعيد هنا ؟

— سعيد جداً . . أشعر أنني عدت إلى العشرين من عمري .

— عظيم . . دعني أرى الكتب التي اشتريتها .

— عدد بسيط جداً ولهذا اشتريت بعض اللوازم المدرسية كعنصر متمم . ماذا نفعل ؟ يلزمهم وقت هنا كي يتعودوا شراء كتب للمطالعة .

— صحيح . . لكن العدد يظل قليلاً . .

— لم أجرؤ أو بالأحرى لم أغامر بشراء أنواع كثيرة من الكتب . هذه قرية محافظة وعندما أدرس الجو سيكون الوضع أفضل .

— المغامرة لاتتجزأ . أما أن تقدم على أشياء أولا تقدم. هل أنت خائف من شيء ؟ .

— خائف ؟ مم ؟ كل مافي الأمر أنني أراعي جوالقرية.

— إذن . . لالزوم للمراعاة خاصة وأنت غريب عن القرية .

— اقترحي لي أسماء كتب وأنا أشتريها .

يأتي شاب . . يقلب الكتب بين يديه يقرأ عناوينها وربما الصفحات الأولى منها ، وسامية وجابر يتحدثان همساً . . يسألها عن بيتها فتتظاهر أنها لاتعرف شيئاً . يسأل الشاب :

— أليس عندك روايات الجيب أو قصص إحسان عبد القدوس ؟

تقول سامية :

— أتسمع ؟ .

يجيب : — ليس هذا مقياساً . إنهم يطلبون أيضاً قصة عنترة وألف ليلة وليلة أيضاً .

— أسأل إذن معلمي القرية . . ربما هم أدرى باتجاه الشبان وبما يفضلون أن يقرؤوه .

ـــ المعلمون ؟ إنهم لايعيشون هنا . . أكثرهم من المدينة ويعودون إليها كل مساء .

وتقترب سامية من جابر في محاولتها الاطلاع على محتويات المكتبة الصغيرة . يمد يده كأنه يمسك بيدها أو يصافحها . تبتعد نافرة بهدوء :

ـــ وبعد ؟

ـــ أريد أن أتأكد أنك أمامي بلحمك وعظمك . وأنك أتيت من أجلي .

وتضحك :

ـــ أنا أمامك فعلاً . . هل هذا عجيب أم أنها معجزة ؟

ـــ المعجزة هي عندما . .

ويتهدج صوته ويرتجف . كأنما الدموع تريد أن تخونه . . تدرك سامية أي عذاب يعانيه :

ـــ أنت حر في عواطفك . . وفي ماتقوله وتقوم به . . ولكن لاتنسى مسؤوليتك نحو أسرتك . . هذا كل مالدي .

ـــ أنت تأمرين .

ــ ولم الأمر ؟ دعنا نتحدث كصديقين . . ألا يعجبك أن نكون أصدقاء .

يطرق جابر . تلمح شبح دمعة :

ــ أنا مصر على كلمتي ــ أنت تأمرين ــ . أنا لم أتخل عن مسؤوليتي . . لكن العصفور الذي سجن طويلاً وأحس بهروب الزمن منه بخفق بجناحيه يريد أن يطير قبل أن يموت .

ــ بعد الشر . . ألم تقل لي منذ قليل أنك تحس كما لو كنت في العشرين ؟ .

ــ الاحساس شيء . . والحقيقة شيء آخر . وبالنسبة لأسرتي فأنا تركت لهم راتبي كاملاً .

ــ لكنك انقطعت عنهم . . إنهم لايعرفون أين أنت ؟

ــ سيعرفون فيما بعد . . إلا أنني لم أشأ أن أطلع أحداً أول الأمر حتى لايتدخلوا في شؤوني . استأجرت بيتاً صغيراً هنا وسأدعوهم إلى أن يأتوا لزيارتي متى أرادوا . أليس الغد هو الجمعة ؟ . . سأنزل المدينة غداً .

تطرق سامية . تودع جابر بعد أن تعده هي الأخرى بزيارته إذا سنحت الفرصة . عندما تنصرف تلاحظ عيون الشبان الذين تجمعوا قرب المكتبة تكاد تلتهمهابينما أخذت النسوة يتهامسن .

السائق الذي ما يزال ينتظر يقول :

— عظيم أن يصبح هنا مكتبة . لم أكن أعلم بذلك . . رغم أن أهلي من هذه المنطقة .

ترد سامية بفتور :

— المهم أن توجد لدينا قابلية للتطور . وعندما نتقبل الأفكار فهذه أول خطوة لتحقيقها .

ويسكت . . . ويهرب هواء منعش من بساتين الغوطة التي تزهو بأشجار اللوز والمشمش والتفاح .

* * *

رجاء تقول وهي تطفر حيوية :

— أراك لم تشتري شيئاً . . ألم توفقي إلى ذلك ؟ .

— الحقيقة لم أذهب إلى السوق يارجاء . . غيرت رأيي وقمت بزيارة ضرورية لأحد الأصدقاء .

— أحد الأصدقاء ؟

— ما المانع . إذا كان يزورني في بيتي ؟ زرته في محله الجديد الذي افتتحه .

— قولي لي هذا . . في المحل . ظننت أنك ذهبت إلى بيته .

تردد سامية لنفسها :

— أم تحسبني غبية ؟ هي التي تفعل ذلك وتستغرب .

تردف :

— خبريني . ماذا فعلت أثناء غيابي ؟

— لاشيء . . تسليت كما قلت بالهاتف .

تضحك رجاء . سامية كأنها تريد جواباً أكثر تفصيلاً :

— هذا إذن كل شيء . مع من تحدثت ؟

— الحقيقة . . اتصلت بالدكتور سالم لأسأله عن الدواء. تصادف أنه لم يكن عنده أحد . . وطال بنا الحديث .

— والآن ماذا تنوين أن نفعل ؟

— لم تسأليني عن أي شيء تحدثنا ؟

— هذا من شؤونك ياعزيزتي . . أم أنك تريدين أن أكون فضولية ؟ .

— الحقيقة أنني أريد أن أعرف رأيك في الدكتورسالم .

— من أي ناحية ؟

— أقصد رأيك ك . .

— كطبيب ؟ أم كرجل ؟ أم كزوج ؟

— كل هذه الأمور جميعاً .

— كطبيب . هو لم يعالج أمي كما تعرفين بل أشرف عليها في ساعاتها الأخيرة . وكرجل . أنا لم أنظر إليه كذلك لأسباب كثيرة . . أما كزوج . . فأنا أولاً متزوجة . . وثانياً هو زوج ناجح كما فهمت .

يشحب لون رجاء . . تكاد تقع على الأرض .

— تقصدين أنه . . هو . . متزوج ؟ .

— نعم يارجاء . . ألم تكوني عارفة بذلك ؟

تجهش رجاء ببكاء حاد مثل طفل :

— لم يحدثني عن ذلك أبداً . . لم يتعرض لهذا الموضوع .

— هل قال لك إنه غير متزوج ؟

— لا . .

— إذن . . فهو على الأقل لم يكذب . كان عليك أن تعرفي هذه الحقيقة وتتحري عنها . ما أغبانا نحن النساء عندما تستبد بنا عواطفنا . . ألم يخطر ببالك هذا السؤال ؟ هل هو متزوج ؟

— أبداً والله ياسامية . . أبداً . . حتى أنني لم أسأله لنفسي .

— أنت طفلة . . والآن . . لايغير هذا من حقيقة الأمر الذي بينكما . أنت تحبينه أليس كذلك ؟ .

— نعم . . ماذا أقول لك ؟

— وهل هو يحبك ؟

— لا أدري . .

— هذه هي المصيبة . اسمعي هل يهمك أن تحبي أم أن تكوني محبوبة في الوقت نفسه ؟

— لا أدري أيضاً . .

— هذه مصيبة أخرى . باختصار يارجاء . هل أنت مستعدة لأن تعطيه أي شيء يطلبه منك ؟

— امنحه كل شيء . .

— أنت لاتعرفين الحب إذن .

— ماذا ؟ لا أعرف الحب . وهل هناك أكثر من هذا الحب ؟

— إنه رأيي . . ولن تفهمي ما أقصد . كل ما أنصحك به هو أن تستمري في علاقتك به حتى ينتهي في نظرك . ولكن . . إياك أن تفرطي .

— تقصدين أن أفرط بجسدي ؟

— وهل أحسست أنه يريد ذلك ؟

— إلى حد ما . .

— طريقك مليئة بالشوك يارجاء . . أنا أحذرك .

سامية تقول لنفسها :

ـــ لن تصمد هذه المسكينة أمام هذه الزوبعة إلا إذا كانت جذورها من حديد .

تبكي رجاء مرة أخرى . تشعر سامية باشفاق الأمومة :

ـــ لا أريد لك القنوط والبكاء . أنت شابة . . والشباب فرح . . وأمل . . وضحك .

ـــ أنا تعيسة ياسامية . . تعيسة . . أنقذيني .

ـــ الحب قدر كل إنسان ياحبيبتي . . لا أحد يستطيع أن يغير قدر الآخر إنما . . عليك أن تقاومي . .

ـــ وإذا لم أقاوم ؟

ـــ هذا قدر جديد يضاف إلى أقدارك الأخرى . الإرادة ذاتها هي قدر .

يرن جرس الهاتف . تثب رجاء باندفاع غير شعوري . كان الدكتور سالم هو الذي يتحدث . . ترتبك تحمر وجنتاها وتضطرب لديها الكلمات كل ماتفهمه سامية أنها تتهرب من موعد كان مفروضاً فيه أن يلتقيا على الغداء .

تسرع سامية وتتناول السماعة وتحيي الدكتور سالم بحرارة وتدعوه إلى أن يتناول الطعام معهما هي ورجاء . ولا تسمع رجاء إلا العبارة الأخيرة :

— سنكون سعيدتين إذا شاركتنا . . نحن وحدنا . . ووجود رجل بين امرأتين يبعث جواً من البهجة .

تشهق رجاء من بين الدموع :

— هل . . هل دعوته ياسامية ؟ كيف ؟ .

— كما سمعت .

— أقصد . . لماذا ؟ ثم إن ماقلته شيء غريب .

— دعوته لكي تري عن قرب بعض جوانب حياته كانسان . لعل الوهم يتحطم في رأسك . . فتعرفي أنه رجل ككل الرجال وليس مارداً أو أسطورة . . ثم إن ماقلته لايخرج عن عبارة مجاملة لطيفة لا أكثر .

— ماأجرأك ياسامية . . أنا لا أستطيع في أدق الظروف أن ألفظ كلمة من عباراتك التي ترمينها بقوة وعفوية .

ـ وهكذا الأزهار . . أجملها تلك التي يفوح عطرها بقوة وعفوية .

تلتفط رجاء ذاتها . تستعيد شيئاً من حماستها وحيويتها .

ـ هل أذهب إلى الحلاق لأرتب شعري ؟

ـ ماذا كنت أقول لك ؟ أجمل الأزهار هي التي . . ابقي كما أنت . . دون تكلف أو تعقيد . ليس هناك مايقتل العواطف الإنسانية أو يشوهها كالتكلف والتعقيد .

ـ ولكن .

ـ اذهبي وتناولي كتاباً واقرئي ريثما أعد الطعام .

ـ آ . . تذكرت . . أنت وحدك بلا خادمة . . لابد أن أساعدك إذن .

ـ لا . . شكراً ، اليد الواحدة أفضل للطعام الجيد . . والعكس صحيح .

ـ كثرت الأيادي احترق الطعام . .

ـ بالضبط .

وتنسحب سامية إلى المطبخ . كانت قد أعدت كتاباً خصيصاً لرجاء وتركته في المكتبة قريب المتناول لتأخذه رجاء بشكل عفوي . بالفعل تمد رجاء يدها لتتناوله بينما سامية تدخل لتأخذ علبة الدخان . تلمحها بطرف عينها فتضحك في سرها . . الهواء بدأ يهب رقيقاً . . لكنها تتشوق أن يقوى ويشتد . . أن يغدو زوبعة .

* * *

عند إنتهاء الطعام لم يكن الدكتور سالم يرفع نظره إلى رجاء بعد أن كان في البدء يعاتبها بنظرة جريئة . سامية استطاعت أن تتحكم بالجو الذي حاول أن يخلقه فتحوله إلى جو ودي ناعم وأليف ومعطر بروح مودة . أخذت توحي إليه أنه إنسان محترم لديها وأنها مدينة له يوم محنتها . . أما رجاء فهي أخت صغرى لها ترعاها وتهتم بشؤونها وتوجهها . وما دامت هناك صداقة بينهما فلابد أن تساعدها في أمور كثيرة . . أهمها المستقبل . . تشجعها على إستعادة دراستها . . أو إتقان مهنة ما . . أو لغة أجنبية . والدكتور سالم لايعرف

كيف يهرب من كل تلك الينابيع الصغيرة التي تنفجر حوله. . وهكذا حتى وجد نفسه غريقاً . . واستسلم . هل أحس بالحقد على سامية ؟ ربما . . فهي تقطع عليه الطريق إلى رجاء . . وعندما وصلت إلى موضوع ملء أوقات الفراغ وجد منفذاً :

— ولم لاتشتغل بالتمريض ؟ .

توافقه سامية على الفور :

— مهنة إنسانية عظيمة . . لكن رجاء لاتريد مهنته . . أليس كذلك يارجاء ؟

تضطرب رجاء ثم تستدرك :

— صحيح . أنا لاأريد أن أعمل ولا أهلي يقبلون . لكن التمريض شيء آخر . . أعتقد أنه جيد .

تنظر سامية إلى الدكتور سالم نظرة طويلة . يفهم كل منهما الآخر . يطرق ، ثم يستأذن بالإنصراف .

تندفع رجاء بخفة وطيش وكأنها لم تفهم ما قيل :

— هل أعجبك الدكتور سالم ؟ مهذب ولطيف . . أليس كذلك ؟

ثم تردف :

— كم الساعة الآن ؟ أريد أن أعود إلى البيت قبل الخامسة ولدي أيضاً ما أشتريه .

تجيب سامية بحزم :

— لكن الساعة الآن بعد الثالثة بقليل . . والسوق مغلق.

— إذن . . اذهب لعند فادية حتى يفتح السوق .

تنتفض سامية :

— فادية . . فادية توفيق ؟ وهل تعرفينها يارجاء ؟

— صديقة الطفولة . . كنا معاً في المدرسة وصادفتها منذ مدة . . وتعانقنا في الطريق — تصوري — وأعطتني عنوانها وطلبت مني بالحاح أن أزورها . .

— تزورينها ؟ هكذا بدون موعد وفي مثل هذاالوقت؟

— ألم تقولي أنه يجب أن أبتعد عن التعقيد والتكلف ؟

سامية تحس بضجر من نوع خاص يملأ صدرها تكاد تنفجر . تقول بقسوة :

— كما تريدين . إنما كنت أحب أن تبقي معي هذا الوقت . أشعر بوعكة .

تنظر إليها رجاء نظرة ثابتة ثم لاتلبث أن تنهار :

— الحقيقة . . الحقيقة أن لدي موعداً مع الدكتور سالم.

— كنت أشك في ذلك . اذهبي . . إنها تجربتك . لاتستشيريني بعد هذا في شيء .

— أنا . . أنا في الواقع أريد أن أنتقم منه . عندما علمت أنه متزوج شعرت أن في داخلي ذئبة تريد أن تفترسه . سوف أمد له حتى يقترب أكثر وأكثر . وبعدذلك.

— وبعد ذلك يفترسك هو .

تصرخ رجاء :

— ماذا تقولين ياسامية ؟

— لاشيء . . إنما أنا .

— أنت تحذرينني . . أنا أعرف . .

تتمتم سامية لنفسها :

— بل أنت لاتعرفين شيئاً .

وتخرج رجاء بعصبية .

تلبث سامية مستسلمة لحالة من الإسترخاء تحس معها أن كل جزءاً من أجزاء جسدها معطل ماعدا دماغها . . فهو يعمل مثل مضخة . . تفكر . . وتفكر . . وجزء كبير من تفكيرها ينصب حول رجاء . . تتخيلها وقد مزقها الدكتور سالم بأنياب معدنية ـ معقمة ـ وبلطف إنساني شديد وربما بحنان طبيب على مريض مسكين . . تتمثاه كما لو أنه أسبل فوقها الغطاء ثم ينسحب راجعاً إلى عيادته بحجة مهمته الإنسانية في معالجة المرضى . رجاء لاتعرف قيمة نفسها . . لاتعرف الرجال على حقيقتهم . . لاتعرف طبيعة العلاقة بين المرأة والرجل . . لو تعرف كل ذلك . . شيئاً من ذلك لتغيرت رؤيتها للأشياء جميعاً ولكنها هكذا . . خلقتها ظروفها بهذا الشكل ولا سبيل إلى تغييرها إلا عن طريق التجربة . . فلتجرب . تسمع سامية جرس الباب يقرع . تحزر أن هذه رجاء :

ـ آسفة إذ أزعجتك . .

ـ أبداً . . إنما كنت مسترخية .

ترتاع سامية للهجة الإنكسار والتي كانت رجاء تنطق بها عباراتها . تحدق في وجهها فلا ترى في عينيها آثار الكحل، شعرها مضطرب . . وثيابها فقدت رونقها وملاستها . . تصرخ :

— رجاء . . ماذا جرى ؟ خبريني .

تجهش رجاء ببكاء حاد :

— إنه ماكر . ثعلب . لن أراه بعد اليوم . تصوري أنه لم يعترف بزواجه ولم يعدني بشيء . . ولم يرتبط معي بأي عهد .

— قصي علي بالضبط ماذا جرى ؟

— إنه شيء فظيع ياسامية . . فظيع . لم أجد نفسي إلا بين ذراعيه .

— هكذا دون مقاومة . أم كان ذلك بارادتك ؟

— بالعكس . . قاومت كثيراً حتى كادت ثيابي تتمزق وكاد الجيران يسمعون صوتي .

— أي جيران ؟ هل أخذك إلى بيته ؟

ـ بيت مشترك على مايبدو بينه وبين أحد أصدقائه و . . طلب مني أن أسرع إذا خرجنا حتى لايراه .

ـ لايراه . . أو لايراك ؟

ـ لماذا تسأليني بهذا الأسلوب ياسامية كما لو أنني مجرم أمام القضاء ؟

ـ هل تريدين ألا أسألك ؟ لاتتحدثي إذن نهائياً . أنت بدأت ولم أطلب منك ذلك .

تغص رجاء بالدموع :

ـ عفواً ياسامية . . أنا ضائعة . . لاأدري ماذا أقول ولا ماذا أفعل ؟

ـ المهم أنك لم تستطيعي أن تخدعيه كما تصورت .

ـ بل هو الذي خدعني . . قولي لي . ماذا تساوي لحظات الجسد إذا عاد المرء فجأة إلى الندم والحرمان والقلق؟ أحس أنني أقذف من قمة إلى قاع واد أسود . . أنا يائسة . . يائسة . . أريد أن أموت . .

ـ تموتين ؟ لماذا ؟ . ألا نلك خسرت اللعبة مع رجل ؟ أنت منذ البدء تراهنين على جواد خاسر .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ أقصد أن النتيجة معروفة أما أن تموتي فهذا ما لا أفهم له سبباً .

ـ أريد أن أنتحر . . ضميري يعذبني . . ألستساقطة؟ منحطة ؟

ـ اهدئي ولا تبكي . ثم . . حدثيني ماهو السقوط في نظرك أو الإنحطاط ؟

ـ لا أعرف بالضبط . . ولكن أليس هو الذي جرى معي ؟ .

ـ هل تكرهين نفسك ؟

ـ أكرهها لأنني ساقطة و . .

ـ لاتعيدي هذه الكلمات ولو أمام نفسك . أنا أقدر موقفك . . فلو جرى الذي جرى قبل أن تقرري الإنتقام لما نقمت .

أنت لاتعرفين . . ولا أحد يعرف . .

— بالضبط . . اجتمعنا مرات . . وفي كل مرة كنت أقع في الإغراء . . ويأخذني بين يديه . . وأغفو بين ذراعيه ويوقظني بقبلاته . . وكنت أحس نفسي طاهرة وسعيدة .

— الموضوع لايتجزأ يارجاء . لايأثم عضو من الجسد ويبقى الآخر طاهراً مطهراً . إنه جسد واحد . والخطيئة شعور ينبع من الأعماق ، ينتشر في الجسد كله . حتى يغرقه . ولكن الندم . . على الرغم من أنه قطرات مريرة وشحيحة إلا أنها قادرة على أن تغسل عن هذا الجسد شعوره بالخطيئة . ما رأيك في أن ندمك هذا سيفتح لك السد وأن دموعك ستطهرك فتعودي كما كنت ؟ قبل أن تعرفي الدكتور سالم . يحصل هذا . . إنما بشرط .

— أنا أقبل بكل شروطك .

— ليست شروطي أنا . . بل شروط الندم الصحيح وهي إلا تعودي لما فعلت مرة أخرى .

ــ أعاهدك على ذلك . . واقسم لك .

ــ بل عاهدي نفسك . . واقسمي أمامها . . أنا لست إلهك . ولا منقذك . أنا شاهدة .

تقوم رجاء وقد هدأت قليلاً وأفرغت آلامها واطمأنت. تسوي من شعرها . تصلح من هندامها تهم بالإنصراف . تستدرك سامية :

ــ إذا استطعت أن تعودي لتنامي عندي فسأكون مسرورة .

ــ لا أظن ياسامية . . أمي أصبحت تشدد في معاملتها لي أكثر . . . سأحاول .

* * *

عند الصباح تذهب سامية لعند ــ هاجر ــ زوجة قريب لأمها . تحب هاجر . . وترتاح إليها . . بيتها . . البساطة التي فيه مظهرها الهادىء . فهمها للحياة دون تزييف أو تعقيد . . تربيتها أولادها الخمسة على القناعة والرضى . . كل هذا يشدها إلى هاجر . . الوجه المغسول دائماً بالمحبة . .

المعطر بالإبتسام . . القلب الكبير الذي يحتمل ولا يشكو بل يستوعب شكوى الآخرين . تسرع خطواتها إلى بيت موظف محدود الراتب لكنه يشع بالسعادة . . تخلقها زوجة متفائلة مخلصة . . وبصمت .

ما أكثر ماكانت تقول لسامية :

ــ العمل الجيد يتلفه الكلام عنه . . ولا شيء يقتل التضحية كالحديث عنها .

تستعيد سامية في ذهنها أشياء كثيرة عن هاجر . . كلها مثالية وتطامن من أي عنف يتفجر داخلها . لم إذن تذهب إليها وهي التي تريد أن تبعثر كل ما حولها وتثير زوابع بلا حدود ؟ هل لأنها تفتقد ما تعيشه هاجر وهو أن الأشياء في وضعها الصحيح ؟ هاجر على ثقة من كل ماتفعل.. أما هي فالعالم أمامها مزعزع . . متقلقل قابل لأن يتغير في كل لحظة . وعلى الرغم من أن هاجر تحيا مثل نهر مطمئن هادىء فهي لاتستنكر أي شيء . . لاتستغربه وذهنها واسع إلى أبعد حد ولهذا فهي تفضي إليها بكل أسرارها . ولا تخفي

عنها ما يدور معها أو ما تفكر فيه . . دائماً تقول لها : (وماذا في ذلك ؟ كل شيء يحصل في هذه الحياة . إنها مليئة بالعجائب والمتناقضات ومامن حادثة تقع إلا ووقع مثلها فيما مضى إلا أن الإنسان هو الذي يتغير) . ودائماً كانت تشعر أن لهاجر قصة ما . . ولم تحاول أبداً أن تعرف ماهي .

تتشرح للتفكير في هاجر . . ستجلس إليها بينما الأولاد في المدارس . . وستتناولان القهوة . . وربما فتحت لها فألاً بالفنجان لتشجعها على أن تقول لها كل شيء . وتقول كل شيء . . وتنفض همومها ومثل أرض عطشى تشرب من مطر خريف تعود وقد ارتوت . . تصل لعند هاجر . تستغرب هاجر اضطرابها :

ـ ماذا في الأمر ياسامية ؟

ـ انصحيني ياأم غسان . . ماذا أفعل ؟

ـ أنصحك . . أنا ؟ وأنت المتعلمة التي تفهمين كل شيء ؟ ومتى كنت بحاجة إلى نصيحتي ؟

ـ أنا دائماً بحاجة إليها . . وآخذها منك دون أن تشعري .

ـ لكني امرأة بسيطة .

ـ الحقيقة في البساطة . قولي لي . . هل أرجع لكريم؟

ـ ترجعين لكريم . ؟ إنه زوجك .

ـ الحقيقة أننا لم نعش كزوجين كما يجب ولا فترة من حياتنا . نحن غير منسجمين في نواح ما منذ البدء . . والآن ماذا سنفعل بعد فراق طويل ؟

ـ ما أعرفه هو أنكما متفاهمان . . فهل أنا مخطئة ؟

ـ نحن غير متفاهمين جسدياً . . هل أدركت لما أقول ؟ لم أحب جسده . . أحببت فكره وروحه ورغبت من صميمي أن يكون زوجي . . وكنت صغيرة ولم أدرك هذه الناحية . . . وفوجئت بها منذ شهر العسل . . .

ـ تقصدين أنه لم يكن بينكما معاشرة زوجية ؟

ـ لا . . ليس هذا ما أقصد . كان يحبني . . وكنت أسكت . وعندما فرقتنا الظروف لم أفتقد لبعده .

ـ آ . . ظننت ذلك وكدت أفسر عدم حملك .

ـ عدم حملي له أسباب أخرى مجهولة . . لعلي لم أرغب أن يكون لي منه ولد . . وإن كانت الأمومة تحرقني بين حين وآخر .

ـ أية تفسيرات غريبة هذه ياسامية . . حمل المرأة كحمل الشجرة .

ـ صحيح . . لكنه يخيل إلي أن المرأة التي لاترغب أن يكون لها من زوجها ولد لاتحمل .

ـ إذن . . فكل امرأة تكره زوجها تصبح عاقراً . . ونصف نسائنا يعشن كرهاً مع أزواجهن .

ـ لم تفهمي ما أقصد . . أقصد الإرادة الواعية التي في رأيي تعطل كل شيء ولا أقصد الكره المبطن بالرغبة الجنسية أو الإعراض الموقت .

ـ أعترف أنني لم أفهمك . . . هذه فلسفة .

تقوم هاجر لتهيء القهوة ، تلحق بها سامية باندفاع :

ـ سأطلب الطلاق ياأم غسان .

تجفل هاجر . تقع القهوة تنتشر بقعاً سوداء على أرض المطبخ النظيفة .

— تعقلي ياسامية . . وفكري . . أن ماتقولينه شيء فظيع . ثم أنك أصبحت وحيدة بعد موت أملك .

— سأعيش حياتي . . وربما تزوجت غيره إن استطعت .

هاجر تجيب بألم :

— ولم لا تستطيعين ؟ من يقدر على الطلاق يقدر على الزواج . . .

— أقصد أنني لا أعرف إن كان من أريده سيتزوجني أم لا ؟

— وهل تقصدين رجلاً معيناً بالذات ؟

وتقص سامية على هاجر قصة لقائها بذلك الشاب في باريس . . والرسالة الوحيدة التي تلقتها منه والدعوات . ويوم الوداع . وكيف أنها تلاحق أخباره وإنه لم يتزوج بعد . تقص كل ذلك دون أن تنتبه إلى وجه هاجر الذي كان يمتقع . . تستمر :

— اعتبري ما أقوله لك طيشاً . . . ونوعاً من الجنون . أن أفكر بانسان لم ألتق به إلا قليلاً . . . ومنذ سنين طويلة . ومع ذلك أحس أن هذا الحلم هو الحقيقة الوحيدة في حياتي . استمعي إلي . . تحمليني . . كما تفعلين دائماً . أنت وحدك من أستطيع أن أفضي إليها بما في قلبي . قال لي في الرسالة أنه لن يتزوج حتى يعثر على امرأة مثلي . . أو يعثر علي .

هاجر تقول بصوت ضعيف :

— ليس من أجل هذا أنا متأثرة . . إنما . . لم أسمع منك هذه القصة قبل اليوم . إنه فظيع . . فظيع .

— وما هو الفظيع ؟ أن أعيش بفكري وإحساسي مع إنسان وأكون صادقة . أنا لم أخن زوجي جسدياً . . أليس هذا ما يعترف به المجتمع ؟ .

— ولكن . . . ألم تحاولي أن تلتقي به ؟

— لم يحاول هو . . . لعله يظنني زوجة سعيدة .

ـ أليس اسمه هو ناجي المهدي .

ـ صحيح . . . وكيف عرفت ؟

ـ ألم يخطر لك أن يكون من أسرتي على الأقل ؟

ـ آه . . . ما أغباني . . دائماً كنت أقرن اسمك باسرة زوجك وأنت من أسرة المهدي اليافي .

ـ لقب والدي ـ اليافي ـ اكتسبه في يافا . . عاش فيها مدة طويلة . . . اشتغل فيها بالتجارة وأصبح ثرياً . . . وكعلامة فارقة أطلق عليه اليافي .

يشرد ذهن سامية . . . بشيء من الحيرة تنظر إلى هاجر . . كأنما لا تصدق . . هاجر تستمر :

ـ نعم . . أبي كان غنياً . . . وغنياً جداً وقد ساعد الثورات التي نشبت في فلسطين ضد الإستعمار وأمدها بماله . . حقد عليه الإنكليز واليهود معاً . . ولما وقع التقسيم رفض أن يبيع شبراً من أرضه . . . أو أن يرحل . لكنه اضطر إلى الرحيل عندما وقعت الكارثة وسلبت فلسطين . رحل مثل جواد عارٍ حتى من السرج . لم يأخذ

معه مالا . . ولا أوراقاً أو مستندات .. ولا أي شيء .
وعاش في دمشق . . وعشنا على حلم العودة وأمل الثروة .
ظل يجهد ويكد ويتعب من أجلنا . . ويذوب مثل شمعة . .
حتى مات . . ووالد ناجي هو ابن عم له . . مثل أخ . .
ماتت زوجته أم ناجي . . . وأتوا بالصغير إلينا . . نشأ
معنا . . ودرج على محبتنا . . فلم يكن يعرف غيرنا . .
وكان أبوه يشترك في الحركات السياسية المعادية للواقع
العربي في ذلك الحين أي لما كانوا يسمونه في سورية . .
الكتلة الوطنية . . وفي الأردن . . مشروع سورية الكبرى . .
ولهذا كان يسافر كثيراً . . يغيب ويختفي كثيراً . . وناجي
لايفتقده لأنه مغمور بحب أبي وعطف أمي ويعامل كواحد
من أبنائهما . . حتى حلت المصيبة بموت والد ناجي فلم يعد
يرضيه شيء . . أو يفرحه شيء . لعل طريقة الموت كان
لها أثر في ذلك . . لاحقته السلطات الأردنية على الحدود
وهم يظنون أنه مهرب بضائع أو حشيش عندما يكتشفون
أنه يهرب أسلحة وأوراقاً ومناشير . . طاردوه فلم يستسلم . .
ظل يهرب حتى وصل إلى مشارف دمشق . . أطلقوا عليه

النار فجرح . . وضع يده على جراحه وظل يقود سيارته حتى وصل إلى البيت . . بيتنا وكنا صغاراً . . وافقنا . . ورأينا . . وذهلنا . وكانت صدمة ناجي شديدة جداً عندما رأى الدم يتدفق من صدر أبيه ثم بعد ذلك يقع في فك الموت . ظل هائماً على وجهه أياماً لا أحد يعرف أين هو . . ثم عاد صامتاً هزيلاً منكسراً واكب على دروسه حتى نال الكفاءة . بعد ذالك انفصل عنا تلقائياً . . فلم يكن أبي يشعر إلا أنه واحد من أولاده . ونال الثانوية بتفوق . . ورغم البعثة التي حصل عليها لدراسة الحقوق في فرنسا فقد أعطاه أبي مبلغاً من المال قال له إنه حصة أبيه . . ومات أبي . . وتزوجت . . ولم أعد أرى ناجي . . رسائله إلينا انقطعت تقريباً .

تتنهد هاجر . . كأن ناجي ذكرى عزيزة على قلبها .

سامية وكأنها لاتصدق ما تسمع :

ــ لكنك لم تحدثيني أبداً عنه . لماذا ؟

ــ بل لماذا أحدثك ؟ طيف من الماضي . انطوى

مع أيام طفولتي وصباي .. والحياة شغلتني..البيت والزوج والأولاد . عالم جديد للمرأة قد ينسيها كل شيء . . حتى نفسها .

سامية لاتفكر أن تمسك بالخيط الذي يجمع هاجر بناجي. كل تفكيرها يتجه إلى أن تستزيد من المعلومات عنه . . عن طفولته . . عن شبابه الأول . . . عن أفكاره وطموحاته .

ـ وهل . . هل كانت له آراؤه الخاصة . . وطموحاته الخاصة ؟

ـ كان دائماً يحلم بأن يكون شخصاً مرموقاً . . ويسعى ليس من أجل أهل بلاده فقط بل من أجل الناس. . كل الناس . . كانت له آراؤه الخاصة جداً . يتحدث عن مجتمع موحد للبشرية يعيش فيه الأفراد كما النحل في الخلية . . كلهم يعمل والناتج للجميع . . وأبي رحمه الله كان يستغرب هذه الآراء . . يراها متطرفة . . وكان يحذرني أن أهتم بها أو أميل إليها . وخاف أبي عليه من أن

يجروه إلى أحزاب سرية وممنوعة فاستعجل قصة ذهابه إلى فرنسا .

تقوم هاجر إلى خزانة عتيقة . . تدير مفتاحها الصدىء بحذر . . تخرج رزمة أوراق وبعض الصور :

— هذه صورة ناجي عندما كان في الإبتدائية . . وهذه . . وهذه .

وتغيب سامية في دهليز ماض معتم طويل . . ماضي ناجي . . تشعر أنها تعرفه . . ليست غريبة عنه . . وأنه يشبه ما تمثل في خاطرها عن ناجي . هذا الجبين المتألق . . وهاتان العينان العميقتان الحزينتان . . وهذا الشعور بالتفرد ففي كل صورة هو وحده . . تقول لهاجر بصوت مخنوق :

— وهذه الأوراق . . هل هي رسائل ؟

— بعضها رسائل أرسلها إلي . . وبعضها الآخر أوراق له خاصة وصفحات من دفاتره المدرسية . . تركها عندي وديعة عندما سافر . . وأنا حافظت عليها طوال هذه السنين من أجله .

ـــ هل تسمحين بأن ألقي عليها نظرة ؟

ـــ ولكن بسرعة . . أريد أن أرجعها إلى مخبئها قبل أن يعود الأولاد أو يراها أحد .

وتتشاغل هاجر بصنع القهوة من جديد . وترتمي لهفة سامية فوق الأوراق . إنه خطه نفسه . وإنها عباراته . . وهذه الروح التي تضطرب بين الكلمات هي الروح ذاتها التي كتب بها إليها . تعثر على مقاطع لكتاب كبار : ـــ دستويفسكي وهيدغر وكيركجارد ولوكاش . . وعلى خواطر وأشعار . أي شخص هذا الذي يجمع كل هذه الآراء والأفكار منذ شبابه الأول . . ما الذي يضطرم في صدره . . يشتعل في رأسه . . يخفق له قلبه . سامية تشعر أن هذا هو عالمها الخاص أيضاً . . وأنها لم تكن بحاجة إلى جسور لتصل إليه .

هاجر تعود بالقهوة شاردة . كأنما تريد أن تطوي هذه الصفحة التي فتحت عنوة :

ـــ نحن تقريباً في عمر واحد . . أنا وناجي وكنا

نتشابه في أمور كثيرة لكن الحياة دفعت كلاً منا في طريق . . هكذا الحياة دائماً ياسامية . . تجمع الناس فترة ولو كانوا أسرة أو أقارب لتعود فتفرقهم . وعليناأن نرضى بسنتها وناموسها .

وترتشف القهوة الحارة . ترمي من يدها الأوراق بينما تطير ألوف الصوروالإنطباعات لتعشش في رأسها ثم تمضي .

* * *

الفصل السادس

يخرج من دار جريدة — التقدم — وهو حائر . لابد أن يقوم بعمل صحفي كبير . . كبير حتى يلفت إليه النظر . ويسير في طريق الصحافة ثم الشهرة . كل المناقشات التي كانت تدور بين الشبان حول ملامح المجتمع التقدمي الجديد لم تكن تجد لها أي صدى في نفسه . إنه لايفهم في التقدمية . . لاتثيره الاشتراكية ولكنه مدفوع إلى هذه الطريق . لم يجرؤ مرة على أن يحدث رفاقه بما يعني أو يفكر وإلا لطردوه خارج الدار ولقطع عنه الراتب الصغير الذي يناله ، اليوم بالذات وقف أمام امتحان صعب . . قال له رئيس التحرير :

— حان الوقت لأن تأخذ اتجاهاً في التحرير . . أو على الأقل تضع امضاءك على ما تكتب حتى يعرفك الناس .

وأجاب :

— وهل أهرب من مسؤولية ما أكتب ؟

ضحك رئيس التحرير وقال :

— الواقع ليس هناك مسؤولية قط . . الجريدة هي المسؤولة والإتجاه هو الذي يتبناك . نحن نقرأ ما تكتب وإلا لما نشر . . أم ماذا نظن ؟

وشعر أنه أخطأ خطأ كبيراً وتصبب العرق من جبينه . قال :

— أنا راض هكذا . . لابأس . . هذا أفضل لي .

أجاب رئيس التحرير :

— لكن الحال لايمكن أن تستمر على هذا الشكل . . نحن نريد محررين مسؤولين .

وفغر فاه من الدهشة . . . أردف رئيس التحرير :

— أقصد محررين مسؤولين أمام الجماهير لا أمامنا . . مفهوم ؟

ويخرج . . والدهشة لاتزال تحتل رأسه تدور . . كيف تنتفي عنه المسؤولية أمام ـ هؤلاء ـ ويتحمل كل المسؤولية أمام ـ أولئك ـ ؟ كيف يجمع بين المتناقضات ؟ الالتزام . . والحرية . لا . . لايريد بعد اليوم أن يكتب في موضوعات حول التقدم والانتاج والمشاريع والمؤسسات إلخ. سينتقل إلى موضوعات أخرى مثيرة ومسلية وتجذب القراء وتبهرهم . هذا قراره الأخير . لماذا لايكتب عن حوادث الإجرام مثلاً أو عن فضائح المجتمع أو غير ذلك ؟ لماذا لايقوم بتحقيقات حول المراهقة والجنس والأفلام إلخ . . ؟

يتذكر تلك الحادثة التي رواها له رفيقه بالأمس حول فضيحة وقعت في أحد المستشفيات عندما جاءت زوجة الطبيب المشرف لتضبطه مع فتاة في غرفة المعاينة . . كانت قد سمعت بعلاقة بينهما فسبقتهما . . أخذت تضرب الفتاة . . وأوقعتها على البلاط حتى كسرت ذراعها . . والفتاة لم تجرؤ على أن تعلن عن اسمها واسم أسرتها وفضلت أن تخرج من المستشفى دون معالجة حتى لايعرفها أحد . وتذكر أن رفيقه قال له أن الفتاة اتصلت بالسيدة سامية الشامي . .

وأتت هذه بسيارتها وأخذتها بعد أن توسطت في المستشفى أن يطوى الحادث .

يفكر — باسيل — في أن يتصل بسامية ثم يتردد . . ماذا سيقول لها ؟ ماذا سيطلب منها ما دامت قد توسطت لإغلاق الحادث ؟ وبأي حق ؟ يقولون عن سامية إنها امرأة ذات شخصية خاصة بها . . وأنها ذكية وذات تجربة فهل يستطيع أن ينفذ من خلالها إلى ما يريد . ؟

من دكان قريب يمسك — باسيل — بدليل الهاتف . . يبحث عن أسرة الشامي . . ثم يتذكر أن زوجها هو كريم السعدي . . ومع ذلك لايعثر على الرقم إلا باسمها شخصياً .

— ألو . . سيدة سامية . . أنا باسيل النجار .

— الصحفي ؟

— ولكن . . من أين عرفت ؟

— ولو . . يا أستاذ . . إذا كان اسمك وراء الحروف فهل يعني هذا أننا لانعرفه ؟ أي خدمة ؟

باسيل يتمنى أن يكون بلا اسم على الإطلاق. باضطراب يقول :

ـ في الواقع . . أريد أن أزورك لأمر هام . . وخاص .

ـ خاص بمن ؟ بك ؟ لامانع . . متى تنتهي من عملك في الجريدة ؟ أظن أن لديكم هذه الأيام مشاغل كثيرة .

ـ في الحقيقة أنا غير مرتبط بدوام معين . . ذلك لأنني لست مرتبطاً بعمل معين .

ـ كيف ؟ ألست محرراً ؟ المهم . . أستطيع أن أستقبلك الساعة التاسعة . هل تعرف البيت ؟

ويتمتم لنفسه . رائع . . وهي امرأة بكل ما في الكلمة من معنى .

* * *

سامية تقول وهي تضحك :

ـ أنت صحفي إذن . . .

ـ اعتقدت أنك تعرفين من حديثك في الهاتف . أم أني مخطيء ؟ ثم إنني اتصلت بك مرة . . أتذكرين ؟ .

تحدق فيه بعينيها المشعتين :

ـ أقصد . . هل تعتبر نفسك صحفياً ؟

يجفل ـ باسيل ـ لم يحدثه أحد بهذه اللهجة لا من الرجال ولا من النساء . لم يقتحم أحد عالمه الخاص بمثل هذه الجرأة . هو الذي يقتحم عوالم الآخرين . . هو الذي يحرجهم ويضيق عليهم وكم من مرة وصفوه بأنه وقح .

ـ سيدتي . . بكل تواضع أقول لك إنني مازلت صحفياً ناشئاً .

تضحك من جديد :

ـ إذن فالاعتراف موجود بأنك صحفي وكفى . لايهمني إن كنت ناشئاً أو مخضرماً أو عتيقاً . أيعجبك هذا التعبير ـ عتيق ـ .

ـ يعجبني وأستعمله .

لنفسها تتمتم : الذهب العتيق . . والخمر العتيق . . والصاحب العتيق . .

يشعر بالإرتباك . لاتقتحم عوالمه فقط بل تخترق أعماقه مثل سهم . . يجيب باضطراب :

ـ الحقيقة أنني . . لاأعتبر نفسي صحفياً .

ـ إذن . . لماذا تشتغل في الصحافة ؟

ويرى أنها قصة طويلة لو حدثها بها . كل تلك الحياة التافهة الساكنة التي كان يعيشها مع أمه وجدته العجوز دفعته لأن يبحث عن أشياء مثيرة خارج عالمه الرتيب الذي يشبه ساعة انتظمت دقاتها على الرغم من أنهاشاخت واهترأت . لم يكن يجد إلا الجرائد ليروي عطشه إلى الحوادث المثيرة . . وبعد ذلك صار يخترع حوادث مماثلةأمام أولاد الحارة ينسبها لنفسه أو لمن يعرفهم . وعندما كبر قرر أن يصبح صحفياً وترك المدرسة قبل أن ينال الشهادة الثانوية على الرغم من دموع أمه وتوسلات جدته .

التحق بالجريدة . . ماتت أمه حسرة على ضياع مستقبله . . وجدته لايزال القهر يملأ صدرها رغم أنها لاتحدثه بشيء عن عمله . هل يقول للسيدة سامية إنه لم يفكر

إن كان يصلح للصحافة أم لا ؟ هل يقول لها انه عندما التحق بالجريدة كان كل همه منصباً على قبوله فيها لاعلى امكانياته ؟ انها امرأة واعية فلم لايقول لها ذلك ؟ ولكن . . ألا يشعر بالكره لها ولنفسه لأنه جاء إليها ؟ هل هي التي ستقوم بالتحقيق معه أم هو الذي سيحقق معها حول الفتاة والفضيحة ؟

يقول بنفاذ صبر :

— إنها قصة طويلة . . المهم الآن أن أعرف موضوع تلك الفتاة .

— والمهم بالنسبة لي أن أعرف هل أنت صحفي ام لا قبل أن أعطي أي حديث .

يضرب المنضدة بيده حتى يوشك فنجان القهوة أن يقع — يجيب :

— لم أتعامل مع النساء . . يبدو أننا لن نتفاهم .

تجيب ضاحكة :

— لم تتعامل مع النساء ؟ مستحيل . قل أنك لم تتعامل

مع نساء مثلي . لتكن تعبيراتك دقيقة . أنت صحفي . لماذا تهمل الدقة في تعابيرنا ؟

يشعر باسيل أنه يريد أن يشد على عنقها بهذا — الإيشارب — الملون حول عنقها الجميل . . ينهض . . يقترب منها . تجفل :

— ماذا تريد أن تفعل ؟ افعل . . وإلا فكيف نعتبر أنفسنا أحراراً إذا لم نقل ما نريد . . أو نفعل ما نريد ؟

— هل أعبر عن حريتي وأقول إنني . .

— إنك ماذا ؟ قل . . لاتخف . . كن جريئاً .

— أريد أن أخنقك . .

تمعن في الضحك :

— افراغ العدوانية أول مراحل الشعور بالحرية . . تأكد أنني لست خائفة . . هل تصدق ؟ لا أحد في المنزل سوى فتاة مكسورة الذراع لاتقوى على الحراك .

ينسى باسيل ماكان فيه من ثورة . يسأل :

— تقصدين . . الفتاة التي أبحث عنها ؟

— بل تبحث عن قصتها . إنها هي بعينها . ماذا تريد من قصتها ؟

— أريد أن أعرف الحقيقة كاملة وأنشرها . طبعاً لن أشير إلى اسمها . .

— ولماذا الحقيقة الكاملة ؟ ولصالح من ؟

— حادثة اجتماعية . . تعدي الرجل القوي على المرأة الضعيفة . يجب أن يرتدع هؤلاء عن أن يغرروا بالفتيات وخاصة إذا كانوا متزوجين .

— ومن أعطاك حق المحافظة على حقوق الناس وأخلاقهم ؟ هذا إذا اعتبرنا الموضوع تعدياً . . أو منافاة للأخلاق .

— ماذا نعتبره إذن ؟

— أريد رأيك أنت . . بصراحة . . هل تعتبره كذلك أم أنها واجهة . . بضاعة نوردها للناس؟ . .بالمناسبة كم عمرك ؟ ألم تحب مرة ؟

يستغرب باسيل هذه الأسئلة المتناقضة المحرجة :

ــ الحقيقة أنني لا أعتبر العلاقة بحد ذاتها غير أخلاقية. . إنما الوضع غير أخلاقي .

ــ إذن . . فأنت ضد أوضاع ولست ضد أشخاص ، تستطيع إذن أن تكتب ما تريد دون أن تتعرض لأحد . . سألتك ما عمرك فلم تجبني . .

ــ عمري ست وعشرون سنة . . وأحببت مرتين .

ــ هل أنت تقدمي . . ؟ اشتراكي ؟

يتلعثم . . ما علاقة هذا بموضوع الفتاة ؟ يسرع بتناول سيجارة . . يشعلها ليخفي انفعاله . . تقول دون أن تنتظر جوابه :

ــ لو كنت تقدمياً حقاً لعالجت الموضوع من زاوية أخرى . . انتبه لعبارتي ــ الموضوع ــ هذا إذا عالجته. .

ــ مثلاً ؟

ــ ألا تعتقد أن الأطباء يشكلون في مجتمعنا طبقة بورجوازية جديدة ؟ أو طبقة ذات امتيازات واحتكارات ؟ .

ــ . . ولكن ما دخل هذا في ــ الموضوع ــ .

— هذا هو المفتاح : طبقة ، استغلال للمال . . استغلال البشر . . للمرضى . . للضعف الإنساني بأشكاله . . امتداد الإمتيازات بنوع من التفرقة الطبقية . الطبيب يشعر بالتعالي على ممرضته مثلاً على الرغم من أنهما عاملان في حقل واحد . لماذا ؟ هل لأن دخله أعلى ؟ هل لأن مكانته الإجتماعية أرقى ؟ هل ؟ تساءل أيها الصحفي . . لم لا تتساءل ؟ أكتب هذا إذا كنت تقدمياًحقاً . .

تضحك سامية . . وتشعل لنفسها سيجارة أيضاً .

يطرق باسيل . . إنها امرأة ذكية ورائعة . . في ثوبها الأسود هذا . . لكنه يكرهها :

— لم أفهم رأيك بعد . . هل يمكنني مقابلة الفتاةأم لا؟

— أريد أن أعرف لماذا أولاً ؟ هل لمزيد من الطعنات ؟ لست مستعدة لأن أضعها فوق مشرحة .

— أعتقد أن مناقشتها في هذه الأمور سوف تساعدها نفسياً لأنها ستفرغ آلامها من خلال الحديث أو إبداء رأيها بما حصل . .

ـ ها قد انتقلت إلى ناحية نفسية . . وهي أكثر خطورة . . أعتقد أن الصحفي يجب أن يكون ملماً بعلم النفس أيضاً . .

يقاطعها باسيل :

ـ أنا لست كذالك للأسف . . اسمعي . . لم أعد أرى سوى أن أقول لك أنك . .

تقترب منه سامية :

ـ إنني ماذا ؟ أشياء كثيرة أعرفها عن نفسي ولكنني أرغب أن أضيف شيئاً آخر .

باسيل يبتلع ريقه :

ـ إنك امرأة رائعة . . لكنني أكرهك .

ويغلق الباب بعنف وينصرف . وتتمتم سامية لنفسها : الكره بديل الحب .

* * *

ويمضي أسبوعان ورجاء لاتزال عند سامية . . تطلب سامية من خالتها أن تترك رجاء عندها حتّى تشفى ولا تعارض الخالة سامية لأسباب كثيرة أولها رغبة رجاء . . ثم إن رجاء محطمة ونحيلة أكثر منها مريضة وبقاؤها عند سامية ربما يفيدها في بيت حديث . . مشمس وصحي . . تقول الخالة لأبنة أختها :

— الجيران يقولون لي افرضي رجاء تزوجت . . تعودي فراقها . لم . . ليتها تتزوج ياسامية وأستريح .

— مم تستريحين ؟

— من همها .

— ألا يكون همها أكبر لو فشلت لا سمح الله ؟ ادعي لها أن توفق إلى من تحبه ويحبها .

— الحب لايهمنا ياابنتي . . يهمنا الستر والتفاهم .

— لكن الحب هو التفاهم . . وهو الستر على حد قولك .

وهكذا . . بين غصات الخالة وتشجيع سامية لخالتها ببقاء رجاء عندها . . تأخذ رجاء تطل من نافذة جديدة على حياة ليست حياتها .

المساء بارد . . سامية تعود لتجد رجاء وقد اتصلت بالدكتور سالم وقيل لها إنه غير موجود . . تنفجر رجاء ببكاء حاد . . وسامية تخفف عنها :

ـ ألم يخلق الله رجلاً غيره ؟ انتهينا . . أما يكفي مافعله بك ؟

ـ لكن لازلت . . .

ـ وهو لايحبك . . هل قلت لنفسك هذه الحقيقة ؟

ـ لاأستطيع أن أبتعد عنه .

ـ إذن . . اتبعيه كالعبدة الذليلة .

ـ هناك شيء أقوى من إرادتي يجعلني أتبعه .

ـ هل . . هل تطورت العلاقة بينكما .

رجاء تهز برأسها وعيناها تركض فيهما وعول مذعورة . يسقط مافي يد سامية من صحف وأشياء . تستلقي على كرسي عريض وتتنهد :

ـ نذهب إلى الطبيب إذن . .

ـ أنا خائفة .

ـ تخافين ؟ مم ؟ من الفضيحة ؟ أم أن لديك الأمل أن يتزوجك سيادة الدكتور ؟

تعود رجاء إلى بكاء حاد :

ـ أليس هذا أفضل ؟

ـ لا . . ليس أفضل . . لو كان لديه ذرة حب لك لما تهرب . . ألا يعرف ماذا بينكما وماهي نتائجه ؟

ـ لكنك وعدتني أن تتحدثي معه في الموضوع .

ـ قلت هذا لتهدئة أعصابك . . وقبل أن أعرف ماعرفت. لن أجعل منك خرقة يتمسح بها عندما يريد . إنها كلمة واحدة إما أن يصحح الخطأ وإلا فلكل منكما دربه.

ـ تقصدين قطع العلاقة بيننا ؟ علاقة الحب ؟

ـ وهل تسمين هذه علاقة حب ؟ إنها قذارة .

تصرخ رجاء :

ـ سأذهب إليه بنفسي . . سأشرح له كل شيء . . يمكن أن يعطف علي . اتركيني ياسامية . أرجوك .

تحاول رجاء أن تخرج . تدفعها سامية إلى الأريكة ثم تصفعها بقوة :

— الآن يعود لك عقلك أيتها المجنونة .

تصاب رجاء بنوبة حادة من البكاء تحس معها أنها منهكة . تأتيها سامية ببطانية ومخدة من الريش . تساعدها على خلع حذائها وتمددها على الأريكة . ومن غرفتها تتحدث بالهاتف . ترهف رجاء السمع :

— لكن رجاء تحبك يادكتور . . فتاة بريئة وبسيطة ولا تعرف شيئاً في الدنيا .

— تقول إنك لن تراها ؟ لماذا ؟ هل أخطأت معك ؟

— خطؤها مع نفسها كان من أجلك . . فتيات كثيرات يهبن أنفسهن من أجل الحب فقط .

— إذن فأنت لاتريد الزواج منها ولا رؤيتها ؟ حسناً . . وإذا قلت لك أن رجاء . .

تصرخ رجاء مقاطعة :

— لاياسامية . . . أرجوك . . لاتقولي له شيئاً . . اقفلي الخط .

تعيد سامية السماعة وتجلس إلى جانب رجاء التي تنتحب . . تمسك برأسها . . تقبلها تمسح فوق الجبس الذي تكوم فوق الذراع المكسورة .

— سامحيني يارجاء . . كنت قاسية معك . . لكنني أحبك وأعرف الرجال أكثر منك .

تغص رجاء بدموعها :

— نذهب إلى الطبيب . .

سامية تحفر بأظافرها فوق الجبس حروف اسم . رجاء تنهض مسرعة :

— كلما أسرعنا كان ذلك أفضل . .

* * *

ثلاثة أيام مثل كابوس . . رجاء تتمطى في الفراش شاحبة اللون مهدودة كما لو أنها مريضة منذ شهور . . تتملك نفسها لتغتصب ابتسامة صغيرة تمنحها لسامية مع كثير من الإمتنان . تشعر بما يشبه الهزيمة :

— إذا كنت قد استرحت يمكن أن نذهب إلى بيتي في بلودان . . وهناك نتوفر لك الراحة .

— هل تظنين أنني لن أصاب بأذى ؟

— وما الأذى ؟ أنت شابة . . وهذه عملية بسيطة كما رأيت . .

تقصدين أملك ؟ ستظن أننا في المستشفى من أجل يدك . . ألم تتوهم ذلك يوم العملية ؟ هيا . . . ضعي معطفي الأبيض ولنذهب . . تبدين به مثل قطة برية .

تتنهد رجاء :

— قطة بدون مخالب للأسف . .

— القطة الحقيقية هي التي تتسلح بمخالبها قبل أن أن تقع فريسة . .

تضحكان . . تنطلقان في طريق جبلية جميلة . رجاء في المقعد الخلفي وسامية تحاول أن تثير حولها شيئاً من المرح .

— هل كنت سائقة عند أبيك ؟ ها أنذا عليك أن تتفقدي لي أشيائي إلى جانبك : الصحف والترانزستور وعلبة الورق .

— سامية . . ألا تلاحظين هذه السيارة التي تلاحقنا ؟

— أتظنين ذلك ؟

— ولم لا ؟ سائقة حسناء . .

تضحكان ، تخفف رجاء من همومها :

— هذا الشاب . . لعلي رأيته مرة لا أدري أين ؟

— سأخفف من سرعتي حتى أراه في المرآة .

— أنا خائفة

— مم تخافين ؟ هل نحن لصوص أم مجرمون ؟ أمرنا طبيعي جداً .

تخفف سامية من سرعة السيارة ثم تقف بشكل مفاجيء . تصرخ رجاء فقد ظنته حادثاً .

عندما تقف سيارة بمحاذاة سيارتهما ويطل وجه شاب :

— العجلة الخلفية توشك أن تهبط . هل أقدم مساعدتي ؟

تنظر إليه سامية بحدة . . تهبط من السيارة كأنها لاتصدق ما يقول :

— معك حق . . لكنني لا أقدر على تغييرها .

— عرضت مساعدتي . . أم أنك ترفضين ؟

ــ لامجال للرفض . آسفة لأنني سآخذ من وقتك .

أثناء تبديل العجلة سامية تقول :

ــ إذن . . فأنت ابن القانوني المشهور ــ معروف عبد الرزاق ــ إنه أكثر الأساتذة احتراماً بين طلاب الجامعة .

ــ وهل تعرفينه ؟

ــ معرفة بسيطة فأنا في كلية الآداب . هل تعيش معه؟

ــ لا . . إنه منفصل عن أمي ومتزوج من جامعية كانت تلميذة له .

تتدخل رجاء :

ــ أعتقد أننا التقينا في مكان ما .

ــ أظن أننا إلتقينا في نادي الفن والموسيقى . . كنت مع أبيك . . أليس كذلك ؟

يشحب وجه رجاء . . تتذكر أنها كانت مع الدكتور سالم . يظنه أباها . . حسناً .

ــ هل تحبين الموسيقى ؟

سؤاله يخرجها من شرودها .

— جداً . آه . . تذكرت . . كنت تعزف على الكمان ولكني عندما رأيتك في السيارة استبعدت أن تكون أنت واستبعدت أكثر عندما قلت إنك محام وأبوك القانوني الأستاذ — معروف —

— وماذا في ذلك ؟ ألا يمكن أن تكون لي هواية إذا كنت محامياً ؟

— أقصد الناس يتشابهون . .

تتدخل سامية :

— قل لنا ياسيد عرفان . . منذ متى وأنت تعزف ؟

— منذ كنت طفلاً . . كانت أمي تشجعني . . وكنت أتلقى دروس البيانو في مدرستي منذ السادسة ولكني بعد ذلك أحببت الكمان ولازلت حتى الآن .

باهتمام تقول رجاء :

— ألا يتعارض هذا مع عملك ؟ أقصد . . هل تجد وقتاً للعزف ؟

تسأل سامية بفضول :

— هل ألفت قطعاً ما ؟

— قليلاً ما ألفت . . عندما كنت في المراهقة وضعت قطعة أسميتها — القطة الحزينة — .

— أنت موهوب إذن .

ويضحك الثلاثة .

وإذ تصبح السيارة جاهزة للانطلاق يقول عرفان :

— هل أستطيع أن أنقل الآنسة بسيارتي حتى لاتتعرض لمتاعب جديدة ؟

سامية ترحب بالفكرة إذ تلمح شعاعاً من الفرح في عيني رجاء وكذلك إعجاب عرفان برجاء .

تقول سامية : أوشكنا أن نصل . تستطيع أن تستريح معنا قليلاً . . بيتي صغير وجميل وكل شيء فيه مهيأ لمرة قادمة . . سترى . حتى آلة التسجيل .

— لاتهتمي . سأعزف أنا .

يقول عرفان ذلك بحماسة وتسأل رجاء :

— وهل معك الكمان ؟

— طبعاً . . هل يفارق الحبيب حبيبه ؟

تخجل رجاء . . لاتدري لماذا . . أما سامية فتسأل :

— هل لأسرتكم بيت في الزبداني ؟

— نعم . . لكنه ليس على استعداد كاف . . شبه مهجور . أنا لا آتي كثيراً في الصيف .

رجاء تسرح بصرها فوق الجبال بعد أن وضعت وسادة صغيرة لتريح ذراعها المكسورة . النافذة العريضة تغرق الغرفة بضياء مبهر . سامية تبحث عن شراب النعناع وهي تقفز وتضحك وتحاول أن تخرج رجاء من صمتها :

— هيا . ساعديني في إعداد مائدة صغيرة . معنا جبن أبيض . وخبز . ومعلبات . . إياك أن تخطيء ياعرفان بين قطعة الجبن ويد رجاء في الجبس ألا تبدو كقطعة جبن كبيرة ؟ .

— لكنه جبن قاس . . أليس كذلك يارجاء ؟

رجاء تبدأ تخرج من شرودها :

ـــ هل يخاطبني أحد منكما ؟

يجيب عرفان :

ـــ كنا نتحدث عنك . بل عن ضماد يدك الحجري هذا . هل تسمحين بأن أوقع بامضائي عليه ؟

تقول سامية :

ـــ أنا حفرت حروفاً . . وسأكتب قصيدة . . ولعلك تفكر بنوتة موسيقيّة ؟

ترد رجاء بمرارة :

ـــ إنها صفحة بيضاء فلم لا . . يدي صفحة بيضاء أليس كذلك ؟

تقول سامية بلهجة واثقة :

ـــ أظنها كذلك يارجاء . . وسعيد من سيخط حروفه فوقها .

ينظر عرفان إلى سامية نظرة طويلة . يخرج إلى سيارته ويأتي بالكمان ، تقول سامية بلهفة :

ـــ ألا تدخل القطة من الباب الخلفي ؟

يجتاز البهو . رجاء أمام النافذة ، يخرج من الباب الثاني للبهو قرب المطبخ . يلحق برجاء تقف أمام مرآة صغيرة تسوي شعرها :

— آه . . إنها اليد اليمنى . . مشكلة ، مر أسبوع ولم أتزين . . كيف ؟

— أنت جميلة دون زينة .

يقترب منها تنبعث رائحة أنوثة وحشية . بلا شعور تمد يده إلى شعرها الحريري . يلامسه بلطف وحنان . تنفر رجاء مذعورة .

تنادي سامية وهي تبتسم : — هل أدخلتما القطة ؟

ولا يأتيها جواب . تخرج من الباب الرئيسي . تدور حول الحديقة الصغيرة حتى الباب الخلفي . تحمل القطة وهي تخمش بأظافرها وتموء . ترجع فتجد رجاء مستلقية على الأريكة في البهو وعرفان إلى جانب النافذة يبدأ العزف .

— اعزف لنا من ألحانك .

— الآن يضطرب في قلبي لحن . . ربما يسيل على أصابعي . . سأجرب . .

رجاء تقول :

— هل تخاطبني ؟

تقول سامية ضاحكة :

— طبعاً يخاطبك . . أنت ساهمة أكثر مما يجب .

— سوف أسمي اللحن — نزهة — ما رأيك يارجاء؟

يعزف عرفان . . والإثنتان تنصتان . . لاتلبث رجاء أن تنفجر ببكاء .

تقول سامية وهي تلطف الجو :

— يبدو أن نزهتك شتائية . . ذات عواصف ورعود وأمطار .

تستسلم رجاء للبكاء أكثر . لم تخفف عنها نكتة سامية. . بل على العكس .

أما عرفان فقد توقف عن العزف . يقترب من رجاء :

ـــ هل أسأت إليك يارجاء ؟ أنا لم أفعل سوى أن عبرت عن شعوري .

ـــ وهل تظنني سأقتنع ؟

ـــ شعوري صادق نحوك . . أعجبت بك منذ رأيتك لأول مرة في نادي الفن والموسيقى . . واليوم . . عبرت لك عن حبي . .

ـــ أنا أرفضك . . وأرفض حبك .

تتدخل سامية كأنما هي تحسم موقفاً :

ـــ سنشرب القهوة بسرعة . ثم نرحل . . وأفضل أن أترك سيارتي هنا ونعود معك ياعرفان . ما رأيك ؟

ـــ هذا سرور لي . .

يرد عرفان بامتنان .

في الطريق والمساء رائع . . إلتزم الثلاثة الصمت . . رجاء إلى جانب عرفان وسامية في المقعد الخلفي . . سامية تقول فجأة :

— هل أطلقنا القطة ؟ كانت محبوسة في المطبخ .

يجيب عرفان .

— أنا لم أفعل . . ولا أظن رجاء أيضاً ، هل نعود لنتأكد ؟

سامية ترد بسرعة :

— لامانع . . وسندور حول الجبل ونعود من الطريق الأخرى .

ينتهزها عرفان فرصة :

— وأمر على بيتنا لدقائق . . أريد أن أضع فيه بعض الأغراض .

ينزل عرفان ثم يعود مسرعاً وفي يده رزمة ملفوفة بورق أبيض كان يضعها تحت المقعد الخلفي . . تلاحظ سامية ارتباكه :

— وهل هي أشياء تحتاج إلى مخبأ ؟

يقول ضاحكاً :

— أنا أمزح . . مجرد أشياء عادية لكنني أخبئها من أصدقائي .

يلتمع بريق في عينيه وتحس سامية أن في الأمر سراً .

* * *

في الليل تعاتب رجاء سامية :

— كنت أفضل لو اختصرنا الطريق . . تضايقت منه :

— لماذا ؟ هل أزعجك بشيء ؟ أنا وجدته لطيفاً . . وكان اهتمامه بك واضحاً .

رجاء كأنما تحاصرها حيرة سؤال كبير :

— سامية ، هل يعبر الرجل بالجسد عن الحب ؟

— قد يعبر عن الحب . . وقد يعبر عن الشهوة أيضاً .

— ومن أين لنا نحن النساء أن نعرف ؟

— إنه الإحساس يارجاء . المرأة التي تملك أنوثة حقيقية يصدقها إحساسها .

— هل تريدين الصراحة : أحسست اليوم أن عرفان وحش .

— أعتقد أن إحساسك الآن غير دقيق فتجربتك مع

الدكتور سالم لاتزال تؤلمك . . توجهك . . تطغى على الأشياء من حولك .

— كيف عرفت ؟ كان وجه سالم طوال اليوم معي .

— لاتدعي هذه التجربة تحطمك يارجاء أنا أنصحك . إذا تمثلت رجلاً ما في كل الرجال فمعنى ذلك أنك تقتلين حياتك :

ويقع بينهما الصمت . وكل منهما تغرق في أمواج قلقها وحيرتها .

سامية تبحر في الماضي . طفولتها وشبابها الأول . . الطفولة واضحة مرسومة في أعماق ذاكرتها كما لو أنها حفرت فيها . . أما الشباب فيبدو باهتاً رجراجاً لا ملامح له ولا سمات حتى يأتي كريم وتبدأ حياتها معه . أتراها لم يكن لها شباب مثل كل الفتيات ؟ أتراها هي التي مزقته ورمته إلى رياح كريم تعبث به كما تشاء ؟ هل ضيقت نفسها بذلك ؟ . . تحن إلى أن تعيش تجاربها . . حماقات الصبا . . حتى ولو تعذبت كما تتعذب رجاء الآن . . حتى

لو تحطمت فمن نار التجربة يصهر البشر . . وأن تظل وراء زجاج تراقب الحياة ليس معناه أنها تعيش . . ليتها تحطم هذا الزجاج . . وتدمي يداها . . تتناثر سكاكين صغيرة تنغرس في جلدها . وهي تحاول . . وتحاول . . ومنذ ذلك الحلم العجيب الذي روته لها أمها قبل أن تموت وهي تتمنى لو تثور الزوبعة . . لو تجرفها في وديانالمجهول .. حتى ولو أصبحت المرأة ذات الرأس المقطوع .

أبوها عزلها عن العالم . . جعلها تعيش طفولة ناعمة مترفة . . لم تعرف يوماً أنها شردت في البساتين كما يفعل الصغار . . ولا تسلقت جبلاً أو شجرة . . أو أمسكت بيدها قطة أو عصفوراً . حتى الفراشات لم يشجعها أحد على لمسها . أما تلك الجنادب الزيتية الملونة فقد كانوا يربطون قدمها في خيط ويجعلونها تطير وهي ممسكة بالخيط . . حتى إذا حطت على يدها أو كتفها صرخت وأفلتت الخيط فتطير منها وتقف تنظر إليها بحسرة وهي تغيب في الفضاء ساحبة وراءها خيط الدخان هذا .

كم مرة أملت أن يعود إليها الجندب أو أن تعثر عليه. . وأبداً لم يتحقق هذا . أبوها غمرها بالدمى والألعاب الفاخرة الأنيقة . . وداثماً كانت تبعث في نفسها الملل . وتهرب إلى بيت الجيران حيث — نهلة — الفقيرة اليتيمة التي تصنع دمية لنفسها من خرق بالية . . أي سعادة كانت تغمرها عندما كانت نهلة تتركها لترسم للدمية حاجبين أو شفتين أو رموشاً . . كانت تحس بمتعة تفسرها الآن بأنها متعة الخلق والإبداع . وعندما كانت — تقايض — نهلة على دميتها هذه بالدمى الشمعية الجميلة كانت أمها تزجرها . . وتوقع عليها عقوبة الحرمان من المصروف اليومي . العقوبة لم تكن تؤلمها . . فما أروع أن تقنع نفسها أنها بلا مصروف حتى تبدأ جولة تفتيشية في مخابىء البيت وخزاناته عن الحلوى والشيكولاته والملبس . . إذ ذاك كانت تجد لذة عظمى في أن تأكل ما تريد . . وتحشو جيوبها منه لتهرع إلى — نهلة — فتطعمها ، لم تكن تشعر بأي ذنب . . ولم تصدّق أن هذه سرقة كما كانت أمها تقول . الآن تعرف أنها روعة الإكتشاف والحصول على أشياء بعد التعب

في سبيلها والمخاطر التي تحول دونها . عندما وقعت عن السلم في اليوم الوحيد من حياتها الذي تقع فيه كان بسبب عصفور التجأ إلى أعلى النافذة . . وقررت أن تقبض عليه. . ولم تجرؤ أن تطلب من أحد أن يحقق لها أمنيتها . ورفعت السلم الخشبي بشكل مغلوط . . وتسلقت بخفة . . لكنه انزلق معه وكان هذا الجرح الذي لايزال أثره فوق جبينها . كلما لامسته اقتنعت ما معنى أن يدفع الإنسان ثمن ما يريد أن يكتشف . . مايريد أن يحصل عليه . .

تشعر سامية أنها توشك أن تختنق . ترسو إلى القاع . قاع ذكرياتها القريبة والبعيدة . . تحاول أن تفتح عينيها على اللآلىء وجزر المرجان . . والأزهار الصخرية . . يندفع نحوها وحش بحري هائل تكاد تصرخ .

تفيق مذعورة فقد استسلمت للنوم وهي لاتزال فوق مقعدها . . تقوم إلى خزانتها . . تحاول أن تخرج صوراً وأوراقاً هي رسائل ومذكرات. . لماذا لاتحرق هذا الماضي كله . . لماذا لاتتخلص منه وتستريح . . حتى الأوراق

التي طلبت من أمها أن تكتبها لها ماذا ستفيدها ؟ ماذا ستعطيها ؟ لا شيء . . سوى مزيد من القلق والضياع والتوتر . هذه الأوراق بالذات لاتجرؤ على لمسها . . كأنما ساهمت بطريقة ما في موت أمها . الموت هو أن يموت الإنسان ببطء في ماضيه لكنه إذا بتره وخلق حاضراً جديداً فمعنى هذا أن يعيش من جديد . . فلتبتر هذا الماضي . . من أجل أن تعيش مرة أخرى من جديد.هل هي قادرة ؟ هل تملك الجرأة والإرادة ؟ عليها إذن أن تترك كل شيء . حتى بيتها وثيابها وربما اسمها وعنوانها أيضاً . عليها أن تترك زوجها فوق ذلك فهو قد أصبح جزءاً من هذا الماضي لكنه الجزء الذي لايبعث فيها الرعب . . . ولا البرودة . . . ولا الألم لاحساسها أنها يمكن أن تقطعه عنها وتنساه .

تحمل سامية كومة كبيرة من الذكريات . . تركض بها في البيت كما لو أنها في غابة . تصل إلى المطبخ . تضعها في وعاء نحاسي كبير قبل أن تضرم بها النار تفيق رجاء تفاجئها :

– ماذا تفعلين ياسامية ؟

– أوراق قديمة أريد أن أحرقها . ارجعي إلى فراشك .

– لكن بينها صوراً جميلة . . . ورسائل . لن أدعك تفعلين .

– هي ملكي وأنا حرة بها . سأحرقها .

تحاول رجاء أن ترجعها عن عزمها: تتشبث بثوبها . . تشدها إلى الوراء . لكن سامية ترمي كبريتاً مشتعلاً فوقها ثم تخرج رجاء من المطبخ وتمضيان .

تهدأ سامية إلى نوم قسري . تتسلل رجاء إلى المطبخ . تلقي بماء فوق الأوراق . تشعر أنها تستريح . عندما تعود تكون سامية قد نامت .

* * *

الفصل السابع

بعد منتصف الليل يرن جرس الهاتف . . كان كريم على الخط . . عبارات قليلة . . والصوت عن بعد مخنوق . . وما يشبه الدمع في حلقها مخنوق . . بسرعة تفهم أن كريم سيعود . . وبأقرب وقت . تغلق الهاتف . ورأسها يدور . عائد إذن يا كريم . . عائد إلى البيت المهجور . . والزوجة الممزقة . تظل عيناها مصلوبتين في السقف وأفكار كثيرة تفترسها . لم تقرر بعد ماذا سيكون من أمرها مع كريم . انتهت أيام المنفى . . والطائر المهاجر يفكر في عشه من جديد . أي عش هذا الذي بقي . . . أعواد هزيلة تذروها رياح الفراق ويحصدها قدر قاس عنيد . كيف سيعيشان في بيت واحد ؟ كيف سيضمهما

فراش واحد ؟ كيف ؟ كيف ؟ هذا مالم تتصوره مرة أخرى : جدران صلبة تقف بينها وبين كريم . . وإمكانية الحياة معاً بعد هذا الانفصال تبدو شبه مستحيلة : صحيح أنه كان انفصالاً قسرياً لكنه ترك آثاره العميقة وهكذا كثير من الأمور . . تسوقنا إليها الظروف ونرغم عليها . نعتقد انها لن تؤثر فينا لكنها بعد ذلك تحفر مجراها العميق في حياتنا . لم تحاول أن تقدر مشاعر كريم ورغباته . . فماذا تغير موقفها ؟ لاشيء . . وكريم ظل كما هو في معاملته لها . منذ زواجهما لم يتغير . . حتى في أدق الامور لم يتغير . اسلوبه واحد . . نظرته اليها واحدة . يخيل اليها احياناً انها لاتزال في نظره كما كانت يوم تزوجها . الحقيقة انها لم تعد هي . . الشابة المندفعة . . والمترفعة بآن معاً . هي الآن امرأة اخرى ناضجة وواعية لكل ما حولها . . علمتها الحياة أكثر مما يتصور . . وطورتها أيضاً — هل يستطيع أن يدرك كل هذا ؟ الماضي لم يعد

يعنيها. اقتلعت رواسب ماضيها وأطعمتها للريح . . تجربة الدراسة الجامعية وحدها وهو بعيد عنها فكت أغلالاً كثيرة حول عنقها . . حول عقلها . . كم الحياة رحبة . . . وكم هناك أنماط من الناس .. من الرجال خاصة . وألوف الكتب يجب أن تقرأ . . وألوف ألوف الأفعال يجب أن يقام بها . أن تغرف من ينابيع الحياة . . وأن تتنفس بحرية . ما أروع أن يكون المرء حراً . من أعماقه كالنبع والنور والهواء . هل كان عليها ألا تمتص كل هذا وألا تتفاعل مع التحولات ؟ مزقت الأستار عن أمور كثيرة كانت بها مخدوعة أولها السياسة . والآن . . إنها ترى بوضوح — يمكن أن ترزقي بولد وعند ذلك ستتغير الأمور — هذا ماقالته هاجر . . ما الذي سيتغير ؟ لاشيء . .

سيظل كريم هو كريم . . لكنها ستحمل عبء إنسان جديد تكون هي سبب تعاسته . . نداء أمومتها أصبح متقطعاً لاهثاً بين أشواك قلبها الدامي . في صدرها طائر يرف كلما فكرت أن تضم طفلاً لكنها لاتدري كيف ستعتني به .. كيف سيلتصق وجودها بوجوده وهي التي لم تعثر

لنفسها على حدود لهذا الوجود . — الأمومة هي الشيء الحقيقي الوحيد في العالم — هذا ما سمعته من إحدى أديبات عصرها التي لم تعترف بشيء إلا بالأمومة لتتفحص فرصة الأمومة . . ولتجربها . إنما كيف ؟ . . . ورجوعها إلى كريم يتأرجح بين الممكن والمستحيل ؟

تحس أنها تضيق بالحياة . . بالهواء الذي يحيط بها . . وبجلدها أيضاً . تخرج إلى الشرفة . . تشعل سيكارة . تفكر . . نبرة كريم في الهاتف قوية وواثقة وصميمية رغم تقطع الصوت وتعثره . صوته انتشر في البيت مثل دخان . هذا الدخان يطبق على صدرها . . يريد أن يخنقها . قال لها مرة : لاتحاولي أن تستعدي لحضوري . . سأعود فجأة . . كما ذهبت . . وهكذا أحس أنه لم يمض على غيابي إلا أيام — . أيام ؟ هذا سخيف . حتى أثاث البيت حفره الزمن بأصابعه . والأم هنية ماتت . . وحوادث كثيرة وقعت . وتغيرت أشياء . حتى المدينة لم تعد كما هي . أبنية ارتفعت . وشوارع شقت . وأشجار نمت . . ومدارس جديدة أصبحت في الحي — لا الحي حي ولا الجيران

جيران ــ . . وماذا تقول عن الأعماق والنفوس والقلوب.؟ رجاء أصبحت فريسة حب خاطيء . . وجابر شيخ يعود للمراهقة . . والذين نبت ريشهم يحاولون أن يطيروا . . . وهي . . هي نفسها لم تعد هي .

لايفارقها إحساس المحاصرة . هل تحرق أصابعها من أجل لحظة الانتظار الغبية ؟ هل تظل مصلوبة هكذا . . ربما لأيام إلى أن يدار المفتاح في الباب ويبرز كريم . . ثم يتعانقان . . مثل كل مرة كانا فيها يلتقيان . . وينتهيان إلى السرير من جديد .

لا . . لن تكون الجارية التي تنتظر أن يأخذها السيد العاشق إلى القصر . . لم كان يختصر لقاءاته بها في بيروت ؟ لم لم يأت إلى دمشق لأيام ولو معدودة وكان يوهمها أن رجوعه مخاطرة ؟ هل تغير شيء الآن ؟ لم يتغير شيء . . آخر مرة حاولت فيها أن تذهب إليه في بيروت وجدت تذكرة على الحدود تمنع دخولها . . وكانت مناسبة لأن تتقصى عن رجوعه إلى الأراضي السورية . . لم يكن شيء

بحقه . تربط بين الأمرين . . وبقوة . . ولاشيء ينفي عن ذهنها هذا الترابط .

هو الذي لايريدها أن تذهب . . وهو قادر على الرجوع لكنه لايرجع . وأحست أن في الأمر سراً . . وانقطعت عن زيارته .

أحد أصدقاء كريم قال لها : في اللحظة المناسبة يعود كريم . . خلافاتنا ليست مبدئية وإنما هو التطبيق . . المهم ألا نخسر معركتنا . . عندنا خيول لكل رهان . .

أترى كان كريم قادراً على أن يعود ولم يعد ؟ هل تعمد أن تظل بعيدة عنه في مرحلة دقيقة من حياته السياسية ؟ كل شيء جائز . . آخر مرة إلتقت فيها بكريم رأته مع أحد الضباط السوريين في مطعم منعزل صغير . . المطعم الذي يفضله . . فاجأتهما . . وكان يقول لها إنه ليس على علاقة جيدة بهذا الضابط بالذات . وتساءلت : هل هما صديقان أم عدوان ؟ — السياسة ليس فيها عداوات أو صداقات — . . وأحياناً يضطر السياسي لأن يكون

بهلواناً ــ وضحكت لسذاجتها . . لسذاجة الجواب ، ولم تعلق على الحادثة .

في ذهنها تبحث عن أسباب حقيقية لترك زوجها لبلاده . لاتعثر على أي سبب مقنع . هل هو مزيف ؟ إن لم يكن هو . . فلابد أن هناك ما هو مزيف .

ليزيفوا . . وليتزيفوا . أما هي فان لم تستطع تعريتهم فلا أقل من أن تظل جوهراً صافياً . . أو أن تعيد لذاتها هذا الجوهر الصافي . الناس يتزيفون أحياناً دون أن يشعروا ، رجاء البريئة تقف على عتبة أن تصبح عاهرة صغيرة . . والخالة صفية أفرغت سمها فجأة في أمها وهي في حالة ضعف وانهيار فقتلتها . . وجابر . . كشف قناعه عن مراهقة جنسية . . وسالم ؟ أليس جزاراً لايفرق بين جسد المرأة في الفراش أو فوق المشرحة . وباسيل . . وعرفان. . و . . عالم يضج بالمزيفين .

وكريم قبل هؤلاء جميعاً . .

لم فعل ما فعل ؟

تضحك مثل مجنونة . اصبع اتهام كبيرة تصوب بضياء فوسفوري نحوها . تفزع . . الاصبع واضحة في هذا الظلام . أليست هي أيضاً مثلهم مزيفة ؟

صراخ كبير في أعماقها . لا . . لم تعد مزيفة . . على الأقل تحاول ألا تكون مزيفة . منذ ذلك الصباح الذي روت فيه الأم هنية الحلم . . منذ ذلك الصباح . أعصابها تصبح مشدودة كوتر . تود لو تسمع موسيقى صاخبة . لو تضحك عالياً وترقص وتغني . لو تفعل أي شيء بعنف . . بضجيج .

تقرر أن توقظ رجاء وتأخذها في نزهة ليلية . أو تتجولان بلا هدف . . . لا . . تخرج سيارتها وتقودها بسرعة كبيرة لتفرغ ما في أعصابها من توتر . . تفتح الباب بقوة وتنادي : رجاء . . . رجاء . .

رجاء مستغرقة في نوم عميق . تحس بالإشفاق عليها . منذ أمد طويل لم تنعم رجاء بمثل هذا النوم . لتدعها . من يدري ماذا سيقع لها في الغد ؟ فكرة الخروج تبدو لها باهتة ويداها ترتجفان . الهاتف من جديد . هل هو كريم من

جديد ؟ مادام سيأتي فليأت الآن . . الآن وليضع حداً لعذابها . لكنه لم يكن كريم . . وكانت مفاجأة باردة لها .

* * *

فادية تعود متأخرة إلى البيت بعد سهرة طويلة . من عادتها أن تدخل متلصصة حتى لاتضبطها أمها ، فادية تعودت هذا الوضع . . والأم المسكينة لم تتعوده . حاولت بشتى الوسائل أن تثني ابنتها الطائشة عن هذا فلم تفلح . حتى الدموع لم تؤثر وفادية ابنتها الوحيدة وهي المسؤولة عنها بعد موت أبيها . وفادية كبرت . . وتعتقد أن من حقها أن تعيش كما تريد فقد بلغت العشرين . وإذا كان هذا يتعارض مع واقع أمها فليس ذنبها . لم لم تتزوج أمها ثانية ؟ لم تحملها أعباء وحدتها وانقطاعها عن الزواج ؟ ما أيأس حالهم . . هؤلاء الأهل يحولون كل شيء إلى تضحيات يطوقون بها أعناق أولادهم . . وأحياناً ليسيروهم كما يريدون . أمها لاتعرف شيئاً في الدنيا سوى بيتها . .

ألا تستطيع هذه الأم أن تشغل نفسها بأي شيء وتنساها لساعات معدودة ؟ فكرة الإهتمام والحنان . . فكرة النظام الذي يجعل البيت يسير كالساعة. فكرة النظافة والترتيب. كم يبدو لها أن تبعثر ثيابها عندما تعود ليلاً . . وأن تترك الصحون إلى جانب السرير . ولكن . . ما أسرع أن يعود كل شيء إلى مكانه بجولة واحدة من أمها ولو كانت ليلية . أمها قلقة عليها جداً هذه الأيام . هل هي تخاف ؟ مم تخاف ؟ من عرفان ؟ ، تعلم أنها قطعت صلتها به نهائياً . صحيح أن لها صداقات أخرى لكنها لاتبعث على الخوف . سطحية ووقتية لملء الفراغ لا أكثر ، إنها الآن موظفة تتعب . . وتكسب . . ويحق لها أن تتسلى . . وأن تلهو . فماذا وهي ترفع عن أمها أعباء كبيرة من مصروف البيت وتنفق على نفسها ؟ بم تختلف عن الفتاة الأوروبية إذن ؟ وأمها تقول لها : الأوروبية شيء . . ونحن شيء آخر . إن لك أهلاً . . وترد ضاحكة : وهل الأوروبية مقطوعة من شجرة ؟ وأمها تتحرق :

— أهلها أناس مختلفون عنا .

— مجتمعهم غير مجتمعنا . .

— الفتاة يجب أن تظل مثل الزهرة حتى تتزوج .

وتعود كاليائسة وهي تتمتم : لافائدة من الكلام . . لافائدة .

فادية تعود هذه الليلة وقد ملت عشرة أصدقائها . . وسهراتهم . . ولهوهم . . وبصراحة مع النفس أنها تتوق للهدوء . . وأن يكون لها بيت وزوج . سمير هو الذي حول حياتها من حديد مصهور إلى شكل قالب واضح .

في الشتاء الماضي أمضوا سهرة رأس السنة باطار مثير . . في فندق ناء فوق قمة جبل . كان فندق السعادة في بلودان. . وتعرفت إلى سمير . . كانت ليلة عجيبة . . المصيف خال والفندق لا أحد فيه سواهم . وضجوا . . وغنوا . . وأكلوا وشربوا . . وسكن سمير أحداقها . . وسرق الضحك من شفتيها . . وظلت تحن إليه حنين عصفور إلى عشه الضائع . . عندما وضع لها المعطف فوق كتفيها الراعشتين ودت لو يضمها . . لو تريح رأسها إلى كتفه . . وينتهي

كل شيء . لكن سمير بدا جامداً كصخرة ولم يحاول حتى أن يودعها .

كل أسبوع كانت تحاول أن تذهب مع – شلة – الأصدقاء إلى بلودان . . لكنها لم تعثر على سمير . . وقيل لها أنه يدرس . . ولن يعود إلا مع بداية الصيف . ومنذ أيام فوجئت به يزورها في بيتها . وجن جنون الأم . . وحاولت طرده . . وهي تستعطفها ودخلت لتحييه . . وخرجت بانطباع جيد عنه . شاب قروي بسيط يكافح من أجل أن يتعلم ومختلف تماماً عن أصدقاء ابنتها المائعين . ولما قال لها أنه يسكن في الجبل ولا يفارق غرفته في المدينة أثناء الدراسة خجلت أن تسأله كيف تعرف بابنتها وماذا يريد منها . في اليوم الثاني انتظرته فادية طويلاً . . لكنه لم يأت . . كان حقاً يزورها من أجل أوراق له في المؤسسة التعليمية حيث تشتغل . وأحست أنها خدعت.هذا القروي المغفل . . ماذا يظنها .

لابد أن تجعله يرضخ . . لابد أن تروض الحصان

الجامح فيه . جذور عرفان كانت قوية في شرايينها . . ومع ذلك اقتلعتها مثل طحلب . وأبحرت في الأمل نحو سمير . . لكنها تعذبت . وانتظرت . . دون جدوى ثم انقطعت عن اللهو والسهر . . وحاولت اللقاء معه . . ثم فشلت . . واليوم لم تعد تطيق حتى نفسها . . هل يملك الحق في أن يغير لها سلوكها ؟ رجاء قالت لها : يملك هذا الحق إذا كان يحبك . وأفضت لرجاء بكل شيء . . وحدثتها رجاء عن مغامرتها مع سامية في المصيف . . وأحست أنها عصفور يحن إلى الفضاء والشمس والشجر . . وإن الحب في الطبيعة طعماً يختلف عنه في الكهوف والسيارات والبيوت . عرضت على رجاء أن تذهب معها إلى بلودان . . وأعطتها رجاء شعاع الأمل عندما قالت لها أن ابنة خالتها سامية تملك بيتاً هناك . . وأنها ستحاول أن تقنعها بالذهاب وتذهب معهما . . واتصلت مرات كثيرة برجاء . . بل ببيت سامية . لم يكن هناك أحد . . وحل المساء . . وخرجت مثل تائهة تدور في الشوارع . . وهاهي عادت والفكرة تضغط على رأسها مثل كابوس . هل يمكن

أن تنتظر حتى الصباح لتقطف وعداً بالذهاب ؟ لم لاتفعل الآن ؟ .

وعلى الرغم من أن الوقت متأخر . . ومتأخر جداً فقد اتصلت ببيت سامية . . وكانت مفاجأة باردة لسامية .

* * *

لم تستطع سامية أن تخمن من الذي سيتكلم معها في ليل متأخر . . كانت فادية . . وظنت سامية أنه مزاح ثقيل لا أكثر . . وقطعت المكالمة . . وقطعت الحرارة عن الهاتف . . وارتدت إلى فراشها باعياء . . المهم أنه ليس كريم .

عند الصباح يرن جرس الباب . تقوم سامية متثاقلة . كم تدعو ألا يكون كريم . . فهي في أسوأ حال . . مثل فرس بعد نهاية شوط خاسر . . تطل فادية :

ـــ أنا . . أنا فادية توفيق . . هل تذكرينني ياسيدة سامية .

ـــ فادية توفيق . . التي . .

ـ التي حادثتك ليلاً في الهاتف . . والتي أخذت محفظتها خطأ في إحدى المناسبات واتصلت بك من أجلها ولأعيد الك محفظتك .

ـ كان هذا في النادي . .

ـ بالضبط . .

ـ تفضلي . . هل من خدمة ؟

وتدخل بهدوء مصطنع :

ـ ظللت أسأل نفسي مدة طويلة إن كنت شككت بأني فتحت أوراقك الخاصة يوم أخطأنا في محفظتينا .

ـ والعكس صحيح . ألا يمكن أن تكوني قد تساءلت أيضاً السؤال نفسه ؟

ـ الحقيقة أنني لم أكتشف الخطأ إلا عندما رأيت هويتك الشخصية . كم كانت صورتك رائعة فيها . ولم أطلع على غير الهوية بالطبع . .

ـ وأنت . . أما كنت تهتمين لما يمكن أنه جرى لمحفظتك ؟

ـ لا . . ماكنت لأهتم ، ليس عندي ما أخفيه . أنا صريحة . . ونوافذي كلها مفتوحة سواء أعجب الناس أم لم يعجبهم .

ـ وهل تظنين فيّ العكس إذا كنت تعتبرين هذا أفضل مزاياك ؟

تضطرب فادية :

ـ لا . . أنت مختلفة عني تماماً أنت امرأة ذات شخصية معينة .

ـ مثلاً ؟ هلا قلت لي رأيك ؟

وتبدأ سامية تحس أنها تتخلص من تعبها المتراكم . . ومن كسل النوم . وفتور الإحساس .

وفادية تقول :

ـ أنت امرأة ناضجة وعندك تجربة . . وزوجة رجل سياسي .

ـ هل لكل هذا علاقة بمحفظتي ؟

ـ أقصد . . إن محفظتي ربما احتوت رسائل غرام . . وصور . . ولا أكثر من أدوات زينة وزجاجة عطر .

ـ ألا يمكن أن تكون هذه الأشياء نفسها في محفظتي ؟

ترتبك فادية . تتركها مضيفتها تتأمل مافي الصالون وتنسحب الحمام ثم تعود ومعها القهوة وتهتف :

ـ ما أجملك . الحقيقة أنني فكرت بزيارتك بعد تلك الحادثة . . لكنها الظروف . دائماً مشغولة . . وأحس أن يومي يجب أن يكون أطول من أيام الناس بأثنتي عشرة ساعة . .

وتضحك لنكتتها وتكتفي سامية بابتسامة شاحبة فهي لم تفهم سبب الزيارة المبكرة المفاجئة :

ـ هل أستطيع أن أؤدي لك خدمة ما ؟

ـ آ . . صحيح . أين رجاء ؟ أليست هنا ؟ قالت لي أمس إنها ستنام عندك .

ـ مازالت نائمة . هل لك صداقة معها ؟

ـ ليس صداقة تماماً . كنا معاً في المدرسة أثناء الطفولة . والتقيت بها منذ مدة . . . وأحسسنا أنه يجب أن نتقابل دائماً .

ـ بسرعة . . هكذا .

ـ أنا عاطفية جداً . . ورجاء من النوع الذي يعجبني . وأريد أن أدعوها لنمضي يوماً في بلودان .

ـ في بلودان ؟ أين ؟

ـ في فندق السعادة . . الحقيقة هو فندق رائع .

سامية تفكر أن تبعد فادية عن طريق رجاء . يكفي رجاء ما تعانيه . دخول رجاء فجأة يلجم سامية . تهرع فادية فتعانقها .

ـ كيف حالك ؟ في الليل اتصلت بك لأحدثك عن مشروع النزهة . .

تفكر سامية : إذن فهي صاحبة هاتف بعد منتصف الليل . . لاشك أن في الأمر ما يمسح النوم من العيون . هذا ينفرها من فادية . تنفرد برجاء :

– ولكن . . . يارجاء يدك لم تشف بعد . . صحيح أنك أرخيت الجبس عن الكسر إلا أن يدك لاتزال حساسة وتتأثر بأي صدمة . إنها مجازفة .

– أشعر بالضيق ياسامية . ليتني أروح عن نفسي قليلاً .

– وأمك ؟ ماذا أقول لها لو سألت عنك ؟

– ألن تذهبي معنا ؟ إذن . . لن تعثر عليك أمي لتسألك .

تجد سامية من الأفضل أن تذهب معهما . ولكن . ماعلاقة فادية بهذا الفندق ؟ ولم تريد أن تذهب إليه ؟ هل هو سمير ؟ ولنفترض ذلك ماذا يعنيها من سمير ؟ . .

يبدو نوع من الضيق على ملامح فادية . إذن. ستذهب سامية معهما . فليكن . ليس لديها ماتخفيه منذ قليل قررت أن نوافذها مفتوحة . . وهكذا انطلقن . . ثلاثتهن .

* * *

في الطريق سامية تفكر في الصيف الذي مضى . .
وسمير . . وقلقها . . ومحاولتها الخروج من أزمتها النفسية. . والوجوه التي صادفتها هناك . . وأستاذ الجامعة الذي كان يواعد طالباته في عملية ابتزاز رخيصة من أجل العلاقات و . . ومن يدري ماذا هناك الآن من مفاجآت ؟

وعلى منحدر الوادي حيث يطل الفندق تحاول أن تجتاز سامية قنطرة إلى واقع جديد سوف يتفجر فور عودة كريم . . حتى هذه اللحظات المسروقة العابثة بلاجدوى لن تحصل عليها . . حتى اللقاء البرىء الفريد مع سمير لن يتم . . حتى . . .

تيار أفكارها ينقطع عندما تلاحظ اهتمام سمير الفائق والكبير بفادية . مسلوب أمامها ومطيع مثل عبد . تناديه سامية وتطلب إليه أن يلعب معها الورق . يرتبك . . يحاول أن يتهرب . لماذا لا تذهب فادية ورجاء إلى الحرج ؟ والرفيقتان لم تصدقا أن انفردتا . رجاء تشكو حبها الضائع وأملها المسلوب . . وفادية تقص حكايتها الصغيرة مع سمير :

أما سامية فترتجف أصابعها وهي توزع الورق بينها وبين سمير . هي منفعلة وهو سرح بفكره :

ــ هل تفكر باللعبة بيننا ياسمير ؟

ــ لأني لاأجيد اللعب مثلك ياسيدة سامية .

ــ اللعبة قائمة على الحظ أكثر من المهارة . من يدري ، قد يغلب المرء رغم اطلاعه على سر اللعبة أو مهارته فيها . .

ــ أو تظنين ؟ إذن . . فعندي أمل أن أكون الغالب في لعبة ما . .

ــ مثلاً ؟

ــ في الحب .

ترتعد سامية . . كانت تظنه خجولاً إلى درجة أنه لايتحدث معها بمثل هذا الموضوع أو بهذه الصراحة :

ــ لكن الحب ياسمير شيء آخر . ليس له مقياس .

ــ بل قياسه حسب صاحبه . . هذا ما أصبحت أؤمن به لأني أحب .

تتمنى سامية لو تستمر في الحديث عن الحب . . مثل فتاة في السابعة عشرة .

— الحب أمر طبيعي . . وخاصة لمن هو في عمرك .

— لكن ليس من الطبيعي أن أحبها هي بالذات على الرغم من الفروق بيننا . هي المدينة بما فيها من حيوية وتناقض . . وأنا الريف البسيط . . والعنيد أيضاً . .

— وهل تحبك كما تحبها ؟ أقصد . . هل تعرف بحبك لها ؟

— هذا ما أريد أن أتأكد منه . وهذه أول مرة أتحدث فيها عن حبي لها .

توشك أن تسأله : من هي ؟ تتمالك نفسها . هل هي المقصودة ؟ كيف خطر لها هذا الجنون اللذيذ ؟ تختصر اللعبة . . . تقوم إلى باب الصالون ومن هناك ترى رجاء وفادية تهرولان مسرعتين . تحس بدوار خفيف . يمسك بها سمير وتهب عليها زوبعة من شبابه الطافح . يعود بها إلى

الأريكة العريضة . تصل رجاء وفادية لاهثتين . سمير يهمس لسامية :

— يبدو أنك متعبة . . لماذا لاتستريحين الليلة هنا ؟

تنبر فادية بسرعة :

— أما أنا فقد قررت البقاء سلفاً . تعال معي ياسمير لأرى غرفتي . .

وتدهش رجاء . . .

ويسعل صاحب الفندق ... والد سمير — حسن الفالح — كأنما يريد أن يشعر ضيفاته أنهن لسن وحدهن في الفندق . يرسل الخادم بابريق الشاي . فادية غاضبة :

— لماذا دعوتها إلى تمضية الليلة هنا ياسمير ؟

— إنها متعبة . . ألم تلاحظي شحوب وجهها ؟

— تعتبر كل شيء كأنما خلق لها . . لعلها تظن نفسها محور العالم .

— وهل تضايقت أنت ياحبيبتي ؟

— آه . . قلها ياسمير . . أحب أن أسمعها .

ـــ ياحبيبتي .

ـــ ما أسعدني ، هل صحيح أنك تحبني ؟

ـــ منذ المرة الأولى . . أحب فيك أشياء كثيرة . . ولكن . .

ـــ ولكن ماذا ؟

ـــ هذا الموقف من سامية .

ـــ فقط ؟

ـــ يبدو أنني سأعترض على أشياء أخرى فيك . .

ـــ إذن فأنت لاتحبني .

ـــ قلت لك أنني أحبك . . أحبك ولكن أريد أن تكوني خالية من الأخطاء والنواقص .

تبتعد عنه غاضبة . يسرع إليها . يمسك بها بذراعيه القويتين . تغمره أمواج شعرها . تدير وجهها نحوه . لايجد نفسه إلا وهو يغرق في شفتيها اللاهيتين .

وترى نفسها في سهل فسيح . . وخيول تركض . .

وينابيع ماء . . ترتمي فوق سريرها متعبة لاهثة . . لكنها سعيدة . سعيدة . تقتحم رجاء غرفتها .

— ماهذا البريق الغريب في عينيك يافادية . . ثم أن خديك بلون الورد .

— أنا أطير من الفرح . تعالي لتري غرفتي . . هل سننام معاً ونترك سامية تستريح وحدها في غرفة ؟ إنهما غرفتان متجاورتان على أي حال .

الليل في أوله وكل واحدة أوت إلى سريرها . رجاء تستمع إلى بعض الأغاني العاطفية . . سامية تكتب في دفتر صغير . . أما فادية فلم تلبث أن ضجرت وأخذت تخرج من غرفة إلى أخرى وهي تتبختر بثياب نوم وردية وحذاء بيتي بكعب عال بينما صوت — العلكة — يفرقع في هدوء الليل. تهبط إلى غرفة الصالون فتنادي سمير وتطلب منه شيئاً . . وتعود . وسامية تعجب لهذا التصرف الطائش . . فتاة بثياب النوم أمام شاب غريب . وفادية لاتشعر إلا أن ماتفعله طبيعي تماماً .

تقول سامية : أشعر بالبرد . . سأغلق النوافذ . وأنتما أيضاً . . حاذرا منه .

ثم تنسحب .

تسمع عيارات نارية . تفزع . تهرع إلى غرفة فادية ورجاء :

— هل تسمعان معي ؟

— عيارات نارية أعتقد أنهم بعض الصيادين .

تقول فادية .

ترد سامية :

— صيادون في الليل ؟ لاتتحركا سأرتدي ملابسي وأهبط لأسأل .

رجاء لاتنبس بحرف وترفع الغطاء فوق رأسها . فادية تغلق النوافذ الخشبية وتندس في السرير الملاصق للجدار .

الرصاص يقترب . يزداد . يخترق الليل فيمزقه . وقع أقدام تقترب من الفندق . عند ما تصل سامية إلى المدخل الموصل إلى البهو تكون الضجة قد وضحت أمام الباب

الرئيسي للفندق . تسمع صوت سيارة ورجال يقتحمون الباب ويدخلون . تجمد في مكانها . تحبس أنفاسها . لو أنهم أرادوا أن يدخلوا إلى غرف النوم أو أن يصعدوا إلى الطابق الثاني لعبروا من الممر . يبدو أن هذا ليس قصدهم . هل تخرج إلى الحديقة ؟ لا . . . إنهم مسلحون ويمكن أن يشتبهوا بها فيطلقوا عليها النار .

تتسمر سامية في مكانها في الممر . لاتعبره إلى الصالون ولا ترجع منه . تسمع حواراً بين سمير والمجهولين . تميز صوت أحدهم . إنه عرفان . تفهم أن لديهم كميات من مواد مهربة ويريدون أن يخفوها في الفندق . تذكرت الصندوق الذي أخفاه عرفان تحت مقعد السيارة . بصعوبة تفهم ما يقوله سمير بأنه لن يخفي عنده أي سلاح أومهربات. تحس ببوادر عنف وبالإقدام تقترب من بعضها وصوت ثالث يتدخل :

— لكنك ياسمير ستساعدنا . ألسنا أصدقاء ؟

سمير يرتجف صوته :

ـ أنتم أصدقاء الفندق كنزلاء . ولا أعرف غير هذا .

تمر فترة صمت ـ تسمع خشخشة أوراق وصوت الأول يقول :

ـ لن تخرج هذه الأشياء من هنا ولو بالقوة . ليس لدينا وقت . الدورية وراءنا .

يقول سمير :

ـ أريد أن أعرف لحساب من هذه ؟

ـ وهل ستوافق إذا عرفت ؟

ـ ربما . . لفترة قصيرة . . لصباح الغد مثلاً .

وعندما تسمع سامية أسماء الأشخاص وبينهم اسم كريم السعدي توشك أن تسقط . ويطفو إحساسها بأن سمير في ورطة . . وأنه يخاف على النساء الثلاث عنده .

يقول عرفان :

ـ طبعاً لديك غرف . . يمكن أن نعود آخر الليل .

يرد سمير بحزم :

ـ لا . . . هذه الليلة لن نؤجر غرفاً .

— ماذا ؟ أشم رائحة الأنثى . إذا كان لديك أكثر من واحدة فاحسب حسابنا .

— إنها خطيبتي على أي حال .

ويفتع ضحك مثل ضحك سكارى . يهبط المجهولون إلى القبو من الباب الخارجي . يرمون فيه بالبضاعة وسامية ترتجف . لو فتح أحدهم الباب الخشبي ليعبر إلى الصالون لرآها . ولكانت فضيحة .

سمير استطاع أن يداري الموقف ويقف حارساً عند الممر . وكان يصل إليها صوت جسده وهو يحتك بالخشب .

قبل أن يغادر المجهولون الفندق تسمع عرفان يقول لسمير :

— ليس معي إلا هذا المبلغ سنتفاهم فيما بعد . .

وتسمع صوت محرك سيارة تنطلق باتجاه الطريق المؤدية إلى قمة الجبل .

* * *

تتهالك سامية والعرق ينبع من كل خلية في جسدها .

شيء واحد كان يجعلها تتماسك وهو أن رجاء وفادية لم تسمعا أي شيء . سمير يقول :

— سمعت كل شيء طبعاً . . ومبلغ ألف ليرة أيضاً .

— وهل قبلته ؟

— لم يكن هناك مجال للنقاش في مثل هذا الظرف .

— لو لم نكن عندك هل كنت ستقاومهم ؟

— كنت على الأقل فهمت الأمر جيداً ورفضت المال .

— أنا آسفة . . أقصد لوجودنا هنا . والآن ما العمل ؟

— علينا أن نتظاهر بجو عائلي إذا مامرت دورية . سأنادي أبي وأستدعي الخادم والطباخ وزوجتيهما وأنت . . تفاهمي مع رجاء وفادية .

— وإذا عادوا ؟

— لن يعودوا . ظنوا أن المال أعجبني ورضيت بالصفقة .

— هل سيعودون لأخذ الصناديق في الغد ؟ .

— لو كانوا سيأخذونها في الغد لما دفعوا المال .

— ومن المسؤول ؟

— سأتدبر أمري غداً . لاتهتمي .

تتنهد سامية . تتكيء على الجدار . النور الخافت يتسلل من الصالون . يقترب سمير منها :

— هل تحسين بشيء ؟

— أنا متعبة . .

وتسقط . يتلقاها بين ذراعيه . صوت فادية يتلمس الظلام :

— أين أنتم ؟ . . سمير . . سيدة سامية .

تدير رجاء زر الكهرباء . وتشهق الإثنتان .

* * *

صمت يتمزق . . صمت يتفجر . . يتكلم . . والليل قاس . مثل ذئب مخملي يتسلل .

الدوامة في أعماق كل من هؤلاء . ولم يناموا في فندق السعادة . رجاء لاتتصور أن سامية يمكن أن تقع بين ذراعي سمير . . أي تناقض إذن في شخصيتها وأي زيف . تمثال

الوهم الذي توشك أن تعبده يجب أن يتحطم . تتصور أنها تحمل فأساً . . وأنها تهوي عليه . . وأن يديها تمتلئان بالدم . . وانه ينهار فلا يبقى منه إلا القلب الذي يضرب مثل مضخة تأبى التوقف عن الدوران . .

وتبكي بصوت مرتفع . .

— مابك يارجاء ؟

تهتف فادية : :

— لاشيء يافادية . . لاشيء . نامي أنت واتركيني .

وفادية مثل بركان يغلي . . يوشك أن يقذف الحمم والأحجار الملتهبة . . تحس سائلاً نارياً يدور في أعماقها . . تود لو تمزق كل شيء حولها . . تضرب الوسادة بالأرض . . يختنق الصوت في حلقها مع الدموع :

— قبل ذلك بقليل كان يقول لي أنه يحبني . . تصوري يارجاء . . كم أود أن أحطم له رأسه . وأن أنشب أظافري في وجهه وشفتيه وصدره . .

— اهدئي يافادية . . سوف نفهم كل شيء غداً .

— وما الذي يجب أن أفهمه أنا أكثر مما رأيته ؟ عالم قذر . . ورجال قذرون . . وعلينا أن نعيش في مستنقع حتى نقبل بهذه القذارات .

— لاتتفلسفي بالله أرجوك يافادية . . . رأسي يكاد يتحطم .

وسامية مثل تائهة في صحراء . تلال رملية تحجب عنها الرؤية . . وعاصفة تشدها إلى المجهول . تحن حتى إلى الهدوء. وبريق الأسرية . كم رفضت الأسرية وتاقت إلى العاصفة . . لكنها الآن تشعر أنها عاجزة أن تقف على قدميها في وجه هذه الريح العاتية التي تعصف بها ؛ ريحانة ذابلة هي . . بل غصن مقطوع . . أين الناس الذين تظنهم حولها ؟ يختفون كما لو أن الرمال تبتلعهم . . وأمها التي توسدت التراب بصمت . . أتراها تنسى رعشات الحنان من عينيها وكفيها وحديثها النابع من القلب ؟ ترتعش . وذكرى أمها . تتخيلها مثل دمية حجرية مصلوبة فوق أفق الصحراء وينبض أمامها حلم النبوءة من جديد . . الزوبعة . . والشوارع

والأشجار . . والتماثيل . . ورأس المرأة المقطوع . . آه ياأمي . . رأسي الآن مقطوع . . مرمي في بحر متحرك من زبد رملي أبيض رأسي مع ذلك لايزال يفكر . يعي . . يدرك الأشياء أكثر وضوحاً . . أكثر مضاء فماذا أفعل ؟ هل أمضي ياأمي في صحرائي..هكذا وحيدة تائهة مثل نقطة ماء .. مثل قطرة شعاع .. لكل شيء في الكون ناموسه الخاص .. قانونه الخاص . . ونحن البشر لماذا لانرضى بأننا نخلق لنموت . . ونعيش من أجل أن نعيش ؟ لماذا يتحرك طائر المجهول ، في صدورنا ليدفعنا إلى مساري المغامرة وأعتاب الخطر حتى السقوط ؟

سامية تتعب . . . من كوابيسها تتعب . . من تفكيرها تتعب . تحس أن ريحاً مجهولة آتية من بعيد . . . ريح حقيقية تحمل معها الزوبعة . .

ولا تصدق أن الفجر يبزغ حتى تحمل نفسها المثقلة . . وهاتين الفتاتين المجنونتين لتعود بهما إلى العاصمة .

الفصل الثامن

الحالة صفية تتصل بابنة أختها سامية وهي تتفجر غضباً . يجب أن ترجع رجاء إلى البيت . . فوراً . . أخوها مستاء وليس من مبرر لوجودها عندك تتصرف على هواها . أم أن رجاء ليس وراءها من يردعها ويردها إلى الصواب ؟

ترد سامية باستياء :

— ولكن . . ما الفرق ياخالتي بين أن تكون في بيتها أو تكون هنا ؟ إنها متعبة وبحاجة إلى الراحة .

— راحة ؟ وأي راحة ما دامت لاتعود حتى بعد منتصف الليل ؟ .

— الحقيقة ياخالتي أننا غبنا ليلة واحدة في المصيف . . وما عدا ذلك فنحن لانخرج من البيت .

ــ ولم تنم عندك ؟ هذا ما كان ينقص ، هل ستقولين أنك وإياها نمتما وحدكما في بيت المصيف ؟

ــ لاياخالتي . . نمنا في الفندق . تأخر الوقت واضطررنا . . وكان معنا صديقة أخرى لنا .

ــ قلت في الفندق أليس كذلك ؟ اسمعي ياسامية . . أنت مسؤولة عن كل شيء بالنسبة لرجاء . رجاء لاتعرف شيئاً . . وإذا أخطأت أو زلت فاللوم عليك .

ــ ولماذا تزل لاسمح الله ؟ هل مافعلناه زلل أوخطيئة؟

ــ لاتناقشيني . . أرجوك . . فلترجع رجاء ولاعلاقة لنا بحياتك أنت .

ــ حسناً . . سأقول لها فور أن تعود . ذهبت إلى السوق.

ــ إلى السوق ؟ ومن الفجر ؟ من أين لها المال ؟ لتعد فوراً . . وإلا . .

وتصمت سامية . . تود لو تنتهي المكالمة . لكن الخالة صفية تنتقل من موضوع إلى آخر وتصرخ وتسب وتشتم . وكأن سامية مذنبة بحق رجاء . . أو كأن رجاء طفلة

تركت سائبة . سامية هي المسؤولة . . حسناً . . لو تعرف خالتها أن رجاء في بيتها كانت موجودة جسداً غائبة روحاً . محطمة من الداخل بينما تظهر مثل مزهرية جميلة دقيقة الصنع وسليمة من أي كسر .

على رجاء أن تقرر . . وليس هي .

ترجع رجاء مغسولة بفرح ناعم بعد ليلة الفندق القاسية مثل عصفورة مبللة بمطر ربيعي :

— تعودين إلى بيتكم يارجاء . . هذه رغبة أملك . . ولا تعودين إليّ أبداً .

— لا أعود إليك ؟ كيف ؟ أصبحت جزءاً مني . . وأنا أجتاز مرحلة صعبة وبحاجة إليك . أشعر أنني كمن يسير على حبل فوق واد سحيق . . إما أن أقطعه . وإما أن أسقط .

— وماذا تريدين أن أفعل ؟

— كنت تقولين إن الإنسان إرادة . وأنا الآن أريد ولا أريد .

— اسمعي يارجاء . . أنا بدأت معك وعليك أن تكملي . ألقيت الحجر في الماء ولست مسؤولة عن اتساع الدوائر فيه . . فتحت الباب للتيار لكنني لاأقوى على صد العاصفة . أنا نفسي لا أقدر أن أواجه مشاكلي .

— وماهي مشاكلك ؟ غداً يعود كريم وتعودين لحياتك مثل أميرة . . ويعود بيتك الجنة . . أما أنا . .

أعود مثل أميرة . . ويعود بيتي الجنة . . لو تعرف رجاء كيف أتمزق . . كيف أتعذب كل ليلة . أقف أمام قضاة ينتصبون في أعماقي . . يستجوبونني ويحاكمونني . . يفرجون عني ثم يقبضون علي من جديد . لو تعرف رجاء رعب صحرائي . . وشمسي المحرقة . . وعطشي . لو تعرف أنني لا أعثر حتى على السراب .

— والعمل يارجاء ؟

— لابد أن يأتي الحل . . بطريقة ما . . لكني لن أرجع الآن .

— لن يأتي الحل من السماء . . نحن الذين نقرر .

ــ سأقرر في الغد . . ألا تمهليني ؟ أنا أمهل نفسي .

وتهرب رجاء إلى نفسها . مثل طفلة تمسح عن أهدابها الدمع لأنها فقدت دميتها . الغد . . الغد . . دائماً تنتظر الغد . ألسنا في هذه البقعة من الأرض انتظاريين ؟ هل نفعل شيئاً سوى الانتظار ؟ أليست خرائط أدمغتنا كلها موشومة ومرسومة بأصابع مجهول اسمه الغد ؟ .

سامية تتذكر من حولها . . كلهم لايعيشون لحظتهم وإنما يتطاعون إلى الغد . . ويعيشون من أجل الغد . . وقد يأتي هذا الغد أو لايأتي المهم أنهم عاشوا الأمل في الانتظار .

يلمع في خاطرها جابر . . حتى هذا الشيخ ينتظر له غداً لقاء مع من يحب . . حرية . . غبطة داخلية كأنها سماوية . . مال يهبط إليه من جديد . . من أجل أن يعيش من جديد .

جابر . . أيها المسكين . . ماذا تفعل بك الأيام ؟ . .

هل يخدعك الزمن أم أنك تخدع نفسك عنه ؟ كيف تتجاهله ؟ كيف تحتال عليه ؟ هل تنتصر عليه أم هو الذي يأخذك أخذ عزيز مقتدر ؟ .

تشعر أنه يجب أن ترى جابر . . ومن أجل أن تترك رجاء لقرارها الخاص بها ، تخرج بسيارتها إلى دوما.. حيث جابر .

في الطريق تشعر أنها تخرج من سرداب ذاتها . كم أصبحت تنغلق حول هذه الذات . . وكأن العالم كله هي . . وهؤلاء الناس جميعاً أليست لهم معاناتهم ومشاكلهم التي ربما تفوق معاناتها ومشاكلها بكثير . كيف السبيل لأن تحطم هذه الصلابة التي تغلفها ؟ صحيح أنها حاولت . . لكنها حتى الآن لم تصل إلى نتيجة . لعلها لم تفشل . . لكنها لم تنتصر على شيء في الوقت نفسه . . وهذه الزوابع الصغيرة التي أثارتها في الأشخاص الذين حولها ماذا حصدت منها ؟ بل ماذا خلفت لها هي نفسها ؟ لابد من عاصفة كبيرة . . كبيرة . . من أجلها . . ومن أجل الآخرين . لابد من هول يهز شجرة حياتهم الضخمة . . يملأ آذانهم وعيونهم . . وينفض عنهم هذا التقوقع والتبلد والتمحور حول الذات . ماهو هذا الذي تنتظره ؟ معجزة ؟ ربما . . إلا أنه آت . . سيد الزمان هو الزمان الآتي . .

تلمح في الطرقات حركة غير اعتيادية . تدير ابرة الراديو . الراديو معطل . الناس في هجوم على البقاليات والأفران بينما المحلات التجارية تغلق . السيارات في ازدحام وارتباك وكأنها كلها تخرج من العاصمة .

ما الذي يجري ؟ تلاميذ المدارس يخرجون جموعاً مذعورة كعصافير أجفلها صيادون . تحت شجرة جوز تقف . قلبها تعصره يد مجهولة . . أية أبواب فتحتها على حياتها . . لاتتسرب منها سوى الأشباح والأوهام . ليت أن العاصفة تثور وتلقي بها إلى وديان النهاية . . وينعدم كل شيء . . كل شيء . .

تشعل سيكارة . تهب نسمة حزيرانية لافحة . أي صيف مشتعل هذا الذي تنتظره . . ولكن ما شأنها هي بجابر وغير جابر . . ما الذي يعنيها من سمير وعرفان وفادية وباسيل ورجاء . . وكل هؤلاء ؟ كل إنسان وحيد على هذه الأرض . . عبارة قرأتها لهرمان هيسه . . وحيدة . . وحيدة . . ولاشيء يحطم إحساسها بهذه الوحدة .

تتذكر كريم . . تناديه : كريم . . أيها الوجع . يامن كنت برءاً وشفاء من التفاهة والملل . . هل تغلو الجرح من جديد ؟ كأن يداً تطبق على عنقها . . وأنها تريد أن تبكي.لم لاتبكي ؟ منذ ماتت أمها لم تبك . تسند رأسها إلى الشجرة وتغرق في دمعة كبيرة . . كبيرة .

طائرات تحوم في الأفق..تترك وراءها خيطاً مسحوباًمن ضباب.طائرات أخرى ذات دوي مرعب تمرقأسراباً بلمح البصر . . تعلو . . تهبط . تكاد تلامس رؤوس الأشجار وأسطحة الأبنية الريفية الواطئة . . مناورات ؟ لابد أنها مناورات . وهي . . ما الذي يعنيها هذه اللحظة غير عالمها الذاتي ؟ في الجامعة كانوا يتحدثون عن أمور كثيرة . . ويتوقعون الحرب . وكريم كثيراً ما حدثنا عن المعركة المقبلة : — إن أي معركة تتفجر لابد أن تكون حاسمة ، مادام العرب قد عرفوا طريقهم في الإستقلال والتحرر فعليهم أن يفجروا معركتهم بأيديهم . . والحرب هي النار التي تصهر . . ونحن بحاجة لأن نصهر — كل ما سمعته

وما تقرؤه الآن في الكتب والصحف وعيون الناس لايمس منها إلا الجلد . . . لاينفذ إلى العمق . اهتماماتها تغيرت . . لكن إحساسها بأنها محور الوجود لم يتغير أبداً . هذا سر حياتها . . هنا فشل كريم . . ومصدر عذابها .

تبكي . مثل طفلة . يادموع الطفولة البعيدة . . ياحرماناً مريراً من الأب والأم والأخوة والزوج .. والحب أيضاً . أيها الحب المستحيل . . ياقطيعة العمر . . ياأمل العمر .

ينهمر في أعماقها شلال أنانية طاغية . ليغرق جابر في بحر أحزانه الصامتة ولتضطر رجاء إلى حضن أي عشيق تريد . . ولتصطدم فادية أكثر بصخور الحياة . . وليبعد أخوها عنها أكثر وأكثر .. . وليرجع كريم أو لايرجع فلن يتغير من أمرها شيء .

يرف طيف ناجي مثل حلم مجنح . . وترف باريس في خاطرها أسطورة . تحس أنها تركض في حديقة مشمسة مليئة بالزهور . . وترتمي في أحضان قارب صغير هاجع في بحيرة . وتسمع لحن حب من بعيد . . الا أيها الحب .. أيها الملاك المنقذ .

لاتلبث سحب سوداء أن تلفها بضباب قاتم . ترتمي إلى الأرض . فوق تراب رطب مشبع بالماء تتمدد . تنفذ إليها رائحة دافئة مثل جسد حبيب .

هذه الأرض . . هذه الأرض . . كم لها من ارتباط بها . . تنفتح كل خلية من جسدها علاقة ما . . ذكرى ما . . حباً ما . كم شربت من عرق جدها وأبيها . . ومن جهد أعمامها وأخوالها . على هذه الأرض عاشوا . . ومنها أكلوا وشربوا . . وفي ترابها دفنوا . مسكين صلاح . . مسكين فائز . أخواها لم يعرفا قيمة الارتباط بالأرض . . وارتحلا . . وتركا سر الحياة.البئر التي تنضح ماء شحيحاً في أرضنا أفضل من أنهار في أرض الغير . وكريم . . المبعد الشريد هل يعرف ماذا تعني الغوطة شجرة . . شجرة . . وما هو السر المتدفق في سواقيها . . وفروع أنهار بردى ؟ .

نداء رجل ولو كان زوجاً : تعالي . . لايطغى على هذه النداءات الخفية التي تشدها حيث هي .

فكرة مثل اشراقة تهبط إليها . . لم يسافر كريم لأنه

مضطر فعلاً إلى ذلك . . لعل ذهابه في الفترة الأولى كان حلاً . . وكان علنياً لكنه سرعان ما أصبح قادراً على العودة في أي لحظة . إنه يوهمها . يخدعها . . يراوغها . . وربما يريد عمداً أن يبتعد عنها . .

تفيق من ذهولها . كأن حقائق معينة توشك أن تتفتح أمامها . . مثل أواخر ليل يحمل في طياته خيوط نهار . .

في دوما تجد الناس متجمعين ينصتون إلى الراديو . . تقف معهم تستمع مثلهم . . وواد كبير ينحفر في أعماقها . دمية نحاسية هي تسقط في هذا الوادي بدوي هائل . إنها **الحرب . . الحرب . . . الحرب .**

بعضهم ينظرون إليها باستغراب لكنهم لايعترضون . . وعندما تأخذهم أمواج الإنفعال ينسون أنها بينهم . وتنقذف من أفواههم ألفاظ مزيج من الحماسة والتهديد والوعيد . وكأن العدو قد تسلل إلى طعامهم وهم قادرون على طرده بل سحقه . المنتفخون منهم غروراً يمضون في غرورهم . . يصيحون : ماذا يعني أنهم يهاجموننا . . سوف نحطم رؤوسهم . . لن يمسوا شعرة من واحد فينا . . لن يأخذوا

شبراً من أرضنا ، الشبان يتصايحون ويزعقون مثل ديكة — فزعة ياشباب . . سلاح ياشباب . . هجوم ياشباب — بينما يشق زحام الأصوات صوت نشاز لمغنية مغمورة . . « بيكلفني خمس قروش اللي بيقرب صوب حدودي » . . ويضحك الجميع ضحكاً مستهتراً متوتراً . . مجنوناً عابثاً . وعندما ينهال سيل الصراخ على العدو تجد أن عليها أن تنسحب بسرعة لئلا تسمع . شيخ متهدم على كرسي قش يتمتم بعبارات غامضة . تقترب منه مضطربة :

— أين يسكن السيد جابر ياعم ؟ محله مغلق كماترى . .

— بيته جهة البساتين يابنتي . . ولهذا لا أنصحك بالذهاب إليه . إنها الحرب . .

— ولأنها الحرب أنا مضطرة لأن أراه أكثر . . أرجوك أن تدلني على بيته .

— حسناً . . سأذهب معك .

ويسيران . هو مثل مشلول يسحب رجليه . . وهي خائفة مذعورة تتلفت حولها وإلى السماء والأرض . تطرق

باب جابر بعنف .. تسأل الجيران في الحي .. والصبيان. لا أحد يعرف . . اختفى منذ أيام . ترى هل عاد إلى أسرته وبيته ؟ ليته يفعل . إنهم يحتاجونه في هذا الوقت الصعب . . تترك رسالة مع الشيخ يسلمها إلى جابر لو رآه يفتح مكتبته . لابد أن تعود .

أين تعود؟ لم تعود ؟ هل تعود إلى بيتها الخاوي الخامد وقد فقد معناه مثل حكمة مقلوبة الحروف ؟ ومن أجل من تعود . . لاأحد مسؤول عنها . . ليست مسؤولة عن أحد . لو أن كريم هنا لاختلف الأمر . يمكن أن تتحطم الحواجز بينهما أمام هذا الخطر الداهم . . لكان هدف ما يجمعهما . كريم لم يعد . . ورجاء لاشك عادت إلى بيتها وحضن أمها . . وستغفر لها أمها بسبب الحرب .

هل تعود من أجل أن تقبع بين الأثاث والجدران قطة مطاردة ؟ مزهرية محطمة ؟ بيانو مهجور ؟ ماالذي تنتظره وهذا الواقع الجديد أمامها مثل مارد ؟ ماذاعليها أن تفعل ؟ .

الوطن . . الوطن . . أيها المقدس في القلب . .

المحمول في هدب العين . . علمونا أن نحبك لكنهم لم يعلمونا كيف نخدمك . . كيف نسعفك . . كيف نكون معك وقت المحنة . . هل هي وحدها الضائعة المضيعة ، فوق بساط الوطن الذي يشده العدو بأظافره وأنيابه ؟ قطعاً لا . . هي كمواطنة وهي كامرأة يوجد أمثالها الكثيرون . ليس لهم أي تجسيد لحبهم واقعاً علمياً . أي سبيل يمتلىء صدرها نقمة . . لكن على من تنقم ؟ على أهلها ؟ على الذين ربوها وعلموها في المدارس والجامعات ؟ على المجتمع ؟ تضحك بهيسترية مرة . ما المجتمع ؟ وحش وهمي لايعرفه الناس إلا عندما ينهشهم . . ويمزقهم . . أو يفترسهم.لايشعرون به يداً قادرة من حديد تأخذ بهم في دروب الضمان لاستقرارهم . والأمان لحياتهم .

مثل منارة تنبض أمامها صورة — رنا — الفلسطينية المثقفة وأستاذة الجامعة . . والموغلة في أكثر من تنظيم سياسي عربي . . لابد أن إنقاذاً ما سيكون عن طريقها . هي أولاً وقبل كل شيء امرأة . . ولابد أن تجد منقذاً

لها من خلال هذه الحقيقة . لتسرع إلى رنا . . ولتنسى موضوع الرسالة لجابر . . وعودة كريم إلى البيت .

شمس حزيرانية مشبعة بالدفء تصفع الرؤوس . طائرات مثل طيور خرافية تحوم . . حماس القرويين تعاظم مثل موج .

لتذهب إلى باسيل في الجريدة . . لتعرض عليهم خدماتها . . لاتدري بالضبط ماذا يمكن أن تقدم . لكنهم ربما استفادوا منها . لتحمل الكاميرا . . وقلبها . . وألوف الأفكار وتنطلق إلى الشارع . . ولتحاور الناس وتعبىء قواهم وترصهم صخرة واحدة تسد طريق العدو .

ولعل قلمها الذي جف يمكن أن يشرب من نسغ أعصابها فتكتب . . وتكتب . . أليس من شعاراتهم أن الكلمة هي رصاصة ؟

لا . . بل تذهب إلى المستشفى . . أي مستشفى . . تتلقى الجرحى . . تسعف المرضى . وبرداء حنانها تمسح الجراح . مهمة رصدوها للمرأة منذ أقدم العصور . .

لن تستمر في تخيل هذه المهمة . . فهي معروفة ومألوفة .

تقول للشيخ :

— ياعم . . أريد أن أرجع . . وبسرعة .

— ألا تنتظرين قليلاً حتى يهدأ الجو ؟

— الجو لن يهدأ . . سيزداد إلتهاباً وتفجراً . ستشتد المعركة ياعم .

وتنطلق طائرات مثل صقور أسطورية . . إنها — الميج — وإنهم طيارون سوريون . تنقض بسرعة مذهلة فوق طائرة تبدو كشبح . وكأنها بلا صوت . تزلزل السماء . . كأنما يسقط منها شيء إلى الأرض . يلمع معدن أبيض تحت ضوء الشمس المبهر . . وترى حطام طائرة تقع . وتقع إلى جانب الشيخ في حفرة . لحظات مثل دهر . . تساوي العمر . . تحس بحرارة وبرودة بآن معاً . . بأن رأسها قد ضاع منها وأنه في الوقت نفسه في أصفى لحظات التفكير — غارة معادية وهي في بستان وإلى جانبها رجل شيخ جاء يدلها على بيت جابر — تعيد هذا الكلام لنفسها . وتمد يدها إلى صدرها تريد أن

تتأكد أنها سالمة . . وأن الشيخ الذي طمر رأسه في التراب لايزال يتنفس .

— مابك ياعم ؟

— بل أنت . . هل أصبت ؟

— حتى الآن . . لا .

ترفع رأسها إلى الجهة التي دلها عليها الشيخ . . ترى دبابات مموهة بأوراق الشجر وفوهات مدافع وتبدأ عملية مضادة . تضع سامية أصابعها في أذانها . . تهطل دموعها رغماً عنها . تلتصق بالشيخ المرمي مثل خرقة بالية . عيناها تزيغان . يولد حريق بين البيوت القريبة . تحس النار تحرق وجنتيها وخديها وعطش قاتل يستبد بها . الحريق بين البيوت التي بينها بيت جابر . يهرع السكان وما زالت المدفعية تقذف . يهرعون نساء وأطفالاً وشيباً وشباناً . . حفاة . . يصرخون . وبأيديهم حلل وأوان وكل ما يمكن أن يملأ بالماء . النار تزداد شراسة ، عندما يلفحهم اللهب ويشعرون بعجزهم عن اقتحام الحريق يرمون ما بأيديهم

وتغلبهم الحيرة . تتناهى صرخات استغاثة من بين البيوت بينما تصدر أوامر لاتعرف ممن ولا إلى من توجه :

ـ أديروا موتور الماء . .

ـ هاتوا ما عندكم من بطانيات لنلف المصابين .

يزعق صوت سيارة إطفاء . . . ويقتحم رجال بواسل ألسنة اللهب وتبرز سيارات جيش . . وسيارات إسعاف وينقل المصابون . وبين ذهول القرويين وحماسهم المتدفق يخمد الحريق وينتهي فصل من فصول الحرب .

خاطر مثل سكين ينغرس في قلبها . لماذا لايكون جابر بين هؤلاء المصابين التعساء إن كان هو . . أو كان غيره ما الفرق ؟ كلهم مواطنون وبحاجة إلى مساعدة .

ـ إلى أين تأخذونهم ؟ إلى أي مستشفى ؟

ـ إلى مستشفى ـ حرستا ـ مستشفى جديد . ليس فيه خدمات بعد . المهم انقاذهم الفوري .

وتطير بسيارتها إلى مستشفى ـ حرستا ـ تجد عشرات الجرحى..فوق النقالات .. في الممرات وعند الأبواب ..

بثيابهم العسكرية المتربة . . بدون ثياب . صغار ومدنيون أيضاً . . ومحروقون اكتووا بنار النابالم .

تقف مذهولة . . عاجزة . . الدمع جمد في عينيها وقسوة هي كل الحنان تنبع من أعماقها . مستعدة أن تضمد هذه الجروح . . أن تمسح الدماء . هي التي لم تلمح في حياتها الدم . . ولم تمد يدها إلى أصبع مجروح .

— والعمل ؟

تقول لرئيس المستشفى ورئيس طاقم الأطباء الذي حول فوراً إلى المستشفى .

— لدينا الأجهزة والأطباء والأدوية . . لكننا بحاجة إلى عناصر مساعدة . . خدمة . . تمريض . . عمل في المطابخ وعلى المصاعد إلخ . .

— هل تقبلوني بينكم ؟

— توقعت أن تقولي سآتي بعشرات مثلي لمساعدتكم . على أي حال أنت مشكورة . كأنما نفذ إلى عمق أفكارها . لماذا لايأتي عدد من النساء الواعيات والمتعلمات للتطوع

في هذا العمل ؟ إنها اللحظة . . وإنه الإمتحان الصعب . تصمت . . لاتعطي جواباً لكنها بينها وبين نفسها تقرر أن تفجرها زوبعة بين النساء العائشات في الظل . . في السلبية . . في الفراغ المترف .

عندما ينتصف الليل لاتعود سامية . تعرف كم من الوجوه صافحت . . كم من الجروح ضمدت . . كم من الآهات والدموع شربت . كم من الآلام عانت . توشك أن تسقط إعياء . . وبأساً . . وعذاباً . كم من المسافات عليها أن تقطعها . . لهاثاً لتصل إلى الموقع الذي كان عليها أن تكون فيه . كم من الخدمات يجب أن تؤديها لترضى عن نفسها . . لتكفر عما مضى من انعزاليتها وأنانيتها . . تتناول كوب حليب ساخن . . تتمدد فوق مقعد خشبي لم توضع له حشية بعد . يدخل المشرف الكهل الذي لاحظ همتها واندفاعها .

ــ سيدتي . . يوجد شخص لم يسعف بعد . . ولا يوجد سوى مساعد طبيب .

تهب واقفة وهي تترنح : ــ أي خدمة . . ؟

وتقطع الممر الطويل المعتم وريح صيفية عاصفة تنوح خارج المستشفى مثل عويل . لاتكاد ترى إلا أشباح الموت . تستند إلى جدار . المشرف يقول لها :

– إنه يناديك ياسيدتي . . أليس اسمك سامية ؟

– يناديني ؟ من ؟

– المريض الجديد . لعله من أقربائك .

وتهرع إلى حيث المريض . كان جابر . . وكان مثل فحمة سوداء نصف محروقة . النار أكلت أجزاء كثيرة من صدره وأطرافه . . ووجهه لاتتحرك فيه إلا شفتان يابستان . . وبعسر .

– جابر . . ياعزيزي جابر . . ماالذي فعل بك هذا ؟

يقول الطبيب المساعد :

– علينا أن ننظف جروحه بهذا السائل ونغذيه . . ثم نتركه هكذا عارياً لأن الحروق لاتضمد .

المريض يئن مثل بعير . يحاول أن يحرك عضلة أو عضواً

فيصرخ بجنون . تبدو عيناه مثل خرزتين مشبتتين في محجريهما والكلام يخرج منه غير مفهوم .

تقترب منه . روائح مقرفةتفوح نتنأمن جراحه.تمسح فوق الجلد المشوي الذي بدا كقروح . يهدأ قليلاً . . تكرر عملية المسح مضاعفة من كمية الدواء المهدىء.ينظر إليها كأنما لايصدق . تهطل دموعه قاسية مثل حبات من نحاس .

ــ لا . . لاتبك ياجابر . . سوف تشفى . . وسأظل إلى جانبك حتى تشفى .

يتنهد . مثل نار محرقة يخرج الهواء من فمه وأنفه . تسنده سامية إلى جدار السرير . وكما تطعم أم طفلها المدلل تناوله سوائل مغذية . . وعلى فترة طويلة تسمعه يغمغم بكلام غير مفهوم . تأمره بالصمت . تحقنه بمادة مخدرة وتنتظر أن يهدأ النوم .

لكن جابر لاينام . . يبدو كمن تفتح وعيه كلياً وتدفق سيل ذكرياته محطماً الحاجز بين الماضي والحاضر. كلام منقطع خافت كأنه ينبع من بئر . . لكنه واضح . .

حار مثل سيخ محمي. تنصت سامية بقلبها . تود لو تسجل كل عبارة . . كل كلمة . إنها عصارة روح . . وخلاصة عمر . هلوسات محتضر توشك أن تفر من أصابعه خيوط الحياة دون أن يحقق فيها شيئاً ما . . أن يذوق سعادة ما . . فيحاول أن يمسك بها كمن يقبض على شعاع . يبدو المريض كمن فقد الإحساس بالزمن . . كمن سقط فجأة في بحيرة تداخات فيها ذرات الماضي بالحاضر . يتحدث عن نفسه كما لو أنه طفل . . أو شاب في أول العمر . . ثم يعود ليعنف كما لو أنه يخاطب رجلاً أو كهلاً . أيها الزمن . . أيها العدو الأول للبشر . هل يمكن أن تشفق على هذا الكيان المحطم وتعطيه شعاع أمل بالمستقبل ؟ لاتجلده هكذا ، لاتطفىء شعلة الآتي في وجدانه هكذا .

توشك سامية أن ترفع صوتها وهي تخاطب نفسها . . كما يفعل مريضها ثم تمسك نفسها . وتستمع . لأنه يحب الحياة يأسف عليها ويحقد على ناسها . . ولأنه لم يعرف الحب يتوهم أنه محب . . وأن عليه أن يقطف وردة الحب

الأوحد قبل أن ينزلق في وادي العدم . كانت تشعر بعذاب ضميرها لأنها بطريقة ما جعلت جابر يحبها . حسناً إن أسقط عليها هي بالذات مابه من توق للحب . . . وإذا تعذب فمن خلال هذا العذاب عثر على ذاته واستراح . والآن . . هاهي أمامه . . معشوقة مجسدة تكرس مافي قلبها من عطف وحنان له . وحده . . وسواء عاش أم مات فقد تمت عملية إنقاذه الروحي . . سيموت مستريحاً . . لاقدر القدر . . وإن عاش سيعيش بسلام . من أعمق أعماقها تتمنى له أن يعيش . . لو تقدر أن تسكب له مع جرعات هذا الماء وذاك الدواء من عصارة روحها . . من دقائق عمرها لفعلت . تنام سامية ولا تنام . دقائق متقطعة تسرقها عيناها المتعبتان من زحام العمل المتكاثر حولها مثل طحلب بحري . يهب عليها هواء ناعم . . . لاشك أنه الفجر . قبل أي شيء يجب أن تطمئن على جابر . . ثم تنطلق في جولتها العشوائية بين المرضى . تهرول نحو غرفته . . تسمع وقع أقدام خلفها . . تسرع أكثر . يد حديدية تقبض على كتفها :

– ممنوع يا سيدتي . بأمر من رئيس المستشفى .

– لكنه مريضي . . أريد أن أطمئن عليه .

ينكس المشرف رأسه بحزن :

– اطلبي له الرحمة .

توشك سامية أن تصرخ . ينفر الدمع من عينيها :

– لا . . لايمكن . . تركته بعد منتصف الليل . . وكان يتكلم معي . . ويأكل . . ويشرب .

– كانت صحوة الموت .

صحوة الموت . . صحوة الموت . . لعلها هي أيضاً منذ مدة لاتعرفها ضمن دائرة صحوة الموت . رأسها يدور . . العالم يدور . . صمت في داخلها يتفجر . . يرسم خطوطاً وأشكالاً ودوائر . تغيب مع تشابك الخطوط . . مع حلقات الدوائر تضيق الحلقات حتى تصبح حلقة واحدة . وتظل هي مغروسة في نواتها مثل رأس دبوس . تحاول الإنفلات . . تحاصرها الحلقة . . تنقطع أنفاسها وتظل كأنها معلقة في نقطة العدم .

— سيدتي . . أنت مرهقة وعليك أن تستريحي .

تفيق على صوت المشرف . يبدو لها غارقاً في ضباب رمادي .

— سأذهب إلى المدينة لبعض شؤوني . . سأحاول أن أرسل من ينوب عني وسأرجع . .

ومثل سكران رنحه السكر تقود سيارتها . المدينة عذراء مجفلة مهددة بالاغتصاب . الناس في اضطراب وارتباك عظيمين. تبدو لها المآذن والأبنية الشاهقة وقد ذر فوقها غبار كلسي ناعم . أما الشوارع فشبه خالية إلا من سيارات عسكرية تشقها مسرعة وهي تحفر الإسفلت بوحشية . لتتدمر هذه الأناقة الساذجة للمدن المطموع فيها . . ولتحصد ريح الحرب مظاهر الرخاء الكاذب والرفاهية المصطنعة ولتمر العاصفة مهما كانت عنيفة . المهم أن يسلم الوطن . . تتمنى لو أنها طائر رخ هائل أسطوري لتفرد جناحها فوق المدينة . . تحميها . . . تذود عنها الوحوش من الكواسر .

أيا دمشق . . ياجوهرة المدن . . وتاج التاريخ . من يستطيع أن يخترق قداستك . إن يعتدى على بهائك ؟ أموت ولا أراك تتنزلين عن عرشك .

تتمطى المدينة في داخلها مثل جنية . . تصبح عينيها اللتين بهما ترى . ولسانها . . وأذنيها . . وقلبها الذي أخذ ينزف . يا امرأة هي جرح مدينة . . يامدينة في جرح امرأة . ناجي . ناجي . . أتراك عشقت دمشق كما أنا عشقت ؟ أتراك تناضل من أجلها وأنت بعيد عن نبض الحياة فيها ؟ عن إيقاع الزمن الحزين الذي أصبح صراخاًو ضجيج معادن لاتناغم فيه ولا انسجام ؟ .

في البيت لاتستطيع أن تلبث إلا ريثما ترمي ثيابها وتستبدلها بثوب حمامة أبيض . . ليتها تملك زياً عسكرياً لارتدته . . ترجع إلى منزل جابر ، يحتاجون إليها هناك . . المسكينة زوجته . . وأولاد كأفراخ الطير . أم هاني ليست وحدها المفجوعة . . هناك كثيرات غيرها وكثيرون . وكم هم جميعاً بحاجة إلى من يواسيهم ويساعدهم . يبرق في خاطرها الرجل المهيب . . الضابط الكبير الذي

كان صديقاً لوالدها . مثل نسر مجنح تراه . . قادراً . . وقوياً . . ويمكن أن يساعدها فيما تقدمه للوطن . تثبت الفكرة في ذهنها عندما تكتشف أن أسرة جابر بحاجة إلى كل شيء . . حتى المعونة المادية . تنسحب من المأتم المخنوق المنطفىء . . تذهب إلى مقر اللجنة الشعبية العليا . ترى الضابط الكبير منهمكاً في إعداد لوائح بأسماء الشهداء والجرحى والمصابين . تصافح فيه وجهاً وطنياً أصيلاً . . ورجولة خالصة .

— ها قد جئت إلي أخيراً ياسامية . كنت أتوقع ذلك . . ما أخبار كريم ؟

— المهم عندي الآن هؤلاء الناس الذين يحاصرون . . ويسقطون . . . ويموتون . ماذا يمكن أن أساعد من أجلهم ؟

— يمكنك الكثير . . ولدينا من الأعمال الكثير . .

وتبدأ جولتها الأولى في أحياء دمشق العتيقة . تتغلغل في أعصاب المدينة . . وفي العمق منها . تذهل للروح المعنوية العالية لدى البسطاء والفقراء من الناس . لكنها روح

مبعثرة . . مضيعة . . لاتجد من يلمها ويرصها في اتجاه واحد .
أخبار الحرب تصل باستمرار مغلفة بقشرة قصدير لامعة .

وكثيرون . . ولأنهم مؤمنون بأمتهم يصدقون . وهي . . الواعية لكل ما حولها لاتجد مبرراً لها في أن تكشف لهم الحقائق فالحقائق مفجعة . . وأخبار الحرب نصال تتكسر فوق النصال . ليكن ايمانهم هذا عزاء عن الذين يفقدونهم . . . عن الذين يقدمون قرابين في سبيل هذه الأمة . تجد نفسها في تيار التمويه . . تمتطي الموجة . هل هي تخدعهم ؟ شيء يتمزق في صدرها . لكنها امرأة . . . وعاطفتها تقف بينها وبين أن تفجع العروس الشابة . . والأم الثكلى . . والولد اليتيم ، لتترك لهم على الأقل ايمانهم بالنصر . . وبعظمة هذه الأمة . . تتكلم . . وتتكلم. . عن غير قناعة . . الكلمات طبول جوفاء فارغة . . وهي هي التي دائماً كانت تعني كل كلمة ، تقرع هذه الطبول . . بعنف . . وبلا ثمن .

في حي مجاور لحي خالتهاصفية تهرع إليها امرأة . . في حالة من القهر والذعر .

— أرجوك ياسيدة سامية أن تنقذيها . . ألست من طرف الحكومة ؟ أنقذيها . . ليس لي سواها . . وهي مصدر رزقي .

— ومن هي التي تريدين أن أنقذها ؟

— ابنتي . . فادية . . ابنتي . . تركت البيت منذ ليلتين ، قالت إنها تطوعت في الجيش الشعبي .

ولا يتبادر لها على الاطلاق أن تكون ابنتها هي فادية توفيق . لماذا ؟ لاتدري . . صورة فادية مؤطرة في ذهنها باللهو والعبث واللامسؤولية .

— فادية توفيق ؟ اطمئني ... سأبذل جهدي الاتصال بها . . وسأخبرك .

— بل أنا آتي إليك . . الهاتف معطل : :

— إلى أين ؟ لست في بيتي . سأمر عليك . اعرف البيت .

ترن في سمعها عباراتها هذه . . لست في بيتي : : صارخة عنيفة مثل صلاة حارة . بيتها أصبح هذه المدينة

الكبيرة التي تثخن بالجراح دون أن تركع . أهلها هؤلاء الناس جميعاً . أصبحت تأكل من خبزهم . . وتشرب معهم . . وتستريح في بيوتهم التي يتوزع عليها الفزع من الحرب .

فادية إذن قد تركت هي الأخرى بيتها . . وأمها . . وعالمها البراق الصاخب باستمرار . . ترى هل صحيح أنها تطوعت في الجيش الشعبي ؟ لم لا اندفاعية وتتفجر عاطفة . والناس من هذا النموذج هم الذين ينقلبون من الضد إلى الضد . أليست هي نفسها من هذا النموذج إلى حد كبير ؟ لكن . . . كيف تعثر على فادية في هذا التيار الذي أصبح يجرف النساء أكثر من الرجال ؟ أي جهة تقصد لتسأل عنها . ؟ جموع المواطنات من عاملات وموظفات وربات بيوت ومتطوعات يملأن رؤوس الشوارع والساحات بعمل . . . وبدون عمل . المهم أنهن يساهمن في حملة إنقاذ الوطن . يجمعن تبرعات . . يلتقطن أفواج النزوح . . وفي مراكز المنظمة النسائية يعمد غيرهن لخياطة الملابس وتهيئة الأدوية والضمادات ويبادرن إلى حملة

للتبرع بالدم . هذا العالم النسائي الذي برز فجأة . . كم تشعر أنها غريبة عنه . . لم يسبق لها أن انتسبت إلى جمعية خيرية . . ولا إلى أي جهة نسائية بتنظيم . أو بغير تنظيم . لم تؤمن مرة بالاحسان الفردي . ولا بالعمل الخيري طبقياً ولا أحست أنها امرأةبمعنى الأنوثة المنعزلة عن الرجل رغم أنها لم تعمل . لاتعرف كيف تسأل . . ولا من . . حماس أشبه بفوضى يعم النساء . ومظاهر شبه بورجوازية لاتزال تطغى . فادية .. . فادية . . وهذه مئات الفتيات في مثل عمرك ينحشرن في سيارات عسكرية لدورات حمل السلاح هل أنت بينهن ؟ لكنك لست طالبة ثانوية . . ولا جامعية ووظيفتك ليست حكومية ففي أي إطار أنت. .؟ وأين تعملين ؟ ترف أمامها صورة فادية مثل زهرة برية متفردة ووحشية . . مثل غزالة هائمة . تشعر بحب عميق لها . . تود لو تراها .. لو تعانقها . . لو تقول لها افعلي كل ما ترينه بعين قلبك . . فليس تخطيء القلوب .

الرجل المهيب . . الضابط الكبير يقول لها :

– سنضع اسمها في دائرة استعلامات الجيش الشعبي. . وسيأتينا الرد . . اطمئني .

لكن الرد لايأتي من الجيش الشعبي . . ولا من التنظيم النسائي ولا من أي أحد تتوقع منه سامية الرد .

جاء الرد من باسيل . . رسالة تركها لسامية لاتدري لماذا .

« فادية ذهبت مع الصحفيين . . ومع المصورين المتطوعين إلى الخطوط الأمامية في الجبهة » .

ويبرز أمامها سؤال استفهام كبير : هل ذهبت مع باسيل أم وحدها . ؟

* * *

صفحة فارغة من أصل الكتاب الورقي
(عازلة بين فصلين)
عادة من عادات بعض المطابع
لا تبدأ فصلاً جديدا إلا على رقم صفحة فردي
(أو على صفحة تتوافق وضعيتها مع غلاف الكتاب)

الفصل التاسع

الحرب . . . الحرب . . . أحرقت الحرب سفنها إلى الشاطيء الآخر . . أغرقتها في عباب بحر تغوص فيه كل ساعة . . كل لحظة . . إلى القاع . إنه اليوم الثالث للحرب وموجة الحماسة بدأت تنحسر . . فالإذاعات متناقضة . . متضاربة . الإذاعة المحلية تمتطي موجة التهويل والتطبيل . . لماذا ؟ تود لو تصم أذنيها عنها . إذاعات أخرى معادية وغير معادية تعطي أنباء اندحار وانحسار . ياللوجع في الصميم من قلبها . الناس يتلاطمون في لجج بين الشك واليقين . . بين التصديق وعدم التصديق . هل يعقل أن ننهزم ؟ نحن . . وأعدادنا الهائلة التي تفوق أعدادهم ؟ نحن أحفاد البواسل من خالد وصلاح الدين ؟ نحن الذين

مازلنا نتحفز حوالي ربع قرن للانقضاض ؟ أين البسالة والرجولة ؟ أين الشهامة والكرامة ؟ لا . . القصة قصة تفوق حربي وسلاح . . هل يعقل إذن أن نخدع وأن نضلل؟ .

سامية تبدأ تميل إلى الصمت بعد أن كانت تتكلم . . وتتكلم . . باطلاً أكثر منه حقاً . الجرح الذي انفتح في فؤادها مع بدء الحرب أصبح أعمق . . وإحساسها بألمه بالتالي أكبر . ليت أن الناس من حولها يعملون ولا يتكلمون. تكلموا كثيراً في الماضي والآن جاء دور الفعل . إما أن يعملوا . . وإما أن يصمتوا . يثقل رأسها حتى كأنه حجر طاحون . . في دوامة العذاب الداخلي التي تتسع وتتسع تدخل . هذه الأخطاء التي بدت أمامها كما لو كانت مغطاة بورق هش أطارته زوبعة . كم يحتاجون من زمن لاصلاحها . . لإعادة البناء من جديد . وهي بالذات . . مادورها ؟ هل يكفي أنها تقدم خدمات في مستشفى أو مساعدة لأسر الشهداء ؟ هل يكفي أنها تبعثر عواطفها . . . وتدور من مكان إلى آخر تحمل القلب الجريح ،؟ لابد أن يكون لها دورها الثابت والواضح لتعمل من خلاله . لابد أن

تعثر على وجه لها بين الوجوه . والأمد طويل . . طويل . . والمعركة لايمكن أن تحسم بهذه السرعة والبساطة لهم . . أو عليهم . . ليس من أجل أن تتحرر الأرض فقط بل من أجل أن يتحرر الإنسان . الأرض هامة . . لكن الإنسان هو الأهم .

ترى الناس يدورون في حلقات مفرغة . . يحملون سلاسلهم ولا يقدرون أن يبعدوا عن نقاط الدوائر . لو أن قوة عظمى تحطم هذه الدوائر . . تفك الأغلال . . تجعل الناس ينطلقون ليرتدوا وجوههم الحقيقية . . . ليأخذوا أدوارهم الحقيقية .

أبوها كان يقول : لو حاربنا سننتصر . لأن الحق معنا.وكان يقول كلاماً كثيراً يقطر بالتفاؤل والثقة والأمل. . الأولون ضللوا الآخرين . . كلنا أصبحنا تائهين . . سامحونا أيها الآباء . . اعذرونا إذا قلنا لكم إن من لايكون مع نفسه لايكون معه أحد . . وأن النصر ليس كلمات معسولة إنما إرادة حازمة .

وكريم . . أين أنت ياكريم ؟ احتياجي إليك ليس احتياج امرأة لرجل . . زوجة لرجل . . إنه احتياج من يخبط في الظلام إلى ضياء قنديل .

لكن كريم لم يأت . . والإتصالات انقطعت . . والعاصمة غرقت في بقعة مسيجة بأسلاك شائكة غيرمنظورة.. يسكنها خوف هو أكبر من الوهم .

سامية تفكر بأن تسافر إليه . . . الفكرة تتلاشى فور أن تولد . من الذي سيغامر بالخروج من مدينة يخيم على سمائها الحرب ويهدد أرضها العدوان ؟ صحيح أنها كيلو مترات وأنها لن تبتعد أكثر من يوم وليلة إلا أن المطارات مغلقة وخطوط المواصلات البرية توقفت . . وهي بسيارتها ليست قادرة على المجازفة وحدها . . تسافر إليه . . لاتسافر . . تسافر . . لا . . لا . . في رأسها تنمو صفائح سوداء تنسدل تباعاً . . كل يوم صفحتان . . كل ليلة أكثر من صفحة . تخشى أن تطمس الحرب ذاكرتها . . تعزلها الصفائح عنه . زوجها لايزال . . وهي

تحمل اسمه . . وعليهما مهما حصل أن يواجها مصيراً واحداً . صمته عن المجيء يعذبها . تتذكر أمنية لهما رسماها من أجل هذا الصيف . . .عندما ظننا أنه آخر أصياف النفي : . أن يلتقيا في بلد جميل من بلاد العالم . . روما . . أو الشواطيء الإسبانية ينهيان فترة قاسية من حياتهما ويغسلان ألم فراق سنين وتكون رحلة تبعده عن همومه . . وتخلصها من روتين حياتها اليومي الذي أصبح ضريبة باهظة.الأمنية تحترق . . مثل طائرة ورقية يعبث بها أطفال يملكون أعواد ثقاب . الأمنية تتبخر . . في سماء ساخنة تتلاشى .

تقوم إلى — نتيجة — شهر حزيران . ترى فوق الرقم ٦ دائرة حمراء . . هي اشرت على هذا الرقم . . حددته له . . ولنفسها . الدائرة الحمراء بركة من الدم . . . وهي تسبح فيها . تراه قبل أن تعلن الحرب سبقها إلى هناك ؟ هل هي مصادفة عبثية أم تدبير قدر ساخر ؟ .

ولنفترض ذلك . . أية مهزلة أن يبقى في انتظارها

هناك وأخبار الحرب تملأ العالم . . ومهزلة أكبر أن تحاول اللحاق به . عندما كلمها على الهاتف آخر مرة لم يكن منه أي إشارة للسفر . تراه كان يريد أن يفاجئها ؟ يبرق لها فتطير إليه ؟ .

سامية تتعب من التفكير . لاجدوى فالحرب تنسف كل مخطط ذكي وتفوق مفاجآتها كل حساب . تشعر أنها في دائرة . . . محبوسة ضمن دوائر أخرى . . وإن عليها الآن أن تثبت ، قطب المحور . الأخبار التي غلفوها اخذت تعرى . . والناس بدأوا يسخطون وينقمون . ويستسلمون لردود فعل عكسية. السكين وصلت إلى الرقبة . . ولم يعد هناك من إنقاذ سوى أن تتمرد الضحية . . أن تغامر بالإفلات من الجزار . . حتى لو اقتطع جزء من أجزائها . . عضو من أعضائها .

في بيتها تنبش كل الأشياء . تبحث عن شيء لاتعرف ماهو . . تتوقع أن تجده فتعرفه . حاجيات كريم كما هي . . منذ غادرها . خزانة ملابسه . . . أوراقه . . أدراجه المليئة بأشيائه الخاصة . ومحفظة من الجلد السميك لم تحاول مرة

أن تخمن ما فيها . تحمل المحفظة . . تجدها ثقيلة . . تستبد بها الرغبة في أن تعرف ما بداخلها . النور مطفأ . . والمدينة كلها تغرق في الظلام . وليس الاضوء شمعة يحتضر . تمد يدها . تلمس معدناً أملس . تشهق . . إنه مسدس . تخرجه ذاهلة . . تتفحصه . . تقلبه . لاتدري كيف ضغط اصبعها على الزناد . . . ولا كيف أطلقت النار . الرصاصة تخترق الجدار . تحدث أزيزاً مخنوقاً ثم ترتد لتحفر البلاط . تصرخ . ترمي المسدس وتتهالك إلى الأرض في شبه إغماء . الباب يطرق بيد عنيفة . هل هم الجيران أم أحد المتطوعة من الشبان الذين يجوبون الشوارع ؟ تتجاهل . الطرق يزداد عنفاً . يصل إليها صوت تعرفه :

— افتحي ياسامية . . افتحي . . أنا باسيل .

وتتنهد بارتياح . تقوم متثاقلة لتفتح الباب ، باسيل يلهث . . وكان يرتجف :

— سمعت إطلاق نار . . لعلهم بعض الذين يثيرون الذعر بين الناس ؟

ـ إنني أنا التي اطلقت النار .

ـ أنت ؟ سامية ؟ لا أصدق . .

ـ كل شيء في الحرب محتمل التصديق . قل لي ماذا تفعل ؟ وأين فادية ؟

ـ ألا تدعينني الجلوس أولاً ؟

ـ وأنا أكثر منك بحاجة لأن أرتاح . أعصابي تمزقت مع هذه الطلقة غير المقصودة . عثرت على مسدس عندنا مصادفة . . وجربته .

ـ الله سلم . .

ـ ما الذي في يدك ؟

ـ أشياء هامة جداً . بالنسبة لي . . أرجو أن تخبئيها لي عندك . طلبوا مراسلين حربيين للجريدة . . وأنا استنفرت نفسي . . وفادية تطوعت لمهمة التصوير .

ـ حدثني بتفصيل أكثر . . لم أنت على عجل ؟ ألم تطلب الجلوس ؟

ـ لم أسترح عشر دقائق منذ ثلاثة أيام بلياليها . . وضعنا هناك محرق للأعصاب . . يطير النوم من العيون .

ومع ذلك علي أن أذهب . انتهى وقت الراحة ياسيدة سامية .) انتهى بالنسبة لنا جميعاً .

ـ كنت تناديني باسمي وحده . . أليس هذا أفضل . ؟

ـ لهفي عليك حطمت الحواجز بيننا . هذا من مزايا الحرب أيضاً . . إن كان للحرب مزايا .

ـ ألا تعتقد بهذه المزايا ؟ أنا أصبحت أعتقد بها .

ـ لا أدري ياسيدة سامية ... أو سامية ماذا أقول . شيء ماينبت داخلي . . مثل أخطبوط عملاق أراه يلتهم كل ما حوله . لا أستطيع أن أتبينه الآن لأنه مغلف بالضباب . . لكني أحس به ينمو كلما مرت ساعة ونحن في حالة الحرب . . من كان يظن ؟ . من كان يظن . . ؟ آه . . لاشيء . . . لاشيء . .

ـ ماذا ؟ قل لاتخف عني هذا الشيء ياباسيل . ألم تقرر أن الحرب تكسر الحواجز ؟ .

ـ أقول من كان يظن أنني أنا أصبح المراسل الحربي الأول ؟ وأن اسمي يصبح الأول في الجريدة ويبدأ يلمع كصحفي ناجح ؟

ـ وفادية . . كيف ذهبت معكم ؟ وهل سمح لها بذلك أم أنت أخذتها من تلقاء نفسك ؟

ـ لا أدري كيف أقنعت رئيس التحرير رغم أنها ليست صحفية . لم يكن لي علاقة . يبدو أن حماستها كانت وسيلة اقناعها . أنا نفسي اقتنعت بجدوى ذهابها وأنها قادرة على القيام بعملها . تقول إنها هاوية تصوير . . لعله صحيح .

ـ هذا صحيح . ولقطاتها تدل على براعة وذكاء . . ثم . . رائع أن تذهب في هذه المهمة . . . مدهش . . لكن أمها المسكينة في غاية القلق . . تكاد تموت من أجلها . . تعتبرها مفقودة .

ـ إن بقي لدي وقت سأمر بها لأطمئنها .

ـ حسناً . . لكن إياك أن تقول لها إن ابنتها على خطوط النار .

ـ رأيي هو العكس . لتعرف هذا أفضل من أجل النتائج . وهكذا أيضاً ايعرف كل الناس أنهم مدعوون

للمشاركة في دحر هذا العدوان . . . كل حسب استعداده وامكانياته .

ـ أو تظن أنه من الحكمة ذلك مع أم مثل أم فادية ؟

ـ هذه المرة لن أقول لها . لكنه يجب أن تعرف . . .

ـ إلى اللقاء ياباسيل . . .

ـ وداعاً ياسامية .

ـ لاتقل وداعاً . . أتشاءم من هذه الكلمة في مثل هذه الظروف .

*　*　*

الليل قاس . الليل طويل . الليل أسطوري أسود يجثم فوق المدينة . سامية لاتطيق الصمت المتفجر رعباً ودموعاً وأنيناً . المرضى في المستشفى لاشك افتقدوها . أعصابها متلاشية . . وخروجها في هذا الليل بسيارتها يحتاج إلى ماتبقى من احتمالها . لابد أن تذهب على أي حال . تهبط الدرج ببطء وبطارية صغيرة تنشر دائرة ضوء زرقاء باهتة . أمام الباب الخارجي تتذكر بطاقة السماح بالتجول التي

أعطاها إياها مدير المستشفى — ممرضة متطوعة — الدفاع المدني — بينما ترجع لتأتي بها تزعق صفارات الإنذار . غارة جوية ليلية . . والمدافع المضادة المركزة في أعلى قاسيون تبدأ بمطاردة طيران العدو . يتعالى بكاء أطفال . . . وينتشر الذعر كالحريق . . تهبط الدرج بسرعة . لامخابىء مخصصة كمخابىء بل أبنية مصنوعة بتأنق كما لو أنها مدينة آمنة مطمئنة باستمرار وغير مهددة بعدو . القبو تسكنه امرأة بسيطة الحال شبه مشلولة . سكان الحي يقتحمون بيتها مثل زوبعة . . يحطمون الأثاث البسيط ولا يراعون حرمة لأي شيء . . والمسكينة تضرب كفاً بكف والدهشة عقدت لسانها .

— هذا حقنا . . . هل يريدون أن نفقد أرواحنا ؟ .

— مضطرة لأن تفتح لنا الباب . هذا ملجأ وليس بيتاً . الغلط من الحكومةأن تسكن الناس في الملاجىء .

وترد أصوات :

— في هندسة المدينة أنها ملاجيء . . لكنها بيوت . . وبيوت الناس .

ـ الذوق مطلوب والمرأة فقيرة .

سامية تدخل وراءهم لا لتحمي نفسها . . بل لتجعل شيئاً من النظام يسود هذا البيت الملجأ، وتنقذ ما يمكن انقاذه من أجل المرأة المريضة المسكينة . الحرب تؤلف القلوب تماماً كما تجعلها قاسية . في االلحظات المحرجة لايعود المرء يعرف ماذا يتصرف وهؤلاء أناس فقدوا اتزانهم . ماذا جرى ؟ لم تقع قذيفة واحدة . . كل ما هنالك مدفعية مضادة . . ومع ذلك فأكثرهم يرتجفون . . والنساءبصراخهن واحتجاجهن يشعلن نار الخوف .

تتمنى سامية أن تصرخ بهن . . أن تصفع العصبيات منهن على وجوههن . لماذا ؟ حقنا أننا تدربنا طوال هذه السنين وعبأنا جهودنا لمواجهة العدو . بل ربما خضنا أكثر من معركة . فلا أقل من الإحتمال . والنساء خاصة . . حقهن لو سكن القرى الأمامية المتاخمة العدو . فحيث المرأة يكون الثبات في الملمات والمواجهة الصحيحة تعجز أكبر الغزاة . . لكن الأراضي المتاخمة للعدو شبه فارغة . . والنساء قلة . . وإن وجدن فهن جاهلات شبه أميات ونعيب

غراب واحد كفيل بأن يجعلهن يطرن مثل عصافير الدوري .

أي ألم ينضح من قلب سامية . . الأفكار تتزاحم في رأسها . كأن رأسها ينشق . لماذا لم تكن تفكر بكل هذه الأمور قبل الآن ؟ هل تستطيع أن تتخلص من هذه الأفكار بعد الآن ؟ وإذا كسبنا الحرب . . . وربما كسبناها من يدري فأيام ثلاثة ليست كافية . وبقهقهة شيطان في أعماقها : هل هذا ممكن وشعبك لايجد من يقوده ؟ وهذه الفوضى تمزق الناس وتضربهم فوق رؤوسهم فتجعلهم كالدائخين .

فرق المقاومة في المدينة ينصحونها ألا تبتعد عن منزلها . . لعل هذه غارة للتمويه وبعد ذلك يقصفون . . لاتهتم . . تصر على الخروج . . فالرجل المهيب هتف لها بأن جموعاً كثيرة من الناس ينزحون عن الحدود . . هذا أخطر شيء . . الهجرة من الأرض . وقال لها علينا أن نحتويهم ونهدئهم حتى نعيدهم إلى أرضهم . . لانريد فلسطين أخرى . . ومأساة أخرى .

أمام سيل متدفق من الناس مع متاع قليل . . وذعر

كثير تقف سامية مذهولة . . لايمكن للمرء أن يكون محايداً . . عواطفها تتدفق مع هؤلاء التعساء سواء عن جهل نزحوا أم عن سوء تصرف . يجمعونهم في بناء من عدة أبنية خصصت لمناسبات المعارض والمسارح . هل الفرح سيدخل مدينتها هذا العام ؟ الهواء يهب بارداً . . وضوء القمر صاف كأنه نبع فضة . . يوزعون طعاماً وبطانيات وحوائج ضرورية . . . وتنسحب إلى بيتها مع خيوط الفجر . . لكنها رغم إرادتها تحول طريقها إلى المستشفى . عدد النزلاء ازداد . . تحس أنها تتمزق قطعاً قطعاً . . قطعة في الجبهة . . ثانية مع الذين نزحوا . . ثالثة مع أسرة جابر . . رابعة في المشفى . . والخامسة . . والسادسة . . وهكذا . . أما الرأس فيظل مع كريم . . وناجي . . آه ياناجي . . تلك القلب النابض هل تعود لتأخذه . . ؟

في المستشفى تفاجأ برجاء . . شاحبة صامتة مثل طفلة مذنبة :

— سامية . . .

— رجاء . . . ما الذي أتى بك إلى درب المستشفى الصعب ؟

— أنسيت أن التمريض كان من أهدافي ؟ ثم أنها حالة حرب . . .

ماذا تذكر ؟ المأساة التي سجنت رجاء نفسها فيها ومن أجلها فكرت بالتمريض ؟ إذا كانت رجاء قد خرجت من مأساتها بهذا الأسلوب فهو أمر عظيم . ليس المهم أن ينهزم الإنسان من الخارج أي أن تغلبه الأحداث وتقهره . المهم ألا ينهزم من الداخل . . والحرب . . هل تحقق المعجزة ارجاء ؟ .

— حسناً . . لكنك لم تتمرني بعد .

— رئيس المستشفى هو الذي يوجه لي ملاحظاته . . اعتبرها دروساً . ثم أنني سجلت دورة استثنائية التمريض .

يبدو لها وجه مدير المستشفى الكهل . . نبيلاً . . صافياً . . صادقاً كوجه نبي . زادته الحرب نقاء وإنسانية . وهو معروف في الأحوال الاعتيادية بأنه نذر نفسه لمهنته فكيف

الآن ولا أسرة تشغله ولا أولاد ؟ ينام في المستشفى . . هذا ماقالوه . . وفيها يأكل . .

— إذن أنت في رعايته .

— ليس هذا وقته ياسامية لكني أعني ما أقول . لو أن الحرب ستخطفني بعد يوم أو ليلة وأعطتني الحياة أمنية لكان الدكتور رأفت هو هذه الأمنية . . رغم الحرب.. وكل شيء ياسامية شعرت إلى جانبه بالاطمئنان . ليته يشملني إلى الأبد .

تكاد الكلمات تفلت من سامية :

— وأعوامك العشرون يارجاء ؟ والنار التي اشتعلت في البيادر . وحب الدكتور سالم و . . و . . . كل هذا هل تطامن ؟ هل هدأ ؟ .

— حرب أطفأت حرباً . . .

— اسمعي يارجاء . . ليس هذا وقته كما قلت لكنني أرجوك أن تكوني صادقة مع نفسك . . حان وقت الصدق يارجاء وإذا كان علينا أن ننسى أنفسنا من أجل قضية كبرى فعلينا أن نكون صادقين معها .

ـ حتى الآن . . هذا ما أعرفه عن نفسي .

تفكر سامية : فتيات كثيرات ينتقلن في المستشفى كفراش حائر . هذا جيد . يمكن أن يساعدنها ، ويمكنها أن تنسحب وعليها أيضاً أن تبتعد عن جو رجاء .

ـ لاتقولي للدكتور رأفت أنني جئت . . على أي حال سأحاول أن أعود .

تختفي سامية من المستشفى .

* * *

في البيت . . بيتها . . أو المحطة التي تفتقد القطار تجد بطاقة من فادية . تسرع إليها في منزلها . الام محطمة جزعة . . وفادية محطمة أكثر .

ـ أهلاً سامية .

ـ لماذا عدت يافادية ؟

ـ أعادوني . . مع أول سيارة عندما اشتد القصف. ويقولون عن أنفسهم إنهم تقدميون ويؤمنون بتحرر المرأة . مهزلة . . وأول المتحمسين لرجوعي كان باسيل . . أنا أكرهه . . ياسامية . . أكرهه .

– ألأنهم خافوا عليك من الخطر ؟

– وهم ؟ ألا يتعرضون لهذا الخطر ؟ ما الفرق ؟

– أنت فتاة يافادية . . . وليس لأملك سواك .

– وهل كانوا أخذوا عني بياناً عائلياً ؟ أنهم لايعرفون أوضاعي . .

– المهم الآن أنك رجعت . . لدينا في المدينة ألف ألف عمل نقوم به . ما الفرق ؟ كل مانفعله هو خدمة لبلادنا .

– لكني كنت متحمسة جداً لهذا العمل . . حتى النشوة . ومجموعة الصور التي إلتقطتها مذهلة . . تكفي لإدانة العدو لو وزعت في كل بلاد العالم .

تقوم فادية وقد خف غضبها لتخرج مظروفاً سميكاً مهترئاً تبعثره أمام سامية :

– انظري – تقول فادية وقد خف غضبها .

انظري كيف يعتدي الجنود الاسرائيليون على امرأة بدوية تحمل صفيحة ماء . . وهنا كيف يسوقون الأطفال

بأعقاب البنادق . . وهنا الأسرى ومن بينهم اسرائيليون . لايميزون جنودهم لأنهم سمعوهم يتكلمون العربية . هم يهود شرقيون ، على أي حال. وهذه هي الفظائع التي يرتكبونها في القرية العربية الأمامية التي أعطوها اسماً عبرياً . . و . . . .

لاتكاد فادية تتم كلامها حتى يقرع الباب بعنف . . ويدخل باسيل مثل إعصار . . .

— رجعت أم لم ترجعي يافادية . . . هذا شأنك . . ولكن لماذا أخذت مجموعة الصور لماذا ؟

تذهل سامية للمفاجأة . أما فادية فتتحدى .

— إنها لي . . من حقي . . أنا التقطتها .

— لكنه يجب أن أستفيد منها في عملي كمراسل . . وكان اتفاقنا أن أسجل أنا وتصوري أنت .

— ألغينا الاتفاق . . ماذا تريد ؟

— الجريدة لن تقبل . . وأريد الصور بأي ثمن .

— لاعلاقة لي بالجريدة . . ولن أسلمها لك .

يقترب باسيل من فادية . . مثل نمرة شرسة تتحداه أكثر . يهجم على مظروف الصور ينتزعه عنوة . . ثم يصفحها .

ـ سنوزعها على وكالات الأنباء في العالم وستخدم قضيتنا أكثر من السلاح . هل أدركت الآن لماذا أريدها ؟

فادية تنسحب مكسورة . سامية وقد أخذتها المفاجأة لاتدري ما تفعل .

ـ أسأت إليها ياباسيل . . ما هكذا تعامل فتاة واعية مثل فادية .

ـ عنيدة . . ومستبدة برأيها . . في ظروف كهذه لايجوز للانسان أن يتصرف افرادياً . المصلحة للمجموع .

ـ يجب أن تعتذر منها .

ـ سأفعل . . عندما أعود من مهمتي .

يضرب الباب بعنف . لايلبث أن يعود بعد دقائق وهو يلهث :

— سامية . . أريد أن آخذ الأوراق التي أخفيتها عندك .

— لابأس . . سأعود إلى بيتي حالاً .

* * *

سامية تقنع فادية بالذهاب معها . في نيتها أن تلتقي ولو سريعاً بباسيل ويصفو الجو بينهما . دقائق ويأتي باسيل مسرعاً . ينظر إلى فادية نظرة عتب طويلة :

— اعذريني يافادية . . كنت قاسياً معك .

— لولا الحرب لكان لي موقف آخر .

باسيل يأخذ الرزمة من سامية . ينبشها . يخرج منها مسدساً . يدسه في جيبه . يرمي بالأوراق إلى فادية . ويخرج مع سامية :

— هل أوصلك إلى مكان ما ؟

— إلى وكالة الأنباء الوطنية من فضلك .

يقفز باسيل ويغيب عنها كالبرق . في الشوارع تتجول وحدها . . لاتدري ما تفعل وإلى أين تتجه . لا أحد

يسألها مالها وما عليها . . هي تسأل نفسها . . لاتعثر على جواب . الإذاعات تثقب الآذان بالأخبار . . أخبار متناقضة . . أخبار مشوشة . . تتذكر قولاً لهنري ميشو : (أكتب إليكم من نهاية العالم . . يجب أن تعلموا ذلك . غالباً ما ترتجف الأشجار وتسقط الأوراق . إن لها عدداً هائلاً من الأعصاب ولكن ما الفائدة ؟ ولم يعد هنالك شيء مما بينها وبين الشجرة) ؟ .

لا . . الأغصان مرتبطة بالشجرة . تبدو وقد سقطت . . لكن خيوطاً خفية تشدها إليها . الناس كلهم مشدودون إلى الشجرة الأم على الرغم من كل مظاهر سقوطهم عنها . يجب أن تحدث نفسها كذلك . . أن تؤمن بذلك . . حتى لاتنهار .

الساعة الثانية عشرة ظهراً . تتسمر في مكانها . الإذاعة تدوي في أذنها :

— الرئيس عبد الناصر يعود إلى الحكم . رأس الشجرة لم يسقط . . . رأسها أيضاً لن يسقط . . وآه أيتها الأم هنية . . إنها نبوءتك .

تنشرط دموعها . لمن ادخرنا الدموع ؟ لمن ادخرنا القلوب طويلاً ؟ حسناً لم انطلاقنا . . وهنا نحن نقع فريسة .

جولة واحدة بين النازحين تمتص ثلاث ساعات . . أو أكثر . . لاتدري أنها الساعة الرابعة بعد الظهر :

— الإتحاد السوفيتي يقطع علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل . . ويحملها كافة المسؤوليات تجاه خرقها الفاضح لمقررات مجلس الأمن — هذا ما تردده الإذاعة .

ودول كثيرة تحذو حذو الإتحاد السوفيتي .

هذا ما تقوله إذاعات أخرى .

الساعة الرابعة والنصف : جميع المآذن تنطلق بصوت واحد . . . بابتهال واحد . . يدعون إلى الله أن يرفع البلاء عن البلاد والعباد . . أجراس كنائس تقرع .

دمشق . . دمشق . . تشعر سامية أنها دمشق . . يادمشقي الحبيبة . . ياتراب أمي وأبي . . يامهد طفولتي ومرتع صباي . . يهددونك أيتها الغالية . يترصدون أسوارك . . يحاولون الإنقضاض عليك . . وأن يعفروا جبينك الناصع

النبيل بالتراب . دمشق . . . وشوارعك الخالية المغسولة تحت شمس حزيران وذلك الهدوء القسري يعصف بكل بيت فيك . يمطر صوت فيروز :

شآم ما المجد ؟ . . أنت المجد لم يغب . . .

وتمطر دموعها أيضاً .

تعود سامية إلى منزلها . دون أن تحقق في يومها أي شيء . . لم تأكل . . لم تشرب . . متعبة حتى العظم . . محطمة حتى العظم . مثل جندي مهزوم تعود . . عند الباب تجد فادية مثل قطة ضالة :

ـــ لم أنت هنا ؟

ـــ كنت سأذهب لو لم تعودي .

وتتعانقان . كما لو أنهما منذ سنة لم تلتقيا . أية عواطف تتدفق . . هكذا بلا سبب . . فادية تبكي . . سامية التي أمسكت دمعها منذ لحظات تتنهد :

ـــ مابلك يافادية . . هل أنت قلقة على أملك ؟

ـــ أمي بخير . . هي مع جاراتنا . . عدد كبير من

النساء . لكن الرجوع إليهن يضجرني . كل واحدة بصوت .. وبرأي . . جوقة نشاز . . لا أستطيع أن أندمج فيها .

— عودي إذن . ادخلي .

ومثل نخلتين مقطوعتين على ساحل مرمي تتهالكان :

— والعمل ياسامية ؟

— لاعمل . . سوى ما يمليه علينا ضميرنا وواجبنا .

— أريد أن التحق برجاء في المستشفى .

— ومن قال لك إنها هناك ؟

— أنت نفسك . . أنسيت ؟

— آه . . ذهني مشوش . . حسناً . . صباح الغد سيكون لك ذلك .

فادية وجعبتها المليئة بأوراق باسيل تنفرد بنفسها على ضوء شمعة . سامية تتمدد فوق سريرها تحس أنها تتأرجح حول الناس . . تتعلق بخيوطهم لتنقذ نفسها . في بئر عميقة هي . الجدران تتعالى. مياه ثقيلة تغمر جسدها . تصل إلى عنقها . تكاد تخنقها . يموت منها الصوت . تموت الحركة .

أنا العمق فيك ياناجي.أنا الصدى المحبوس الذي لم ينطلق بعد . تسترد حبها في صدره . تغيب فيه . ما أغرب ألا يجيبها بكلمة . . لايقبلها . . أن يظل جامداً كتمثال . كريم يمد إليها بحبل . تحاول أن تتعلق به . وجهه بلا ملامح ولا تعبير . يجرجها بصمت . جسدها موشوم وجبهتها جريحة . يلعق جرحها بشفتيه . يمسح فوق وشمها :

ــ الذين وشموك ماتوا ياسامية . . وأنا الذي سأداوي لك الجراح .

ــ ابعد عني . . أيها الزئبق الذي لايمتزج بشيء . كن عاصفة . . تياراً . . دوامة . أي شيء. دمرني . . حطمني . . اقتلعني من ذاتي لو قدرت.أفعل أي شيء .

ــ أنت جزء مني . . بي امتزجت.مني شربت حتى ارتويت . . وهاهي أفكاري تمطر فيك .

من أين يأتي صوته . تتلمس أسوار العذاب من صدرها . تتحسس وجوده المتغلغل فيها . الطفل الموعود في قلبها جف كدالية محترقة . . . . والماضي يوغل في البعد . أما الغد . . فهو مرهون بهذه الحرب .

سامية وهي تخرج من ذاتها تذعر إذ ترى فاديةفوق رأسها :

— ماذا يافادية ؟

— أوراق باسيل . . انظري فيها . . اقرئي شيئاً منها .

— أنت قرأتها . ماذا فيها ؟

— باسيل ياسيدتي سيصبح صحفياً أول في هذا البلد . بل كاتباً صحفياً ممتازاً . ملاحظاته هذه التي سجلها على نفسه قبل أن تنفجر الحرب . ثم تحليله لواقع المجتمع السوري وآفاقه . . وهذا النقد اللاذع للحياة من حوله . . كل هذا رائع . . ويهيئه لكي يتخاطف الناس الصحيفة التي فيها يكتب .

— لكنه كان يعتبر نفسه فاشلاً يافادية . . أقصد أنه لم يستطع أن يحقق أي شيء .

— ليته كان ينشر هذه الصفحات الصادقة التي تنبض بالحياة . كان ينشر كلاماً سخيفاً مزوراً لايدخل إلى فكر أحد . . ولا إلى قلب أحد .

ـ وهل تظنين أنه سينشرها بعد أن وقعت الحرب وحصلت المتغيرات الجديدة ؟ .

ـ وبعد أن أصبح مراسلاً حربياً . أليس كذلك ؟ ليته يكتب ما شاهده هناك وما عاناه بالأسلوب نفسه . . إذن لوصل إلى قمة الشهرة .

فادية تفتح ذهنها على حقيقة يخفق لها قلبها . هي تعرف باسيل أكثر مما تعرفه سامية بكثير. ستذكر كل ما رواه لها عن حياته ومعاناته من أجل أن يصبح صحفياً حقيقياً . ترى هل سيكون نصره كانسان من حيث هزيمته كمواطن في هذا البلد ؟ هل ستصهره التجربة لكي يغدو معدناً خالصاً . كم تتمنى لباسيل ذلك .

فادية تقول بنبرة حادة :

ـ لو أصبح صحفياً مشهوراً لتزوجته . ما رأيك ياسامية . ونجوب العالم دون أن نملك سوى ملابسناوأوراقنا وجعبة أفكار وطموحات و . . .

ـ كنت تقولين أنك تكرهينه . ماذا أسمع ؟

فادية تنفجر بضحك هستري لاتلبث سامية أن تشاركها فيه .

* * *

غفوة الصباح التي تظلل بيت سامية الصغير تتمزق مثل غلالة رقيقة . سمير والذي يطرق الباب يقف بكبرياء وسامية تفيق مذعورة كما لو أنها في كابوس .

— فادية . .

— سلاح . . أنا جاهزة .

فادية تقفز مثل لبوة صغيرة تفتح الباب .. تفاجأبسمير .

— أهذا أنت ؟

— وليس مستغرباً أن أكون هنا . أما أنت كيف جئت من منطقتك ؟

— لاشيء في منطقتنا . هدوء تام والمصايف تؤوي عشرات المواطنين .

— تقصد الهاربين من وجه الحرب . لافرق . ماذا رأيت في الطريق ؟

ـ لا أكثر من سيارات عسكرية من اتجاه الحدود مع العدو. في سهل الزبداني حصلت معركة جوية وأسقطنا طائرات . رأيت بقايا حطامها المحترقة .

ـ أسقطنا طائرات . . إسقاط طائرات . . تقول إنك رأيتها محطمة .

ـ نعم يافادية . . لم السؤال ؟ لم الشك . . ؟

تفتح فادية الصحف . . صحف الأمس . قبل الأمس . بالخطوط العريضة يعلنون عن إسقاط الطائرات . كأن الطائرات تحمي أراضينا . . كأن الطائرات تسترد شبراً من أرض . . الشك ينمو في داخلها كشجرة العذاب . . تبتلع كلامها الكثير مثل ثمرة زقوم .

ـ لم أتوقع أن أراك هنا . . كنت سأتصل بك عن طريق سامية .

ـ أين هي ؟

سامية مرتمية على الأريكة . لاتجد مفراً من الإذعان لهذا الواقع الصعب . المياه أيضاً مقطوعة . . تأخذ زجاجة

من الثلاجة تسكبها على يديها وتمسح بقطراتها وجهها مثل بدوية في صحراء . ثم تنضم إليهما .

– قل لي ياسمير . . بماذا ستساعد . اقترح أن تجعل الفندق مركز تبرعات أو تسجيل لأسماء المتطوعين للدفاع المدني . ربما امتدت الحرب . . الأنباء تقول إنهم وصلوا إلى منطقة الجولان . . ربما احتلوا قسماً من الأراضي المتاخمة لمنطقتكم .

سمير لايجيب . يضع كفه على خده وينظر إليها بعمق :

– لم لاترد ياسمير ؟ فكلنا هنا في حالة استنفار . صحيح أن أحداً لايدعونا لكننا نشعر بمسؤوليتنا .

فجأة تتذكر شيئاً ما . تميل إلى سمير وتهمس :

– وماذا عن الأسلحة المخبأة عندك . ألا يمكن الإفادة منها ؟

يأخذ سمير وضعاً جدياً للغاية :

– الأسلحة ياسيدتي كانت قد رصدت لمهمة أخرى أعتقد أنه لا يمكن التفكير في مثل هذا الأمر الآن . . على أي حال عادوا وأخذوها .

سامية تصاب بدوار . . دوامة مخيفة تسحبها إلى دوائر من نار ودخان ورعود . إذن لقد كان كريم معهم . . وكان يدبر شيئاً ضد البلاد وهؤلاء المرتزقة من السماسرة والخونة كانوا شركاءه . . أواه يا كريم . . لم تفجعني هكذا وفي مثل هذه الظروف ؟ . لم تحطم صورتك إلى هذه الدرجة في رأسي ؟ ليتك تحطم هذا الرأس برصاصة فأستريح . دوامة العذاب تنقلها إلى حيث يجب أن يكون كريم . في الصف الأول من المواجهة . مع إخوانه ورفاق دربه يناضل ضد العدو المشترك . تجد مكانه فارغاً وعليه قرار اتهام .

— لم تجبني ياسمير . . متى سترجع إلى منطقتك وماذا ستفعل ؟

بالحدية نفسها يقول سمير وهو يبرز أوراقاً وجواز سفر :

— أنا . . أنا مسافر ياسيدة سامية . قررت هذا منذ زمن . والآن حان وقت التنفيذ . كنت أريد أن تساعديني فتسافر فادية معي إلى أمريكا الجنوبية . نتزوج .. ونجني أموالاً طائلة . إن لنا هناك أعمالاً . . ولسنا أول من يغترب .

بتهكم لاذع وبمرارة تجيب سامية :

— وتتركان الوطن هكذا وهو بأمس الحاجة إليكما ؟ حسناً . . أليست لك أحلام أخرى ؟

— افهميني جيداً ياسيدة سامية . أنا لم أقرر ذلك الآن . انظري إلى جوازي . . لايزيد أو ينقص شخص أو اثنان . . ومصير بلاد لايتوقف على فرد .

— الفرد هو جزء من المجموع ياسيد سمير . . وأنا أستغرب هذا المنطق الآن .

— لكنها قضية مصيرية بالنسبة لي . مستقبلي متوقف عليها .

— ومستقبل بلادك ؟ ألا يهمك ؟ على أي حال أنا أعطي رأيي لاأكثر ولا أقل . . وفادية أمامك تستطيع أن تتفاهم معها .

قبل أن تنهض تلمح جواز سفر لبنانياً . . هذا ما أفاده من اتصاله بأولئك الناس .

اللقاء بين فادية وسمير ينتهي بسرعة . سمير ينسحب بذل وصمت وفادية تضحك مثل مجنونة . سامية تذهل :

ــ ماذا جرى يافادية ؟ لم لم تذهبي معه ؟

ــ لم أوافق على الفكرة من أساسها . سمعت حواركما وأنا في المطبخ . شيء ما كالرصاص يثبت أقدامي هنا . . في أرضي . . لا . . لايمكن أن أوافق .

ــ وسمير . . وحبك المهووس له ؟ وكل ما فعلته من أجله ؟

ــ كله كان زبداً ياسامية . . تكسر على هذا الصخرة العاتية التي هي الحرب . لم أكن أعرف نفسي جيداً . . ولم أكن أرى سميراً جيداً . أنا لا أحب سمير . . وسمير لايصلح لي . . إنسان أناني ومحدود الأفق لايفكر إلا بنفسه ومصلحته الذاتية . وأنا . . أنا أتفجر الآن حباً لكل الناس. . وعطاء لكل الناس . . لا . . لايمكن .

ــ ألم تقولي منذ قليل أنك لو تزوجت باسيل لتنقلت معه كل ارجاء العالم ؟

ــ صحيح . . أنا قلت هذا . . نجوب العالم من أجل قضية هي قضيتنا . . من خلال مهنة هي الصحافة . نرى

بعيوننا نحن . . ونكتب بأقلامنا نحن . . ونتحدث بألسنتنا نحن. أما أن أرمي نفسي هكذا في المغترب مثل بضاعة لاتجد سوقها في بلادها فلن أفعل.ثم أنني استغرب لم قلت إنني أحب سمير . أنا لم أحبه قط . . كانت فورة شباب لا أكثر .

تتنهد سامية بعمق . تشعر ارتياحاً يشبه رذاذاً منعشاً يرطب جسدها الظامىء وروحها العطشى . . فادية إذن ترفض سمير . تشعر أنها كبرت . وترفض أن تبتعد عن شواطئها لتبحر معه في المجهول . فماذا عنها هي سامية ؟ هل تسمح لنفسها بأن تفكر بالابتعاد عن بلدها ؟ هل تغامر ولو بالفكر والحس والشعور مع ناجي في جزر الغربة المنفية ؟

تنتشل سامية نفسها من دوامة تفكيرها التي تشدها إلى القاع .

تترك فادية في البيت .. وتخرج إلى الشارع دون هدف .

الفصل العاشر

الساعة التاسعة . . اليوم التاسع من حزيران .

سامية في دوامة العذاب . تفتح صندوق بريدها . رسائل مكدسة فيه من قبل الحرب . . من صلاح . . وفائز . . ومن صديقات . . وبطاقات دعوات . . ودعايات سياحية وتجميلية . منذ أسبوع . . أسبوع فقط ، كانت الحياة تجري في تيارها دون أن يتوقع أحد ماذا سيحدث . . لعل المهتمين بالسياسة كانوا يتوقعون . . وكريم بينهم . . أما هي . . وهؤلاء الناس جميعاً الذين أسلموا زمامهم لغيرهم فلم يكونوا ليعلموا . . ولم يكونوا ليهتموا بأكثر من نهر الحياة أمامهم . . بهمومهم الخاصة . . بمتاعبهم ومعاشهم اليومي . صلاح يدعوها لأن تأتي إلى الكويت . .

فائز إلى حلب . . ربما يناديانها الآن . . يصرخان بها . . وكل منهما يشعر بأنه عقد صفقة رابحة في أنه ابتعد . ليعقدوا صفقاتهم مع الملائكة أو الشياطين . لن تهتم بعد الآن . . ان يتحرك فيها وتر واحد يشدها إلى عالم غير هذا العالم . وهذه الرسائل من الصديقات كلها تلح على موقف واحد للمرأة في الحياة وهو أن تكون امرأة وكفى . . أما هي . . فأنوثتها لم تعد همها الأكبر . . ولا متطلبات هذه الأنوثة هي ما يشغلها . . تسكن في كوخ . . في معسكر . . في مستشفى . . لايهم . ترتدي لباساً عسكرياً أو ثوباً جافاً وتكون بلا زينة على الاطلاق لايهم أيضاً . المهم أن تعثر على نفسها التي ضاعت منها طوال هذه السنين .

تنتهي من الرسائل ما عدا واحدة . . معنونة بلغة أجنبية . ترقد في يدها دون أن تنتبه لها .. عندما تتبين العنوان تحس أنها جمرة تحرق أناملها . إنها من ناجي . . قلبها يضرب بعنف . . أصوات طبول في غابة بدائية . ينابيع تتدفق . . وخضرة داكنة . . ونداءات مجهولة . . ناجي

يكتب لها ؟ لماذا ؟ وفي هذه الظروف بالذات ؟ هل الرسالة من بريد ما قبل الحرب ؟ تمعن النظر في التاريخ . صادرة من دولة قريبة يوم الخامس من حزيران . وعلى الرغم من تعطل المصالح العامة تصل . كيانها يرتعش . . تهزه مشاعر غريبة . تحمل الرسالة مثل عصفور تخشى عليه أن يطير . . تقفل على نفسها باب بيتها . من سيقتحم عليها عالمها ؟ من سيغتصب منها الرسالة الموءودة ؟ أعوام طويلة عاشت فيها على هذا الحلم . . أن تتلقى أي شيء مباشرة من ناجي . وهاهو يكتب إليها . . جهاراً . . صراحة . . باسمها . . ولعنوانها . . أصوات الطبول تخفت . . الأشجار تتقصف . . تسمع النداء مخنوقاً : سامية . . سامية . . آتيك ياناجي . . آتيك على أجنحة الريح . . ومع الضباب والمطر . أتيك رغم أغلالي وأصفادي . . ورغم كريم . . ورغم . . الحرب . الحرب . ويتلاشى النداء في حلقها . يغيب . لا . . لا أقدر أن أخترق الحرب ياناجي . تعال أنت . . تعال .

سامية تخاف أن تقرأ الرسالة . لعل فيها الفجيعة والموت أو الأمل المجنح بالحياة . كانت تعيش على الحلم . . الحرب اغتالت كل الأحلام فلم لاتبقي لنفسها واحداً منها ؟ لم لاتمزق الرسالة وتستريح ؟

لكن الرسالة حقيقة نابضة ومن يستطيع أن يتجاهل الحقيقة وهي بين يديه ؟ في الرسالة لاشك تحديد لموقف . . لو تجاهلته لكانت النعامة تطمر رأسها من الصياد في رمل الصحراء . وهي تحسب أنه لايراها . تفتح الرسالة . وتقرأ :

عزيزتي سامية .

سنوات طويلة وأنا لا أجرؤ على الكتابة إليك . لماذا أكتب ؟ ماذا أكتب ؟ أنا الذي جعلت الحروف نسيج عمري . . سداه ولحمته . . أنا الذي فجرت الكلمة ناراً وباروداً وصواعق وآمنت بها محرضة للأفراد والشعوب . . دافعة نحو واقع أفضل . . نحو عالم أفضل . لماذا أكتب إليك وما بيننا لايعدو حلماً هو حقيقة وحقيقة مرت كحلم ؟ حلم يتعذر علي الخلاص منه . . شفاف ورقيق كنسائم الجنة حيناً وكابوسي رهيب أحياناً أخرى . أفيق معه إلى

نفسي وأتساءل : هل صحيح أنني عرفتك . . وأني أحببتك . . وأنك اقتربت لتبتعدي . . وابتعدت لتقتربي ؟ أما الحقيقة . . فتلك الساطعة الناصعة كضوء نهار صيفي وهي أننا . . كنا قد التقينا . أنا وأنت وكريم وثلاثتنا نؤمن بهدف واحد . . ونعيش باحساس واحد . . لكن سبلنا تختلف . أنا الفكر . . وأنت القلب وكريم العقل . هل أشرح لك ؟ لايحتاج الأمر إلى ذلك . أنا وكريم كل منا يتمم الآخر . لو اجتمعنا من دونك . لكنك بيننا . . ومركز الأرض بين شطريها . كل منا لابد أن يتوق إليك . . أن يلهث حتى يقبض على الجوهر المتألق فيك . ومأساتنا أننا أحببناك معاً . . أنا وهو . . بآن معاً وكان عليك أنت أن تقرري . . وأن تختاري .

وانتظرت ذلك القرار . زمناً لا أحدده بسنين . . لأنه زمني الذي في أعماق نفسي . دون جدوى انتظرت . . لم تكوني قادرة على صنع هذا القرار ولا الآن أيضاً تقدرين . أنت نموذج معين من البشر . . والبشر لايستطيعون أن يتجاوزوا نماذجهم إلا إذا توفرت لهم شروط أخرى .

وما اظنها توفرت لك هذه الشروط وخاصة ان كريم غاب عنك . إنها واحدة من افكاري . ما اكثرها . . . وما اكثر وثوقي بها . هل احدثك عنها ؟ كلها ؟ او بعضها ؟ ماكنت لأفعل . . حتى كانت الحرب . قلت اكشف لك . . أحدثك . . لا لنستعيد شيئاً مضى . . فالماضي لايستعاد ولا لنبني شيئاً للمستقبل فمستقبلي قد وضحت خطوطه بشكلها النهائي . بل من اجل ألا أتركك معلقة بين أرض الواقع وسماء الحلم . . أعرف أنك كذلك ولو لم تكتبي لي . . ومعرفتنا الشيء ليست بالضرورة لوضوحه امامنا .

نقطة واضحة أوضحها لك ياسيدتي . . هي المحور . . وهي الأساس لما كان بيننا وما سيكون . . آمنت بأن الثورة الفكرية تسبق الثورة الفعلية . . أو فعل الثورة . . او تحقيق مضمونها الإجتماعي والسياسي . هذا ما اختلفت به حتى الصميم مع كريم . . عندما التقينا . . وأنت بيننا . أخذ يدعوني بالمثقف كما لو أنه يتهمني . . وكان يقول إن التاريخ لايكرر نفسه . . فلو أن ثورات كثيرة في العالم

مهدت لها الثورات الفكرية فهناك على النقيض أخرى قامت وتلتها الثورة الفكرية . دليله على ذلك الثورة العربية نفسها التي لبست لبوس الإسلام وحاربت بسيفه لأنها في الحقيقة ثورة العرب . . ومحمد عربي . . وقرآنه ولسانه عربيان . هذه الثورة الفعلية انتجت فيما بعد علماً وفكراً وأدباً وفناً . . او باختصار . . حضارة .

أما من أين تستمد الثورة نفسها خطوطاً لها واضحة وأكيدة وطرقاً تسير عليها إن لم يكن من معين الفكر ؟ هنا خلافنا كان حاداً . . ولم يكن من حقي أن أدين كريم . . ولا أن اتتبع فيما بعد خط فشله أو نجاحه لكني وثقت أنه لابد في مثل هذه الأحوال من أخطاء . وتناقضات . وانقسامات . وربما خيانة وعنف دموي .

وهكذا اخترت طريقي ياسيدتي . . عشت أكتب . . أحاضر . . أؤلف . أضع كل يوم لبنة في هذا البناء الفكري النظري الذي أريده أن يكون شامخاً وقوياً ولا ثغرة فيه . وأنا واثق أنك قرأت لي . . وأنا أرسلت لك عدداً من

كتبي وتمنيت لو تلقيت منك نقداً أو تعليقاً عليها . لكن الشجرة الغريبة مهما نمت فروعاً وأغصاناً فهي تحن إلى تربتها الأصلية ولا تستطيع أن تجعل جذورها متينة إلا فيها. وأنا كنت تلك الشجرة . . ولأن أفيائي تمتد وتستطيل . . ولأن رجوعي في حكم المستحيل . فقد كان علي أن أقاوم الرياح . . ونخر الديدان . . وفقر الغذاء والضياء . . من أجل أن أستمر . . من أجل أن أعطي ثماري . . التي هي سر وجودي .

أكتب إليك كل هذا أيتها العزيزة . لاالأبرر..ولا لأدخل من الباب الضيق أو من ثقب الأبرة . إنما أكتب لأنه يجب أن أكتب إليك . . هل أحدثك عن التطورات الأخيرة في حياتي ؟ لابد أن أكشف لك أولاً عن الجرح الذي أصابني منذ كنت في بلادي . جرح رجولتي . كنت صغيراً يوم جلاء المستعمرين عام ١٩٤٥ — وشهدت معركة — البرلمان — . . في الحديقة الخلفية كنت أدرس . . وساقوني رغم صغري مع المشبوهين والمتهمين . . ونلت

من التعذيب ما لا يحتمل .. وخرجت من محنتي وقد فقدت رجولتي . . أو قدرتي على الإنجاب . هذا ماقاله لي الأطباء فيما بعد مرحلة شبابي الأول . ونزعت من رأسي فكرة الزواج . . فأي امرأة يمكن أن ترضى سلفاً بعقمي . . وأن تعيش شجرة بلا ثمر ؟ هل كان هذا دافعاً كبيراً لي لأن أهتم بدراستي أكثر ؟ تجربتي المرة تلك مع مرتزقة الاستعمار وعملائه صهرتني . . حفرت في أعماقي مامعنى أن يكون للانسان وطن وقضية . . والوطن في القلب . . وان ابتعد المرء عنه والقضية في الرأس ينميها ويذكيها ويحملها مع مراحل العمر .

ودربي كانت طويلة . . وصعبة . . ولن أحدثك عنها بالتفصيل . تلزمني مجلدات لاصفحات . ولإنها نقطة ضوء . . تهم نجمين عاشا في سماء واحدة دون أن يلتقيا . عن المرأة أعترف أنني لم أعش راهباً بوذياً في معبد الكتب والفكر . . كانت لي علاقاتي . . وصداقاتي . . فأنا في عالم المرأة فيه هي الوجه الآخر لعملة الحياة . لكني لم أتزوج .

لا لأني كنت قد شعرت أنني أخونك . . أو أخون نفسي فيك . . ولا لأن لدي نقطة أمل تقربك مني بل لأن الزواج في نظري ارتباط حقيقي . . أبدي يحمل طابع الإنسانية في لقاء شخصين لقاء كاملاً في طريق لارجعة فيه .

أقول إنني لم أتزوج . . حتى كان أن أرسلتني الجامعة التي كنت أستاذاً فيها لكي أحاضر في جامعات من دول آسيا . كان التصاعد المأسوي الفاجع لحرب فيتنام . . وكان مقرراً لي أن ألقي محاضرة أو اثنتين في أحد الأقاليم هناك التي ذاقت مرارة الحرب . . ووجدتني ياسامية مندفعاً لأن أحاضر . . وأحاضر . . رغم الظروف القاسية . وأن أتحدث عن دفاع الإنسان عن قيم الإنسانية من خلال حقوقه فيها . . وعن انهيار المفاهيم القانونية تحت منطق القصف والتدمير والعدوان . . وعن القانون الدولي وعن حق الشعوب في أراضيها . . وحق الأفراد على شعوبها . . وعن . . وعن . . .

والمحاضرة التي أثارت اهتمام الناس هي — العدالة

وإنسان العصر – ولن أدخل في التفاصيل . المهم أنني وجدتني مشدوداً إلى هذه الأرض المحروثة بنار الحرب . . . إلى تلك الوجوه الصامدة الصلدة التي أفقدتها المآسي تعبيرها الإنساني . . إلى الناس الفقراء الذين يشقون الأرض الشحيحة من أجل لقمة الخبز . أحببت ذلك العالم ياسامية رغم جفافه ويباسه . وتجسم حبي في فتاة فيتنامية ماتت أسرتها كلها في الحرب . . وناضلت في الأدغال وشاركت في تعليم أبناء قومها في المخابىء السرية تحت نيران القصف الوحشي . أقول لك إنني أحببتها حباً من نوع خاص . . حب عميق جداً . . إنساني جداً . وأحسست أن لقاءنا الفكري كان متكاملاً . . إنها تستطيع أن تكون لي زوجة . . وسكرتيرة . . ومستشارة ورفيقة درب نحو آفاق الإنسانية الواسعة التي أصبحت آفاقي . . وتزوجنا . . وكان زواجنا شهادة اثبات . . صكاً استثنائياً ، ولم يعد لي بيت لا في فرنسا . . ولا في غير فرنسا . . بيتي هو العالم الكبير الضخم . . العالم المر الأسود وتعاسته . . عالم الفقر والجوع وكوارث

الاستغلال أي الذي يسمونه العالم الثالث. أقيم في كوخ . . في ملجأ . . في جامعة . . في مستشفى لافرق . أحاضر . أناقش . . أكتب . . وفي كل ذلك أغزل بمغزل العالمية الهائل . . أدور في قطبها وحولها وفي الدوائر المتسعة منها مهما بعدت المسافات . اعذريني ياسامية . . أنا أصبحت أممياً . . عالمياً . . وأنا مع ذلك أظل عربياً . هموم أمتي هي جزء من هموم هذا العالم الضخم الواقع في أنياب الرأسمالية والامبريالية . وبالتالي فما يهمنا نحن غير النضال ضد الصهيونية . . أنا مع أمتي ياسامية . لا أبتعد عنها إلا لأقترب ولا تبتعد عن مداراتي وتتسع إلا لتضيق حولها وتلتقي فيها .

لاشك أني أطلت عليك من حيث أشعر أني اختصرت. الحرب عندكم . . أقصد في بلادي تدعوني لأن أتحرك نحوكم . أرسلت إلى الجامعة في العاصمة وإلى الجهات القيادية المعنية أن تقبلني محاضراً . . فهل سيكون لي شرف القيام بواجبي ومن حيث شعوري به كواجب علي وضمن حدود امكانياتي ؟

اكتبي لي ياسامية . . هذا عنواني : إنني لمدة شهر في الجزر الخزينة . . جزر القمر . إنها تناضل من أجل الاستقلال .

سأبعث لك بمذكراتي عن جولاتي في أفريقيا التي تدفع ضريبة الدم مع نزف العرق والجهد . .والتي تجلد وهي في أوطانها بسياط العرق الأبيض .

لك تحيتي ياسامية . . وحتى نلتقي . .

وآمل أن نلتقي .

ناجي

* * *

اليوم التاسع أيضاً . . الساعة التاسعة وتسع وأربعون دقيقة . . وربما تسع وخمسون ثانية . . سامية لاتدري . . ماتدريه أنها كانت تستمع إلى الأنباء ومثل رنين أجراس جلجل النبأ . . سقطت مدينة الحدود في يد العدو . . سقطت . . لم تسقط . . سقطت . . سقطت . . وتنفتح الهوة . . وتسقط سامية . . الدوامة أتسعت . . الدوامة

تنين هائل . . الدوامة تسحبها . إلى دوائر دموية تسحبها . . الدوائر تكبر . . وتكبر . . تصبح ملء الأرض . . من علو السماء . . تبتلع الأفق والشمس التي تشرق ثانية . تشتبك عند نهايات الأشياء . تحاول أن تخرج من الدوائر . . تعجز . شبكة هائلة تلتف حولها . . من آفاق . . وحيتان . . وخفافيش . . وكلاب بحر . . وذئاب . . تتصارع فيما بينها . . تمد رؤوساً شيطانية . . تكشر عن أنياب بألوان الأزرق والأبيض والأسود . تقترب منها . . تنغرس فيها . لا أحد . أشباح تهوم من بعيد . أبوها في ضباب رمادي لايقترب منها . . أمها في تابوت مسمرة مثل دمية من شمع . . كريم يركض من أمامها وقد أدار ظهره . . اخوتها مربوطون إلى كراس معدنية ذات لون أصفر والقطن في أذانهم . ليس سوى أخيها الذي مات . .

وجهه قريب جداً من وجهها . . يكاد يلتصق به . . وجه شاحب صامت ودموع بيضاء تنحدر من محجريه . . أخي . . أخي . . انقذني يا أخي . . صوتها مذبوح . . شفاهها مقطوعة والنداء غائص في أعماقها . تسمع أصواتاً

كثيرة : دوي رياح . . ضحكات . . وصفير قطار مسافر . . وأنين خلجان في ليلة شتوية . . وبكاء أطفال . الأصوات تغدو شلالاً هادراً . . يقترب منها . . يغمرها . . يدخل من أذنيها وفمها وأصابع قدميها ويديها .

وتضيع . .

سامية تضيع . . تعرف أنها كانت في أعلى السلم أمام بيتها تنوي الخروج بعد أن مزقت رسالة ناجي . . لما . . سمعت النبأ الفاجع . . نبأ السقوط . أما كيف انهارت من أعلى السلم . . كيف نقلت إلى المستشفى . . ومن الذين اهتموا بها .. فهذا ما تحاول أن تعثر عليه دون جدوى .

في السرير ترقد سامية . . غارقة في الصمت . . مقطوعة عن عالم الآخرين حولها . مريضة وغير مريضة . . صحيحة ومحطمة بآن معاً . ليس فيها سوى بعض الرضوض وجرح في الرأس لكن الأطباء قرروا أن حالتها خطيرة . الصدمة أثرت في الدماغ . . وحالتها النفسية صعبة . . ذهول وغياب للذاكرة بينما الحواس متيقظة .

سامية تعيش عالماً انفصامياً عجيباً . لحظات هي سامية الشامي بكل ماضيها وحاضرها وارتباطاتها بالناس . . تذكر كريم . . وتتوقع مجيئه . وفترات هي الأطول امرأة أخرى . . لاتمت إلى الأولى بصلة . . ليس لها ماض . . لا حاضر . . إنما هي تعيش اللحظة من أجل الفن . . وهي رسامة . . فنانة كبيرة . . لكنها هي وفنها غير معروفين لأحد .

الطبيب يشير إلى أن عليها أن ترسم . وترسم . . فالخلاص لن يأتي إلا عن هذا الطريق . .

وبيتها الصغير يمتلىء بالألوان وعدة الرسم . . ثم أنها ترسم . . وترسم . . حتى تستنفذ ما عندها من ورق وخشب وتبدأ ريشتها تغزو الجدران . ترسم . . من أعماق ذاكرتها . . مآسي الحرب . . ولا شيء غيرها : الذعر . . حطام الطائرات . . النزوح . . جرحى النابالم . . المرضى . . المستشفيات . . . لاتستعمل إلا اللونين الأبيض والأسود . تظل ترسم حتى الانطفاء . . حتى البكاء . ثم ترتمي مثل طفل ضائع في غابة . . وعندما تعود لحالتها الاعتيادية . تصرخ . .

تمزق اللوحات . . تحطمها . . وتنهار صامتة . . وليس في وجهها أي تعبير .

الدكتور رأفت يشرف عليها . . يتلمس لها حبةشفاء في بيادر الهلاك . . حالتها النفسية جمدت عند فترة الحرب. . تصلبت . . الحرب احتلت ساحتها النفسية كلها . . الحرب أطفأت نورها . . تركتها في العتمة . .لتفرغ كل أحاسيسها عن طريق الرسم . . ولترسم . .

وسيأتي العلاج بعد ذلك .

* * *

الأيام تمر . . ساخنة . . هادئة . . حزينة . كما سامية . كما المدينة . . كما كل شيء تحت هذه السماء من الأرض العربية . .

سامية تترك اللونين الأبيض والأسود . . تترك مآسي الحرب . . تبدأ ترسم بحراً شديد الزرقة . . ونوارس بيضاء . . وقارباً بشراع . . واقفاً شمسه متوهجة حمراء .

وهي ترسم . . وإشراقة تلون وجهها . يرن جرس الهاتف تسرع رجاء لالتقاط السماعة . . تسبقها يد سامية :

— ألو . . سامية . . أنا كريم ؟

— كريم ؟ من كريم ؟

— أنا كريم . . زوجك ياحبيبتي .

تخطف فادية السماعة بينما العرق يتصبب غزيراً من سامية وتقع لاهثة .

— يا أستاذ كريم سامية مريضة . . أنا قريبتها . . سآتي إليك أين أنت ؟

— بل أنا سآتي . . فوراً . . أردت ألا أفاجئها .

كريم يستغرب كل مايروى له . رجاء تطمئنه أن حالة سامية جيدة . . هذا مايقوله الدكتور رأفت ، وفادية تروي له تفاصيل الحادث وتنصحه أن يقابل الطبيب المشرف قبل أن يواجهها . . خوفاً من صدمة أخرى . فالاناء المكسور لايحتمل كسراً آخر .

الطبيب يقول :

— الأفضل ياأستاذ كريم أن تتدرج في تقديمك لها . .

وليس في هذه الفترة . . بل في الفترة الأخرى . . إنها في دور الظلام . . وعلينا أن ننتظر لحظات النور .

— ولكن كيف ؟ أنا زوجها . . وواجبي أن أكون إلى جانبها . .

— وواجبنا نحن أن نحافظ عليها من الصدمات . حالتها دقيقة وصعبة و .

ويستسلم كريم بصعوبة :

— حسناً . . ربما كان هذا مفيداً لها كما تقولون .

كريم يترك البيت . . يقتلع نفسه منه دون أن يلتقي بسامية ؛ ينتقل إلى فندق . ويواصل اتصاله اليومي بالطبيب .

— أنا متفائل ياأستاذ كريم . . رسمت شيئاً غير مآسي الحرب . .

— مثل ماذا ؟

— رسمت بحراً . . وطيوراً . . وزورقاً مسافراً .

* * *

وكريم ينتظر اللحظة . . لحظة اللقاء . كم تبدو له

ثمينة . . وحاسمة . . وحلوة مرة . . هل يستطيع أن يقبض على تلك اللحظة من أجل علاقة مقبلة مع سامية ؟ كم أهملها . . أهمل روحها . . اعتبرها من ممتلكاته ومن كل الأشياء التي دخلت عالمه الخاص إلى الأبد . مثل القصيدة مثل الوطن . . مثل المبادىء يتصرف بها كما يشاء. لكن سامية إنسانة . . من لحم ودم . . وهي كل يوم تتعرض لمؤثرات وتغييرات . وها هي الحرب . . تقلب مفاهيمه . . تحدد له مفاهيم جديدة على مستوى العلاقات بين الأفراد على أقل تقدير . يقرر أن يترك البلاد . . وأن يتهيأ للدراسة عليا في العلوم السياسية . . وأن يطير بسامية عن هذا الجو . . وأن يعوضها حباً وحناناً . لابد أن يستمر في نضاله لكنه نضال من نوع آخر . يتذكر ناجي : — نحن يا كريم نناضل بالفكر . . بالقلم . . بالكلمة الحرة . نفشل إذ نكون مقاتلين . . نفشل إذ نكون اليد التي تنفذ الثورة لأننا فكر الثورة .

كريم أصبح يؤمن بما يؤمن به ناجي . لكل دوره

في الثورة . والناجح هو الذي عرف دوره . . والسعيد من تمثل دوره . من أحلام ناجي أن يؤسس مجلة ذات مستوى فكري عال تخاطب العالم بعقل العصر وتخدم قضايا العرب . ترى هل يحقق ناجي هذا الحلم ؟ أول ماسيفعله هو أن يتصل بناجي . . لكن عليه أولاً أن يوجه حياته في نهرها بعد أن أصبحت بلا ضفاف . عودته إلى بلاده شبه سرية . . وظروفه كأنها استثنائية . . وزوجته مريضة . . وهو في شبه عزلة .

في الفندق يفاجأ كريم بوصول ناجي إلى العاصمة مع وفد من الصحافة العالمية . ناجي يبادره بالسؤال عنها . كريم حزين . . ومشتت الفؤاد . هل أصابها مكروه أثناء الحرب ؟ هل هربت ؟ هل يعرف كريم بقصة الرسالة ؟ هل . . هل . .

كريم ينقذه من هذا الحصار :

— عدت فوجدتها على هذه الحالة . ونحن لم نتقابل بعد .

لم يتقابلا بعد فهل سيستطيع ناجي أن يقابلها إذن ؟
ليطمئن عنها من الطبيب . هذا ما يفعله ناجي . وعندما ينفرد بالطبيب يحدثه عن كل شيء . . عن علاقته بها . . عن مشاعرها نحوه . . عن الحب الذي غاب وراء بحار السنين . . عن الزمن القاسي الذي فصلهما . . وعن الرسالة أيضاً .

الطبيب يقول له بمرارة :

— وضعك بالنسبة إليها أخطر من وضع زوجها . . أنت بقعة الضوء في حياتها . هي الآن في الظلام . . عليها أن تجتاز بنفسها هذا الظلام لتصل إليها . . ولدينا الآن أمل كبير .

— هل أبقى حتى ألقاها ؟ .

— الأفضل أن تظل هذا النور في خاطرها وذكراها . . مادام كل منكما متزوجاً ولقاؤكما يعني الفراق .

* * *

الطبيب يشير على رجاء في فترات الإضاءة أن تحدثها

عن الأسرة . . عن زوجها . . عن السفر إلى بلاد جميلة . . عن الأحلام السعيدة . ورجاء تفعل . . وسامية تستكين مثل حمامة وديعة لاتلبث أن تغضب وتثور وتحطم كل شيء أمامها . . تتهم كل أحد . . وتتنكر لكل أحد .

وفادية التي كانت مهمتها أن تعيد نسج الخيوط مع الواقع المعاش . . تحمل لها الصحف . . تعيد عليها الجيد من الأنباء . . تحدثها عن أخبار المدينة . . ومن تعرف من الناس والجيران بشكل عفوي تترك فادية واحدة من الصحف . . كان فيها صورة ناجي وعنوان محاضرة وتلخيص عن حياته ومحاضراته وإقامته في البلاد . وسامية تسرق الصحيفة . . تنكفيء على ذاتها معها . . تقرؤها خلسة ثم تعيدها إلى مكانها من جديد :

فادية التي شعرت بخطئها تقول :

— هذه صحيفة قديمة ياسامية . . لاتهتمي بها . .

— بل هي حديثة ياعزيزتي . . صدرت بالأمس .

ومن خلال إحساسها بالذنب تختنق بالدمع لاتصدق

أن يأتي الطبيب الذي يلاحظ سامية في حالة جديدة فتقول :

— أنا أخطأت يادكتور في حق سامية . . أسأت إليها من حيث لا أشعر .

— بل أحسنت صنعاً من حيث لاتشعرين . سامية بدأت تتذكر الماضي وبوضوح . . النور يأخذ بابتلاع الظلام . أيام وتعود إلى حالتها الطبيعية .

* * *

ناجي ينهي إقامته بمؤتمر صحفي يقرر سفره دون فرصة لقاء سامية فزوجته أبرقت له أنها مريضة . ودون أن ينهي جدول محاضراته . سامية . . سامية . كانت أمنية حياته أن يلقاها . . وأن يظل ليراها . . هي الصورة النابضة لوطن مهزوم .

وفي المطار يفاجأ بسامية . . معذبة مثل مجدلية . . حزينة مثل مجدلية . يتقابلان . يجمد الزمن لحظات . . ثم يفترقان :

— كم أشكرك ياسامية . . حاولت أن أتصل بك ففشلت . .

— وأنا قررت أن أودعك فنجحت .

— إنها الحياة ياسامية . . .

— بل هي حياتنا نحن .

ويودعها . . فيودع نجمة عمرد . . وتعود هي بلاشمس ولا قمر . . تعود لتغرق في الظلام .

وتسألها فادية بذعر بينما رجاء ترتجف :

— أين كنت ياسامية ؟

— كنت أودع صديقاً غالياً . . شمساً غاربة . . وحلماً قد آفل .

وتطرق الفتاتان متأثرتين إلى حد البكاء .

لكن الطبيب كان مستبشراً . . فأمام سامية الفرصة أكبر للشفاء . التقاء بين كريم وسامية وقد بدأت بالشفاء كان قسرياً . . وجافاً . . مثل خبز يابس لم تستطع سامية أن تأكل منه لقمة . . ولم يستطع كريم أن يعطيه الطراوة والفضاضة . مثل سنديانة تقف في وجه عاصفة قابلت سامية

زوجها . والزوج بدا عاجزاً عن إزاحة جدار الرصاص الثقيل بينه وبين زوجته :

الجرح الذي في رأسها كان قد إلتأم . . لم يبق منه سوى علامة :

— دعيني أقبل أثر الجرح من رأسك ياسامية . .

— الجرح في رأسي شفي . . لكن رأسي لم يشف . . أو أنه ليس لي رأس . . امرأة بلا رأس أنا ياكريم .

يضطرب كريم . لقاء قسري ومفتعل والكلام يتدحرج مثل حجارة في واد . . كيف يحدثها عن السفر . . وتغيير أسلوب نضاله . . وعن أمله في عطاء آخر . . لها . . ولبلاده ؟ كيف يمكن لها أن تترك هذه المدينة وقد تركت رأسها فيها ؟ كيف يشرح لها أنه سيحبها أكثر . . وسيحب بلاده أكثر بعد كل هذا الصقيع الذي يفصل بينهما ؟ كيف يجعلها تتصالح مع نفسها . . معه . . مع العالم ؟

يظل الحوار أصم . كل منهما وراء جدار . . جدار سامية أكثر صلابة . جدار كريم رخو يتساقط مثل صفيح

ذائب ، سامية جامدة كتمثال . . صامتة كتمثال . . والشك بنفسه .. بها .. بكل شيء ينمو في داخلهمثل شجر استوائي : هل يمكن أن تكون قد أحبت غيره ؟ قلبها محطم . . روحها محطمة يستعيد أيامه معها . . كم كان مخطئاً . . وكم كان قاسياً . . والحب أحياناً يتجلى في الخطأ . . وفي القسوة . . وهذا ماكان شأنه مع بلاده أيضاً .

يخرج من بيته العقيم مثل شجرة عقيم . . لاتتفتح زهراً ؟ • لاتطرح ثمراً . . في الشوارع يضيع ، هذه الأبنية . . هذا الازدهار . . هؤلاء الناس الذين يتزايد عددهم باستمرار . . هل يمكن أن ينتظره كل ذلك من أجل أن يساهم فيه . . وهو الذي كان دوره الأساسي أن يصنعه لا أن يساهم فقط فيه ؟ إنه يتعذب . . الحياة لاتنتظر أحداً . . لايتوقف تدفقها على أحد . . ولا على ألوف . ينعطف إلى المقهى على ضفاف بردى الذي كان يضمه مع رفقاه حيث كانوا يتناقشون . . ويتحمسون . . ويخططون لثورة آتية . وهاهي الثورة قد أتت . . أما المقهى فقد أزالوه من

أجل بناء جديد . يذهب إلى الحارة حيث كان – البنسيون – الذي عاش فيه فترة . . يجدها قد هدمت وشقوا من قلبها شارعاً . يتذكر صاحبة البنسيون . وأيام الضيق والفقر . ليست المدن وحدها هي التي تتغير . . بل البشر أيضاً . هاهو أمام عالم بني من جديد . . وإن دمرته الحرب فسيبنى من جديد . . ولكن عوالمنا الداخلية هل إذا انهدمت تبنى من جديد ؟ وفي المجتمع . . ليس المهم مظاهر العمران بل الإنسان .

ضائع في هذا العالم . هل هو واضح مع نفسه ؟ صادق مع نفسه في أنه يريد كل ذلك من أجل بلاده وهل يريد أن ينتشل سامية فقط ؟ لا . . إنه يريد أن يهرب . . وأن يقدم لسامية كفارة عن كل ما مضى .

بلاده وسامية . . سامية وبلاده كلاهما محطم وكلاهما بحاجة إليه . ولكن . . ليس بهذا السبيل . .

يقرر كريم أن يبقى . . وأن يبتعد عن سامية .

– سوف أترك هذا البيت ياسامية . . لايهم أن أسافر أو لا أسافر إنما أنا سأنتظرك . . سأظل أنتظرك .

سامية تغلق على نفسها باب الصمت . . في عالم موحش بعيداً عن كل إنسان تعيش . . وحدها مع ذاتها ، مع ذكرياتها . . مع أقسى المرارة التي تذوقها في حياتها .

وحيدة في بيتها . . وحيدة في وحدتها . . وحيدة حتى ولو زارها الآخرون .

ويأتي ذلك المساء . ليس مختلفاً عن أي مساء . . لكن سامية تشعر ان بيتها يغرق في الفراغ .. وأنه يعشش فيه البوم . . وأن كل مافيه عفن ينخر في الدود . .تقتحم الخالة صفية عالمها تود لو أنها لاتفتح لها الباب . . لكن شبح أمها . . وذلك النهار المشؤوم . . والحلم والرأس المقطوع . . كل ذلك يجعلها تكمل رسم هذه اللوحة المفزعة . . كما لو أنها تطل على الجحيم . . كما لو أنها تقذف نفسها في الجحيم . .

الخالة صفية ترتعد إذ تراها . . جامدة العين كالموتى . . صفراء كالموتى :

— ماذا بك ياسامية . . الدم لايصبح ماء . . ألاتأتين

لتسكني عندي . بعد أن تزوجت رجاء وسافر باسم ابني . .؟

الخالة صفية تقرأ تعاويذ . . تتمتم . . تمسح فوق رأس ابنة أختها المتعب . . فوق جرحها الموشوم .

— وهذه الحرب أتلفتني ياسامية . . أشعر أنني متعبة . إن لك عندي وديعة . . تركتها أمك عندي رحمهاالله .

أوراق العائلة . . مستندات . . ووثائق . . ومذكرات أبيك . . ولقد رأيت أختي هنية في المنام . . كان مناماًرهيباً .

سامية تصرخ :

— لا . . أرجوك ياخالتي . . أتوسل إليك . . لاتعذبيني أنت الأخرى . . مرة أخرى لاتقولي شيئاً عن المنام . هاتي الأوراق .

وتجفل الخالة صفية . تودع سامية وهي تتمتم. وتنصرف مسرعة .

في الليل تحس سامية صداعاً أليماً . . تكاد تنفجر . . الألم حاد وعميق كما لو أن رأسها يحفر بسكين . . . الألم ينحدر من أعلى الرأس . . إلى الصدغين . . يكاد يصل

إلى العنق . سامية وحيدة . . تحاول أن تخرج من بيتها . . تريد أن تهرب . . عند أول السلم تقف . . تشعر بدوار . . تبدأ الدوامة تنفتح . تظل ثابتة . . تنفتح الدوائر الدموية . . تقرر أن تدخل فيها بملء إرادتها . . لكن الدوائر سرعان ما تنهزم . . تتلاشى . . تثبت عينها في الضوء الخافت . يغدو شمساً باهرة الضياء . . الشمس تخترق رأسها . . تصل إلى تلافيف دماغها . . تملؤها سخونة . ترجع إلى داخل البيت . . تتناول الأوراق التي أعطتها إياها خالتها . . تفتح الأدراج والخزائن . . تنثر الكتب والثياب . . تركل بأقدامها قطع الأثاث واحدة واحدة .

تضرم النار في البيت ثم تخرج .

تحرق عالمها . . ولاتأخذ منه أي شيء . . سوى وثيقة زواجها من كريم . تتحسس الجرح في رأسها . . تتذكر نبوءة أمها . . تلمس عنقها برفق . .

وتشعر أنها تولد من جديد .

تمت تشرين / ١٩٦٩

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Passer By_in Time

April 2009

Passerby_intime@yahoo.com

Passer by in time